

اليَقْظَةُ



أَنْطَلُونِي دُو مِيلَو

دار البقرة



اليَقْظَة

أنطوني دي ميلو

نقله إلى العربية
فادي حليمو اليسوعي

دار المشرق

المقدّمة

طلب إلى أنتوني دو ميلو، في إحدى المناسبات التي جمعتنا مع أصدقاء له، أن يقول بضع كلماتٍ حول طبيعة عمله. فوقف وروى قصةً كثيرًا مرارًا بعد ذلك في المؤتمرات، وهي القصة التي نجدونها في كتابه أغنية القصفور. إلا أنني ذهلتُ حين قال بأن هذه القصة تنطبق عليّ.

وجد رجلٌ بيضةً نسرٍ ووضعها في قنّ الدجاج المنزلّي. فقس فرخُ النسر مع صغار الدجاج وعاش معهم. طوال حياته، كان النسر يقومُ بما يعملُه الدجاج المنزلّي. ينش الأرض بحثًا عن الذود والحشرات، يقوق مثل الدجاج ويفتح جناحيه قليلًا ليطيّر بيضةً أمطار في الهواء.

مرّت السنين وأصبح النسر عجوزًا. وفي أحد الأيام رأى طيرًا رائعًا فوقه في السماء الزّرقاء. كان ينزلق بأنّية ملكيّة بين تيارات الهواء القويّة. مع قليلٍ من ضربات جناحيه الذهبيّين القويّين.

نظر النسر العجوز إلى الأعلى برهبة. وسأل: «من هذا؟» «إنّه النسر، ملكُ الطّيور، أجابه جازّة. «إنّه ينتمي إلى السماء، أمّا نحن فننتهي إلى الأرض - نحن ديوك». وهكذا عاش النسر ومات وكأنّه ديك، لأنّه اعتقد أنّه حقًا ديك.

مذهول؟ بصراحة، شعرتُ في البداية بالإهانة! أيشبهني علنًا بالدجاج المنزلّي؟ من ناحية، نعم لقد فعل ذلك، ومن ناحية أخرى لا.

أبحاولُ إهانتني؟ مطلقًا. فهذا ليس أسلوب أنتوني. إلا أنّه في الواقع كان يقول لي ولأولئك الناس بأنّي لست في نظره بسوى «نسر ذهبي». غير وأنّ الارتفاعات التي يمكنني التحليق إليها. لقد مكنتني هذه القصة من فهم معايير هذا الرّجل، حبّه لأصيل واحترامه للناس، فيما يقول الحقيقة على الدوام. هذه هي طبيعة عمله: توعية الناس إلى عظمتهم. هذا هو أنتوني دو ميلو في أفضل حالاته، مُعلّمًا رسالة «الوعي»، مُتيحًا لنا رؤية النور الذي نحن عليه لأنفسنا وللآخرين، ومعرفة أننا أفضل ممّا نعتقد.

يلتقطُ هذا الكتاب أنتوني وهو يخلق، وجُلّ ما يفعله - في الحوارات والشفاعات اليوميّة - هو مُشّ الموضوعات كافّة التي تُنقش قلوب مستمعيه.

لقد واجهتُ بعد وفاته مهمّة الحفاظ على الصفحات المطبوعة، على روح كلماته في اللقاءات المباشرة، والإبقاء على عفويّته مع جمهورٍ من

المستمعين المُرهقي الحس. وبفضل الدّعم الرائع الذي حظيت به من جورج ماك كولي اليسوعي، جوان برادي، جون كولكين وآخرين أكثر من أن أمكن من تعدادهم، فقد تمّ التقاط الساعات المُثيرة، المُمتعة والمستفزة التي أمضاها أنتوني في التواصل مع أناس حقيقيين، على صفحات هذا الكتاب.

إستمع بالكتاب، دع الكلمات تنساب إلى روحك وأصغ بقلبك، كما كان أنتوني ليقترب عليك. إستمع إلى قصصه فتتمكن من الاستماع إلى قصصك. دعني أتركك بمفردك مع أنتوني - المرشد الروحي - الصديق الذي ستحظى به كل حياتك.

ج. فرانسيس ستروود اليسوعي

مركز روحانية دو ميلو

جامعة فورد هام - بروكس، نيويورك

عن اليقظة

إنَّ الرُّوحانيَّة تعني الاستيقاظ. مُعظمُ النَّاسِ نائمون، على الرُّغم من أنَّهم لا يُدركون ذلك. لقد وُلِدوا نائمين، يعيشون نائمين، يتزوَّجون أثناء نومهم ولا يستيقظون مطلقاً. إنَّهم لا يفهمون روعة ذلك الشيء الذي ندعوه الوجود البشري. أتُعرفون بأنَّ كلَّ المُعتقدات، مسيحيَّة أو غير مسيحيَّة، ومهما كانت عقيدتها أو ديانتها، تجمع على أمرٍ واحدٍ فقط: أنَّ كلَّ شيءٍ خَسَنٌ، كلَّ شيءٍ خَسَنٌ؟ على الرُّغم من أنَّ كلَّ شيءٍ غارق في الواقع في قوْضٍ عارمة، إلَّا أنَّ كلَّ شيءٍ خَسَنٌ. إنَّها لمفارقة غريبة بال تأكيد: غير أنَّ التَّراجيدي في الموضوع هذا هو أنَّ غالبيَّة النَّاس لا يتمكَّنون من معرفة أنَّ كلَّ شيءٍ خَسَنٌ وذلك لأنَّهم نائمون. يشاهدون كابوساً.

لقد سمعتُ العامَّ الفائت على قناة تليفزيونية إسبانية هذه القصة عن رجلٍ يفرغ بابَ عُرْفَةِ ابته قائلاً: «جايبي، استيقظ!». ويحيي جايبي: «لا أريدُ التَّهوض يا أبي». يصرخ الأب: «إنهض، يتوجَّب عليك الذهابُ إلى المدرسة». ويحيي جايبي: «لا أريدُ الذهاب إلى المدرسة». «لِمَ لا؟» يسأل الأب. «لثلاثة أسباب». يحيي جايبي: «أولاً لأنَّ ذلك ممِلٌ للغاية؛ وثانياً، لأنَّ التَّلاميذ يغيظونني، وثالثاً لأنني أكرهُ المدرسة». عندها يقول الأب: «حسناً، سأعطيك ثلاثة أسبابٍ توجَّب عليك الذهابُ إلى المدرسة: أولاً لأنَّه واجبك. ثانياً: لأنَّك تبلغُ الخامسة والأربعين من عمرك. وثالثاً: لأنَّك المدير». استيقظوا.

استيقظوا. لقد كبرتُم. إنَّكم أكبر من أن تُبقوا نياماً. استيقظوا، كفوا عن اللُّهو بالعابِكُم.

يخبركم مُعظمُ النَّاسِ أنَّهم يودُّون مغادرةَ حديقَةِ الأطفال، لكن لا تصدِّقوهم. لا تصدِّقوهم! فجل ما يريدون هو إصلاحُ لعبهم المكسورة. «أعدْ لي زوجتي، أعدْ لي عملي، أعدْ لي أموالِي، أعدْ لي شِمتي، نجاحي». هذا ما يريدونه، يريدون استبدالَ لعبهم. هذا كلُّ شيء. سيخبركم أفضلُ المحلِّلين النفسيين بذلك، بأنَّ النَّاس لا يريدون أن يشفوا حقيقةً. ما يريدونه هو التَّرويح عن أنفسهم؛ فالشفاء مؤلم.

اليقظةُ شيءٌ بغيضٌ كما تُعرفون. إذ يكونُ الفردُ مرتاحاً ومسروراً في السَّيرير ومن المزعج أن يتمَّ إيقاظه. هذا هو السَّبب الذي يجعلُ المُعلِّم الحكيم يكف عن محاولة إيقاظ النَّاس. وآملُ أن أكون حكيماً هنا، وألا أقوم بأيِّ محاولةٍ لإيقاظكم إنَّ كنتم نياماً. ذلك لا يعني حقاً، على الرُّغم من أنَّي سأقول لكم بين القينة والأخرى «استيقظوا!». ما يعني هو القيامُ بواجبي، أن أرقص رقصتي. فإن استقذتم منها، كان به؛ وإن لم تستفيدوا، فذلك مؤسفٌ للغاية! وكما يقول المثل، «طبيعة المطر واحدة، لكنه يسببُ نموَّ الأشواك في

المستنتجات والورود في الحدائق.

هل سأكون مفيداً لكم في هذا اللقاء؟

أعتقدون أنني سأساعد أي شخص؟ لا! أو، لا، لا، لا، لا، لا! لا تتوقعوا مني أن أكون مفيداً لأي كان. وكذلك لا تتوقعوا أن أؤدي أيًا كان. إن تأديتكم، فقد تسببتكم بذلك لأنفسكم؛ وإن شعرتم بأنكم تلقيتكم المساعدة، فكونوا على ثقة بأنكم ساعدتم أنفسكم. لقد فعلتم حقاً! أعتقدون أن الناس يساعدونكم؟ لا، إنهم لا يفعلون. أعتقدون أن الناس يدعمونكم؟ لا، لا يفعلون.

التقيت في إحدى مجموعات العلاج براهبة، قالت لي: «أشعر بأن رئيستي لا تدعمني». فأجبتها: «ما الذي تعنيه بذلك؟» قالت: «حسناً، لم تأت رئيستي الإقليمية لزيارتنا مطلقاً في دير الابتداء الذي أراسه، كما لا تقول لي أي كلمة تقدير». أجبتها: «حسناً دعينا نقوم بتمثيلية صغيرة، لنتظاهر بأنني أعرف رئيستك الإقليمية. في الواقع، لنتظاهر بأنني أعرف تمامًا ما الذي يدور في خلدها في ما يتعلق بك. لذا سأقول لك (على أنني رئيستك الإقليمية): أتعرفين، يا ماري، إن سبب عدم قدومي إلى مكان تواجدك هو أنه المكان الوحيد في الإقليم الخالي من المشاكل. أعرف أنك المسؤولة، لذلك فكل شيء يسير سيراً حسناً. كيف تشعرين الآن؟». أجابتن: «إنه شعور عظيم». ثم قلت لها: «حسناً أتمنعه لو غادرت الغرفة لدقيقة أو اثنتين، إنه جزء من التمرين». وبينما كانت خارج الغرفة، قلت للآخرين في مجموعة العلاج: «ما زلت أؤدي دور الرئيسة الإقليمية، حسن؟ إن ماري التي في الخارج هي أسوأ معلمة ابتداء حظينا بها على مر تاريخ الإقليم. في الواقع، إن سبب عدم ذهابي إلى دير الابتداء ذاك هو أنني لا أستطيع تحقل رؤية ما تفعله. إنه وبساطة أمر فطبع. ولكن، إن قلت لها الحقيقة، فإن ذلك لن يزيد الأمر إلا سوءاً ويجعل المبتدئات يعانين المزيد. إننا نهد إحداهن لتحل محلها بعد سنة أو سنتين. في الوقت الحالي، اعتقد أن قول الكلمات اللطيفة تلك سيساعدها على الاستمرار. ما رأيكم في ذلك؟» أجابوا: «في الواقع، إنه الشيء الوحيد الممكن قوله في الطرف الزاوي». ثم أعدت ماري إلى المجموعة وسألها إن كانت ما تزال تشعر بالتحسن. أجابت قائلة: «أوه نعم». مسكينة ماري! لقد ظننت أنها تتلقى المساندة في حين أن الأمر لم يكن كذلك. الفكرة هنا هي أننا نخلق في أذهاننا معظم ما نفكر ونشعر به، بما في ذلك فكرة تلقي الدعم من الناس.

هل تعتقدون أنكم تساعدون الناس لأنكم تحبونهم؟ حسناً، لدي خبر لكم. لستم تحبون أحداً بالمرّة. أنتم تحبون فقط أحكامكم المسبقة وأفكاركم المقفمة بالأمل عن هذا الشخص أو ذاك. أخذوا دقيقة للتفكير في هذا الأمر: لستم تحبون أحداً بالمرّة. أنتم تحبون أفكاركم المسبقة عن هذا الشخص. أليس هذه هي الطريقة التي تتوقعون بها عن حبكم شخصاً ما؟ تنفخون

فكرتكم عنه، اليس كذلك؟ تقولون لأحدهم: «كيف لك أن تأخذني، في حين أوليتك كلَّ ثقتي؟». بركاتكم! هذا جزءٌ من عملية غسل الفُخ التي يمارسها المجتمع. أنتم لا تثقون مطلقاً بالشخص، بل تثقون فقط بحكمكم عليه، فمِمَّ تشتكون إذا؟ لا تستسيغون في الواقع قول: «لقد أسأت الحكم على هذا الشخص». ذلك لا يُشعركم بالإطراء، اليس كذلك؟ لذا تفضلون القول: «كيف لك أن تخيب أمني بهذا الشكل؟».

لهذا السبب تحديداً، ثقة أناس لا تريد التوضيح، أناس لا تريد التغيير، أناس لا تريد حقيقة أن تكون سعيدة. وكما قال لي أحد الأشخاص الحكماء ذات يوم: «لا تحاول أن تجعلهم سعداء، سيؤذي ذلك فقط إلى إقحامك في المشاكل».

«لا تحاول أن تعلم خنزيراً الغناء؛ ذلك هدرٌ لوقتكَ وإزعاجٌ للخنزير». كمثّل رجل الأعمال ذاك الذي ذهب إلى المشرب، ورأى قطعة موز في آبن زميله - موز في آبنه! وفكر: «نرى، أيتوجب عليّ تنبيهه إلى ذلك. لا، ذلك لا يعنيني». إلا أن الفكرة تضايقه. لذلك قرأه، بعد أن تناول كأسين أو اثنين، قال لزميله: «معذرة، أوه، ثقة قطعة موز في آبنك». فقال زميله: «ماذا؟». كرّر رجل الأعمال: «ثقة قطعة موز في آبنك». وثانية أجاب زميله: «ماذا تقول؟». هنا صرخ رجل الأعمال بأعلى صوته قائلاً: «هناك قطعة موز في آبنك!». أجاب زميله: «لا تصرخ، ثقة موز في آبنك!». كما ترون فلا فائدة من ذلك. لا أنفك أقول لنفسك: «استسلم، استسلم، استسلم، أفرغ جعبتك وأخرج، إن استفادوا، فهذا حسن، وإن لم يفعلوا فذلك مؤسف!».

عن النوع الأنسب من الأنايَّة

أول ما أريد لكم أن تفهموه، إن كنتم حقًا تريدون الاستيقاظ، هو أنكم لا تريدون أن تستيقظوا. الخطوة الأولى للاستيقاظ هي أن تكونوا صادقين كفاية بحيث تعترفون لأنفسكم بأنكم لا تحبون ذلك. لا تريدون أن تكونوا سعداء. أتودون القيام باختبار صغير؟ لنجرب ذلك. سوف يستغرق ذلك دقيقة واحدة بالضبط. يمكنك أن تغلق عينيك أو أن تبقيهما مفتوحتين، ليس لذلك أهمية تذكر. فكر في شخص تحبه جدًا، شخص مقرب منك، شخص غال عليك، وتخيل أنك تقول له: «أفضل الحصول على السعادة، على الحصول عليك». راقبوا ما يحدث. «أفضل السعادة عليك. إن كنت أملك الخيار، فما من شك في أنني سأختار السعادة». كم من شخص بينكم يشعر بأنه أناي لقوله هذا؟ كثير من على ما يبدو. أتزون إلى أي مدى غسيت أدمغتك؟ أتزون كيف غسيت أدمغتنا لتتحول إلى التفكير: «كيف يمكنني أن أكون أنايًا إلى هذا الحد؟» ولكن، دقيق النظر جيدًا، من هو فعليًا الأناي هنا؟ تخيل شخصًا يقول لك: «كيف يمكنك أن تكون أنايًا بحيث تفضل سعادتك علي؟». أن تشعر بأنك تود إجابته قائلا: «أعذرني، ولكن، كيف يمكنك أن تكون أنايًا إلى درجة تطلب مني أن أفضلك على سعادتي؟».

في إحدى المرات، قالت لي امرأة، إنها عندما كانت طفلة، كان قريبها - الراهب اليسوعي - يعظ رياضة روحية في كنيسة ليسوعيين في ميلووكي. كان يفتتح كل جلسة بالكلمات التالية: «إن المحك الأساسي للحب هو التضحية، ومعبّر الحب هو اللاأنايَّة». هذا مذهل! سألتها: «أريدني أن أحبك على حساب سعادتي؟». أجابت «نعم». أوليس ذلك مبهجًا؟ أن يكون ذلك رائعًا؟ ستحبني على حساب سعادتها، وسأحبها على حساب سعادتي، وسنحصل على شخصين غير سعيدين، وحب أبدي!

عن الرّغبة في السّعادة

كنت أقول بأننا لا نرغب في السّعادة. نريد أمورًا أخرى. أو لنعترض عن ذلك بشكل أدق: إننا لا نرغب في السّعادة غير المشروطة. أريد أن أكون سعيدًا، ولكن مع امتلاك هذا الشيء وذاك وأشياء أخرى أيضًا. يحدث هذا عندما أقول لصديقي أو إلهي أو لأي أحد: «أنت سعادتي. وأرفض أن أكون سعيدًا ما لم أحصل عليك».

إنه لفي غاية الأهميّة أن نتمكن من فهم هذا. لا يسعنا تخيل أنفسنا سعداء من دون هذه الشروط. هذا صحيح جدًا. لا يسعنا تخيل أنفسنا سعداء من دونها. لقد تمّ تلقيننا على أن نضع سعادتنا فيها.

هذا هو إذاً أوّل الأمور التي نحتاج إلى فعلها إن أردنا الاستيقاظ. ذلك يشابه قولنا: إن أردنا أن نجب، إن أردنا الحرّيّة، إن أردنا الفرح والسلام والروحانيّة. وبهذا المعنى، فإنّ الروحانيّة هي أقوى الأمور عمليّة في العالم بأسره. أتحدّي أي شخص أن يتمكن من الإتيان بشيء أقوى عمليّة من الروحانيّة كما أعرفها - ليست التقوى، ليس الورع، ليست الدين، ليست العبادة، بل الروحانيّة - الاستيقاظ، الاستيقاظ! انظروا إلى الغم في كلّ مكان. انظروا إلى الوحدة، إلى الخوف، الارتباك، الصراع في قلوب الناس، الصراع الداخلي، الصراع الخارجي. لنفترض أن شخصًا ما أعطاكم طريقة للتخلص من كلّ هذا. لنفترض أن شخصًا ما منحكم وسيلة للتخلص من الهدر الهائل هذا في الطّاقة، في الصّحة، في المشاعر المتأثّبة من هذه الصّراعات والارتباكات. ان ترغبوا ذلك؟

لنفترض أن شخصًا ما أرانا طريقة تمكّتنا من حبّ واحدنا للآخر بشكل صادق، من أن نعيش في سلام، أن نعيش في حبّ. أيمكنكم التفكير في أي شيء عملي أكثر من هذا؟ لكن، عوضًا من ذلك، ثمة أشخاص يظنّون أن الأعمال الضّخمة هي أمر أقوى عمليّة، السياسة مثلاً والعلم. بربّكم ما الفائدة التي نحنيها من وضع رجل على القمر، ونحرّج لا نتمكن حتّى من العيش على الأرض؟

هل سنتكلم على علم النفس في اللقاء الروحي هذا؟

هل علم النفس أقوى عملية من الروحانية؟ ما من شيء عملي أكثر من الروحانية. ما الذي يمكن المحلل النفسي المسكين أن يفعله؟ يمكنه التخفيف من الضغط فقط. أنا، شخصيًا، محلل نفسي، وأمارس العلاج النفسي، وأعيش في داخلي الصراع الكبير هذا عندما يتوجب علي الاختيار بين علم النفس والروحانية. أتساءل فيما إذا كان أي منكم هنا يجد ذلك منطقيًا. إذ إنه لم يكن منطقيًا عندي على الأقل، وهذا طوال عدة سنوات.

سأفتر ما أعنيه. لم يكن ذلك، وطوال عدة سنوات، منطقيًا عندي، إلى أن اكتشفت فجأة أنه يتوجب على الناس أن يعانون بشكل كافي في علاقة ما قبل أن يتحرروا من الوهم الذي يحيط بكل العلاقات. أليست هذه طريقة فظيعة في التفكير؟ يتوجب عليهم أن يعانون بشكل كافي في علاقة ما قبل أن يستيقظوا ويقولوا: «لقد سئمت من هذا! لا بد من وجود طريقة أفضل في الحياة من الاعتماد على كائن بشري آخر». وما الذي كنت أفعله حينها بصفتي معالجًا نفسيًا؟ كان الناس يأتون إلي مع مشاكل في علاقاتهم، مع مشاكل في طرق تواصلهم، إلخ. في بعض الأحيان، أمكنني مساعدتهم. إلا أنه يؤسفني القول بأنني، في أحيان أخرى كثيرة، لم أتمكن من تقديم يد المساعدة، لأن الناس بقوا نيامًا. ربما كان عليهم أن يمروا بالمزيد من المعاناة. ربما كان يحسن بهم أن يلمسوا القاع ويقولوا: «لقد سئمت من كل هذا». إذ إنك عندما تسام من علك فقط، تنوصل إلى الشفاء منها. يذهب معظم الناس إلى الطبيب النفسي أو المحلل النفسي ليرتاحوا. أكرر: ليرتاحوا، لا ليشفوا.

هنالك قصة عن جوني الصغير الذي كان كما يدعون متخلفًا عقليًا. ولكن يبدو أنه لم يكن كذلك بالمرّة، كما سنزّون من خلال هذه القصة. ذهب جوني في مدرسته إلى صف الأشغال الخاضع بذوي الاحتياجات الخاصة. أخذ قطعة صغيرة من المعجون، وانفرد في إحدى زوايا الغرفة يشكّلها. أقبلت إليه المعلمة وقالت: «مرحبًا جوني». أجابها جوني: «مرحبًا». سألته المعلمة: «ما الذي بين يديك؟». أجاب: «قطعة من روث البقر». فسألته ثانية، «وما الذي تصنعه بها؟». أجاب «أنا أصنع معلمة».

فكرت المعلمة: «لقد انتكس المسكين جوني». لذلك قامت باستدعاء المدير الذي كان يمرّ قرب الباب ساعتها، وقالت له: «لقد انتكست حال جوني».

عندها اتّجه المدير إلى جوني وقال: «مرحبًا بتي». أجاب جوني: «مرحبًا».

فسأله المدير: «ما الذي بين يديك؟» أجاب: «قطعة من روث البقر». «وما الذي تصنعه بها؟» أجاب: «مديرًا».

فحينها، اعتقد المدير أن الحالة تستوجب العرض على المحلل النفسي في المدرسة: «استدعوا المحلل النفسي!».

وكان المحلل النفسي شابًا ذكيًا، أتى وقال «مرحبًا». أجاب جوني «مرحبًا». فقال له المحلل: «أعرف ما الذي بين يديك». «ماذا؟». قال المحلل: «كتلة من روث البقر». قال جوني «أصبت». «وأعرف ما الذي تصنعه بها». «ماذا؟». «أنت تصنع محللاً نفسيًا». «خطأ. إذ لا يوجد كفة كافية من روث البقر». ويدعونه متخلفاً عقلياً!

يقوم علماء النفس المساكين بعمل جيد. إنهم يفعلون ذلك حقًا. هنالك أوقات يقدم فيها العلاج النفسي مساعدة مذهلة، لأنك عندما تكون على حافة الجنون أو الانفجار من الغضب، ثقة احتمالات: إما أن تُصاب بالذهان، أو أن تصير متصوفاً. هذه حقيقة الصوفية: إنها ما يقابل الجنون. أنعرفون أن إحدى العلامات الدالة على يقظتكم ما هي إلا اللحظة التي يتساءل واحدكم فيها: «أنا مجنون؟ أم أنهم جميعًا مجانين؟» إنها حقيقة. لأننا مجانين. العالم بأسره مجنون. إنهم مجانين بشكل مؤكد! والسبب الوحيد في عدم احتجازنا في مؤسسة ما، هو توافر الكثير منا. أنا مجانين إذا. نعيش بأفكار مجنونة عن الحب، عن العلاقات، عن السعادة، عن الفرح، عن كل شيء. أنا مجانين إلى الحد الذي يثبث أؤمن فيه بأنه إذا اتفق الجميع على أمر ما، يمكننا الوثوق من أنه خاطئ! كل فكرة جديدة، كل فكرة عظيمة، عندما ظهرت في البداية، انطلقت من شخص واحد فقط. وذلك الرجل المدعو يسوع المسيح هو الشخص الواحد هذا. الكل كان يقول بأمور مخالفة لما قاله. بوذا كان بدوره شخصاً واحداً. الكل كان يقول بأمور مخالفة لما قاله. اعتقد أن برتراند راسل هو القائل: «كل فكرة جديدة تبدأ تجديفاً». هذا قول حسن ودقيق. وستسمعون مقداراً ليس بقليل من التشديد طوال هذه الأيام. «لقد جُذِفَ». لأن الناس مجانين، إنهم مخبولون، وكلما أسرعتم في إدراك ذلك، كان ذلك أفضل لصحتكم العقلية والروحية. لا تشقوا بهم، لا تشقوا بأصدقائكم المفضلين. تحرروا من الوهم المتعلق بأصدقائكم المفضلين. إنهم في غاية الذكاء. كما هي حال كل واحد منكم في تعاملاته مع الأشخاص الآخرين كافة، على الرغم من أنكم قد لا تكونون مدركين لذلك. أو، إنكم في غاية المكر والتعذيب والذكاء. أنتم تقومون بعمل عظيم.

لست أجامل! أتراني أفعل ذلك؟ ها إنني أكرّر: بما أنكم تبغون الاستيقاظ، فأنتم تقومون بعمل عظيم. على الرغم من كونكم لا تدركون ذلك. تظنون أنكم مَجْبُونُونَ للغاية. ها! من هو ذاك الذي تحبونه؟ تضحيتكم الذاتية تمنحكم شعوراً جيداً، اليس كذلك؟ «إنني أضحي بنفسي، إنني أعيش وفقاً لمبادئ». ولكنكم تحصلون على شيء بالمقابل، اليس كذلك؟ تحصلون دومًا على

نتيجة لأي شيء تقومون به، إلى أن تستيقظوا.

لذلك هاكم الخطوة الأولى: أدركوا أنكم لا تريدون الاستيقاظ. أن تستيقظوا أمر بالغ الصعوبة. في حين أنكم منؤمن مغنطيسيًا لتعتقدوا أن قصاصة من جريدة قديمة ما هي إلا شيك بمليون دولار. كم سيكون من الصعب أن تبعدوا أنفسكم عن قصاصة الورق هذه.

كذلك فالزهد ليس حلاً

كل مرة تمارسون الزهد فيها، تخذعون أنفسكم. فما رأيكم في ذلك! تخذعون أنفسكم. بم تزهدون؟ كل مرة تزهدون بشيء ما فإنكم تقيّدون أنفسكم إلى الأبد بهذا الشيء الذي تزهدون به. ثقة معلم روجيه في الهند يقول: «كلما اتبني عاهرة، فإنها لا تتكلم إلا على الله. تقول: لقد سيّمت هذه الحياة التي أعيشها، أريد الله. في المقابل، كلما زارني رجل دين، فإنه لا يتكلم إلا على الجنس». حسن جداً، عندما تزهدون بشيء، فستتعلقون به إلى الأبد. عندما تقاومون شيئاً، فإنكم تقوّونه، تمنحونه القوة عينها التي تستخدمونها في مقاومته. ذلك يشمل الشيوعية وكل شيء آخر. لذلك ينبغي لكم استقبال «شياطينكم»، لأنكم عندما تقاومونها، تقوّونها. ألم يسبق لأحد أن أخبركم هذا؟ عندما تزهدون بالشيء ترتبطون به. والطريقة الوحيدة للتخلص منه هي أن تنظروا من خلاله. لا تزهّدوا به، بل انظروا من خلاله، افهموا قيمته الحقيقية، فلا تعودوا بعد بحاجة إلى أن تزهّدوا به؛ سوف يسقط ببساطة من بين أيديكم. ولكن، بالطبع، إن لم تتمكنوا من رؤية ذلك، إن كنتم متؤمنين بحيث تعتقدون أنكم لن تكونوا سعداء من دون هذا الشيء أو ذاك بأنكم عالقون! ما تحتاج عمله معكم ليس هو ما تحاول الروحانية المزعومة عمله، أي أن تدفعكم إلى بذل التضحيات وإلى الزهد. هذا غير مجدٍ. ستظلّون نياماً. ما تحتاج عمله هو مساعدتكم على الفهم، الفهم ثم الفهم. إن فهتموه، فسوف تنالشي الرغبة فيه بكل بساطة. إنها طريقة أخرى للقول: إن استيقظتم فسنتنالشي رغبتكم فيه.

أصغوا وانسوا ما تعلّمتموه

يستيقظ بعضنا بفضل حقائق الحياة المؤلمة. نعاني كثيرًا إلى الحد الذي يدفعنا إلى الاستيقاظ دفعة. وعلى الرغم من ذلك، يظل الناس متخبطين في الحياة. يمشون أثناء نومهم، لا يستيقظون مطلقًا. وبشكل قزاحي، لا يخطر ببالهم مطلقًا أنه لربما هناك طريق آخر. لا يخطر ببالهم مطلقًا أنه لربما هناك طريق أفضل. ومع ذلك، فإن لم تتخبطوا بما فيه الكفاية في الحياة، ولم تعانيوا كفاية، فإن هناك طريقًا أخرى: الإصغاء. لسبب أقصد أنه ينبغي لكم الموافقة على كل ما أقوله. هذا لن يكون إصغاءً. صدقوني، ليس مهمًا حقًا إن كنتم توافقونني الرأي أم لا. لأن الموافقة وعدمها يتعلقان بالكلمات والمفاهيم والنظريات. ولا يتعلقان بالحقيقة على الإطلاق؛ إذ لا يتم التعبير عن الحقيقة بالكلمات. الحقيقة تُرى بشكل مفاجئ، كنتيجة لموقف معين. لذا، فيما كانكم أن تخالفوني وأن تزوا الحقيقة على الرغم من ذلك. ولكن، ينبغي أن يكون لديكم موقف انفتاح، إرادة اكتشاف شيء جديد. هذا هو المهم، لا اتفاقكم معي أو اختلافكم عني. في النهاية، فإن معظم ما أعطيكم إياه ما هو في الحقيقة إلا نظريات. يمكنني أن أحدثكم، لا عن الحقيقة، بل عن العقبات أمام الحقيقة. ما من نظرية تفي الحقيقة حقًا، لذلك قلت بأنني لن أكلّمكم على الحقيقة بل على العقبات أمامها. تلك يمكنني وصفها، في حين لا يمكنني وصف الحقيقة بحد ذاتها. لا أحد يمكنه ذلك. كل ما يمكنني فعله هو إعطاؤكم بعض صفات أكاذيبكم، لتدخلوا عنها. كل ما يمكنني فعله من أجلكم هو تحذير معتقداتكم والنظام العقائدي الذي يجعلكم غير سعداء. كل ما أستطيع فعله هو مساعدتكم على نسيان ما تعلّمتموه. هذا هو مجال التعلم الذي تهتم به الروحانية: نسيان ما تعلّمتموه، نسيان معظم ما سبق لكم أن تعلّمتموه. الرغبة في نسيان ما تعلّمتموه، الإصغاء.

هل تُصغون، كما يفعل معظم الناس، لتأكيد ما تعرفونه بشكل مسبق؟ راقبوا ردود أفعالكم أثناء كلامي، إذ إنكم كثيرًا ما ستجفلون أو تصدّمون، ترتاعون أو تهتاجون، تملّون أو حتّى تحبّطون. أو ستقولون «عظيم»!

ولكن، هل تُصغون لما يؤكّد ما تفكّرون فيه مسبقًا؟ أم تُصغون لاكتشاف أمر جديد؟ هذا هو المهم. إنه أمر يصعب على النيام القيام به. أعلن يسوع المسيح البشرى السارة للناس، ومع ذلك فقد رفضت، لأنها سارة، بل لأنها كانت جديدة. نحن نكره الجديد. نكرهه! وكلما أبكرنا بمواجهة هذه الحقيقة، كان ذلك أفضل. لا نريد أشياء جديدة، وخاصة عندما تكون مزعجة لنا، أو تتطلب التغيير. وعلى الأخص إن تضمّنت قولنا: «لقد كنت مخطئًا». أذكر لقاء جمعني في إسبانيا بيسوعي يبلغ الثامنة والسبعين من العمر؛ كان أستاذي ومديري في الهند قبل ثلاثين أو أربعين سنة. وكان يحضر ورشة عمل كهذه.

قال لي: «كان ينبغي لي سماعك قبل سثنين عامًا. أتعرف شيئًا، لقد كنت مخطئًا طوال عمري». رباها! إن سماع ذلك هو أشبه بالنظر إلى إحدى أعاجيب الدنيا. هذا هو سيداتي وسادتي الإيمان؛ أي الانفتاح على الحقيقة بغض النظر عن النتائج، وبغض النظر عن المكان الذي ستقودك إليه، حتى وإن كنت لا تعلم ما هو. يدعي ذلك بالإيمان لا العقيدة. تمتحك عقائدك الكثير من الأمان، أما الإيمان فهو عدم الأمان. لن تعرف، أنت منفتح ومستعد للتألم، أنت منفتح كثيرًا جاهز للإصغاء. ودعوني أذكركم، الانفتاح لا يعني السذاجة، لا يعني ابتلاع كل ما يقوله المتحدث. أوه لا ينبغي أن تتحدوا كل ما أقوله، ولكن، تحدوه من موقف انفتاح، وليس من موقف عناد وتصلب. وتحدوا كل ما أقوله، تذكروا كلمات بوذا اللطيفة هذه، عندما قال: «لا ينبغي للرهبان والدارسين قبول كلماتي من منطلق احترام، بل ينبغي لهم تفحصها كما يفحص الصانع الذهب - من خلال قطعها، كشطها، حكها وإذابتها».

إن فعلينم هذا كله، فهذا يعني أنكم تصفون. يعني أنكم تحطون خطوة رئيسية نحو الاستيقاظ. الخطوة الأولى إذا، كما سبق وقلت، هي الاستعداد للاعتراف بأنكم لا تريدون الاستيقاظ، بأنكم لا تريدون السعادة. ثقة في داخلكم كل أنواع المقاومة لذلك. الخطوة الثانية هي الاستعداد للفهم، للإصغاء، لتحدي كل نظامكم العقائدي. وليس معتقداتكم الدينية وحسب، أو معتقداتكم السياسية، الاجتماعية أو النفسية، بل جميع هذه المعتقدات معًا. الاستعداد لإعادة تقييمها كلها، بأسلوب بوذا. وسأمنحكم عددًا من الفرص لفعل هذا.

الحفلة التنكّريّة التي تُدعى إحسانًا

الإحسان، في الواقع، ما هو إلا حفلة تنكّريّة تتعلّق بالمصلحة الذاتية ولكنها تأخذ شكل الإيثار. تقولون إنّه من الصعب جدًّا القبول بحقيقة وجود لحظات لا تكونون فيها صادقين تمامًا في عمل الخير، بل تحاولون فيها أن تكونوا محبوبين أو جديرين بالثقة. دعوني أبسط الأمر لكم، لأعبر عن ذلك بأبسط شكل ممكن. بل دعوني أعبر عنه بالشكل الأشدّ فظاظًا وتطرّفًا، لأبدأ بذلك على الأقل. ثقة نوعان من الأنانيّة: النوع الأول هو ذاك الذي أمنح نفسي فيه مُتعة إمتاع نفسي. هذا ما ندعوه عادة بالتمحور على الذات، أمّا النوع الثاني فهو ذاك الذي أمنح فيه نفسي مُتعة إمتاع الآخرين؛ هذا هو النوع الأشدّ تهذيبيًا من الأنانيّة.

النوع الأول واضح جدًّا، ولكنّ الثاني مخفي إلى حدٍّ بعيد. ولهذا فهو الأشدّ خطورة، لأنه يمكننا من الشعور بأننا أشخاص جيّدون حقًا. ولكن، ربّما لسنا في النهاية جيّدين كما نظن. ها إنكم تعترضون على قولِي هذا. عظيم!

أنت سيّدتي، تقولين بأنك تعيشين وحيدة، لذلك تذهبين إلى الأبرشيّة حيث تقدّمين بضغ ساعة من وقتك، إلّا أنك تعترفين أيضًا بأنّ ذلك يجعلك تشعرين بأنك شاهمين في العالم من حولك ولو بشكل بسيط، وتدعين كذلك بأن هذا، وبسبب حاجتهم إليك، طريق ذو اتجاهين.

إنك متنوّرة تقريبًا! يجب أن نتعلّم منك. هذا صحيح. إنّها تقول: «أعطني شيئًا ما، وأحصل على شيء بالمقابل». إنّها محقّقة. أقدم المساعدة، أعطي شيئًا ما، وأحصل على شيء. هذا جميل. هذا حقيقي. هذا واقعي. ولكنه ليس بإحسان، هذه مصلحتك الشخصية ولكنها مصلحة متنوّرة!

وأنت سيّدي، تشير إلى أنّ الإنجيل، وبشكل مطلق، رسالة مصلحة شخصيّة. إذ يخبرنا بأننا نحصل على الحياة الأبدية من خلال أعمال الإحسان التي نقوم بها. «إنتهج يا أبت، فعندما كنت جائعًا، أطعمتني»، وهلمّ جرًّا. قولك هذا يؤكّد بشكل مطلق ما قلّته. تقول بأنّه يمكننا، وفقًا لهذا المنطق، ملاحظة أنّ أفعال الإحسان التي قام بها يسوع كانت بمجمالها أعمال مصلحة شخصيّة، بهدف كسب النفوس في الحياة الأبدية. وتعتبر ذلك مجمل فحوى الحياة ومعناها: تحقيق المصلحة الشخصيّة من خلال أفعال الخير.

حسنٌ جدًّا. ولكن، ألا ترى أنّك تغش بعض الشيء، بجلبك الدين إلى هذا النقاش. هذا مشروع. هذا مقبول. ولكن كيف سيكون الوضع لو تعاطيت مع الإنجيل، مع الكتاب المقدّس، مع يسوع، حتّى نهاية هذه الرياضة. سأقول لك

التالي لأزيد الأمور تعقيداً. «لقد كنت جائعاً فأطعمتموني، كنت عطشاً وسقيتموني». ولكن ما هي الإجابة على هذه العبارة في النص الإنجيلي؟ «متى؟ متى فعلنا ذلك؟ لم ندرك ذلك». لم يكونوا واعين لما يفعلونه! في بعض الأحيان أجنح بخيالي بشكل كرهه لأرى الملك يقول: «كنت جائعاً فأطعمتموني». فيجيبه الناس على الجانب الأيمن: «هذا صحيح يا رب، نحن نعلم». «لم أكن أحاط بكم» يقول الملك. «لا، لم تتقيدوا بالنص؛ لا يفترض بكم أن تعلموا ذلك».

أوليس هذا ممتعاً؟ لكنكم تعلمون. تدركون مقدار السعادة الداخلية التي تحصلون عليها عندما تمارسون الإحسان. هذا صحيح! إنه الطرف النقيض لقول أحدهم: «ما العظيم في ما قمْتُ به؟ قمْتُ بشيء، وحصلتُ على شيء بالمقابل. ليس لدي أدنى شعورٍ بأنِّي قمْتُ بعملٍ جيد. لا تفعلك يدي اليسرى أي فكرة عما فعلته يدي اليمنى». تدركون أن عمل الخير لا يكون خيراً، إلا بقدر ما تجهلون أنكم تعملون الخير. أو بكلمات المعلم الصوفي العظيم، «يكون المرء قديساً حتى اللحظة التي يدرك فيها ذلك». لا إدراك للذات! لا إدراك للذات!

بعضكم يعترض على هذا. تقولون: «أليست المتعة التي أحصل عليها من خلال العطاء، هي الحياة الأبدية التي تتحقق هنا وفي هذه اللحظة؟». لا أعرف. أنا أسقي المتعة متعة. لا أي شيء آخر. على الأخص في الوقت الراهن. على الأقل حتى نصل لاحقاً إلى مناقشة الدين. إلا أنني أريدكم أن تفهموا شيئاً منذ البداية. الدين ليس - وأكرر، ليس - بالضرورة مرتبطاً بالزواجانية. أرجو أن تدعوا الدين بعيداً عن ذلك في الوقت الراهن.

حسن، تقولون لي وماذا عن الجندي الذي يلقي بنفسه على القنبلة ليمنعها من اذية الآخرين؟ فأقول: وماذا عن الرجل الذي قاد الشاحنة المملأ بالمنفجرات إلى معسكر المارينز في بيروت؟ ماذا عنه؟ «إنه حبٌ أعظم من أي حبٍ امتلكه آخرون». إلا أن الأميركتيين لا يزون الأمر بهذه الصورة. لقد فعل ذلك عمداً. إنه إنسانٌ فظيع. اليس كذلك؟ إلا أنني أؤكد لكم أنه لم يكن ليظن ذلك؛ لقد اعتقد أنه ذهب إلى الجنة. هذا صحيح، تماماً مثل الجندي الذي ألقي بنفسه على القنبلة.

أحاول التوصل إلى صورة ما لعمل ما لا تكون الذات حاضرة فيه. عمل تكونون فيه يقظين، ويتم القيام به من خالكم. أفعالكم تصبح في هذه الحالة أحداثاً. «دعه يحدث لي». لست أستثني ذلك. أبحث عن الأتنية الكامنة في ذلك العمل عندما يقوم أحدكم به. حتى ولو كان لمجرد «أن أذكر كبتل عظيم» أو بحجة. «لم أكن لأتمكن من العيش لو لم أقم بذلك. لم أكن لأتمكن من العيش مع فكرة أنني فردٌ هارياً». ولكن تذكروا أنني لا أقصي النوع الآخر من التصرفات. لم أقل بأنه لا وجود مطلقاً لأي عمل خالٍ من حضور الذات، إذ ربما يوجد. سيتوجب علينا أن نكتشف ذلك. فالأم التي تنقذ

طفلاً تنقذ طفلها، كما تقولون. كيف حصل أنها لم تنقذ طفل الجيران؟ إنه طفلها ذاك الذي أنقذته. وكذلك هي حال الجندي الذي يموت من أجل وطنه. يزعجني عدد من الميتات المشابهة. أسأل نفسي، «أتراهم لم يتعرضوا لعملية غسل للمخ؟» يزعجني الشهداء. أعتقد أنهم قد تعرضوا غالباً لغسل مخ. الشهداء المسلمون، الهندوس، البوذيين، المسيحيون... جميعهم غسلت عقولهم. لقد تملك عقولهم فكرة مفادها أنه ينبغي لهم أن يموتوا، وأن الموت هو أعظم شيء.

إنهم لا يشعرون بشيء، بل يَمْضُون قَدْماً. طبعاً ليسوا جميعاً كذلك، لذا أصغوا إلي جيداً. أنا لا أقول كلهم، إلا أنني لا أستثني تلك الإمكانية. تعرض كثير من الشبوعيين لغسيل مخ (أنتم مستعدون بالطبع لتصديق هذا تحديداً)، لقد تعرضوا إلى عملية غسل مخ متقنة إلى الدرجة التي أصبحوا فيها مستعدين للموت. أقول لنفسي في بعض الأحيان، وعلى سبيل المثال، بأن الآلية التي نستخدمها لنجعل فرنسيس كسفاريوس قديساً قد تكون هي عينها المستخدمة في إنتاج الإرهابيين. إذ يمكن رجلاً أن يقوم برياضة روحية مدة ثلاثين يوماً، ويخرج منها مضطرباً بحب المسيح، من دون أدنى ذرة من الوعي الذاتي. قد يكون هذا الشخص مصدر إزعاج كبير، في الحين الذي يظن نفسه فيه قديساً عظيماً. لا أبغي الافتراء على القديس فرنسيس، والذي كان في الغالب قديساً عظيماً، إلا أنه كان رجلاً يصفب العيش معه. تعرفون بأنه كان رئيساً سيئاً، هذا حقيقي! قوموا ببحث تاريخي. كان القديس إغناطيوس دو لويولا، مؤسس الرهينة اليسوعية، يُضطرّ للدخول للحذ من الأذى الذي تسببت به قلة تسامح الرجل العظيم هذا. تحتاج إلى أن تكون غير سمح لتتمكن من إنجاز ما أنجزه. إمضي، امضي، امضي - دونما اكتراث، بعدد الجثث المتساقطة على جانبي الطريق. بعض نقاد القديس فرنسيس كسفاريوس يدعون ذلك. لقد طرد العديد من الرجال من الرهينة، وكان يتوجب على واحد منهم التوجه إلى إغناطيوس الذي كان يجيبه: «تعال إلى روما لننحدث بالأمر». ثم يعيدهم إغناطيوس إلى الرهينة بشكل سرّي. ما درجة الوعي الذاتي في هذه الحالة؟ من نحن لتحكم؟ ما أدراناً؟

لا أقول بأنه ما من شيء اسمه الحافز التقني، بل أقول إن كل ما نقوم به، وبشكل طبيعي، هو لمصلحتنا الشخصية. كل شيء. عندما تقومون بشيء ما في سبيل المسيح، أهو عمل ذاتي؟ نعم. عندما تقومون بشيء في سبيل أي كان، فإنكم تقومون به لمصلحتكم الشخصية. سيتوجب علي أن أشرح ذلك مع.

افترض معي يا سيدي أنك تعيش في مدينة فينيكس حيث تقوم بإطعام ما يزيد على الخمسمائة طفل في اليوم الواحد. ذلك يمنحك شهوراً جيداً، اليس كذلك؟ حسناً، بريك أنتوقع أن يشعرك ذلك العمل بالسوء؟ ولكن للأسف، فإن هذا ما يحدث في بعض الأحيان. ذلك أن هنالك أناساً يفعلون أشياء لا تضطّرهم إلى الشهور بالسوء، ويدعون ذلك إحساناً. إنهم يتصرفون بدافع من

الذنب. وهذا ليس بحب. لكن، حمداً لله، فأنت تخدم الناس وهذا ممتع. رائع! ها إنك فرد سليم لأنك مهتم بمصلحتك الخاصة. وهذا صحي.

إسمحوا لي بأن أخص ما كنت أقوله عن الإحسان الخالي من الأنانية. لقد قلت بأنه ثقة نوعان من الأنانية: لربما كان ينبغي أن أقول ثلاثة: الأول، عندما أقوم بشيء لإمتاع نفسي، أو بالحرى، عندما أمتح نفسي متعة إمتاع نفسي؛ الثاني، عندما أمتح نفسي متعة إمتاع الآخرين. لا تفاخرن بذلك. لا تظنن أنك شخص عظيم. أنت مجرد شخص عادي، ذو ذوق رفيع. ذوقك هو الجيد، وليس مستواك الروحي. عندما كنت طفلاً، كنت تحب «الكوكاكولا»: الآن وقد كبرت، بك تقدر الجعة المثلجة في يوم حار. لقد صار ذوقك الآن أفضل من ذي قبل. عندما كنت طفلاً، كنت تحب الشوكولا: الآن وقد كبرت، فقد بك تستمتع بالاستماع إلى سيمفونية، إلى قصيدة. لقد أصبح لديك ذوق أفضل. لكن متعتك هي هي، إلا أنها تكمن الآن في إمتاع الآخرين. ثم هناك النوع الثالث، النوع الأسوأ على الإطلاق: عندما تفعل الخير لئلا تشعر بالسوء. إن القيام به لا يمنحك شعوراً جيداً، بل يقيك الشعور بالسوء. تكره القيام به. تقوم بتضحيات مُجبرة ولكنك تتذمر. ها! إن كنت تظن أنك لا تقوم ببعض الأمور بهذه الطريقة، فتأكد من أنك لا تعرف عن نفسك إلا القليل.

أنا نفسي، لو كنت قد تلقيت دولاراً واحداً عن كل مرة قممت فيها بأشياء تقبني الشعور بالسوء، لكنت الآن مليونيراً. تعلمون كيف تحدث مثل هذه الأمور. كان يقول أحدهم: «أبت، أيمكنني مقابلتك هذا المساء؟». «نعم تعال» مع أنني لا أرغب في مقابلته، لا بل إنني أكره لقاءه. أرغب بمشاهدة البرنامج التلفزيوني ذلك هذا المساء، ولكن كيف لي أن أقول له لا؟ لذلك أجيب: «نعم، تعال». وأفكر، «يا إلهي، سيتوجب علي تحقل إزعاجه».

لا يمنحني لقاء هذا الشخص شعوراً جيداً، إلا أن رفض لقاءه لا يمنحني بدوره شعوراً جيداً. لذلك أختار أهون الشرين وأقول: «نعم، تعال للقاءني». سأكون سعيداً بالطبع. عندما ينتهي اللقاء، إذ سأتمكن من انتزاع ابتسامتي، ومع ذلك أبدأ المقابلة بالقول: «كيف حالك؟». فيجيب: «على خير ما يرام». ثم يبدأ بإطلاعي على مقدار حبه للورشة التي يعمل فيها، وأفكر في هذه الأثناء، «أوه، يا إلهي، متى سيتطرق إلى الموضوع؟». وأخيراً عندما يصل إلى النقطة المهمة، فإنني أحشره في الزاوية قائلاً لنفسي «حسناً، بإمكان أي أحقق أن يحل مثل هذه المشكلة»، وأنهى المقابلة. «رائع! لقد تخلصت منه». وفي الصباح (ولأنني أشعر بالي كنت فظاً معه)، أذهب لمقابلته قائلاً: «كيف حالك؟». فيجيبني: «على أحسن ما يرام». ويضيف: «أعلم يا أبت، لقد ساعدني للغاية ما قلته لي أمس. أيمكنني مقابلتك ثانية بعد الغداء؟» يا إلهي!

هذا أسوأ أنواع الإحسان، عندما تفعل شيئاً ليجنبك الشعور بالسوء. لا تمنحك الجراءة لتقول بأنك تؤدّ الانفراد بنفسك. ترغب في أن يعتقد الناس أنك كاهن جيد! وعندما يقول أحدكم: «لا أريد أن أسيء إلى الناس»، أجيبه: «هيا، أنا لا

أصدقك. حقاً، أنا لا أصدق الذين يقولون لي بأنهم لا يريدون الإساءة إلى الناس. إذ إننا نحب أن نسيء إليهم، وخاصة بعضهم. نحب ذلك. وعندما يقوم أحد ما بهذه الإساءة، فإننا نبتهج بها. إلا أننا لا نريد أن نكون نحن من يوجه تلك الإساءة، لأن ذلك سيؤلمنا أذ. ها هنا مكمي القضية. فإن قمنا بالإساءة، سيكون الآخرون رأياً سلبياً عنا. لن نعجبهم. سيتكلمون بالشوء علينا، وهذا ما لا نريده!

ما الذي يجول في أذهانكم؟

ما الحياة إلا وليمة. والمأساة تكمن في أن معظم الناس ينتظرون جوعاً. هذا هو بالضبط ما أتكلم عليه. ثقة قصة جميلة عن أناس كانوا على متن قارب بعيد عن الشاطئ في البرازيل، وكانوا يموتون من العطش. لم يكن لديهم أدنى فكرة أن المياه التي كانوا يطفون عليها هي مياه عذبة، إذ كان تيار النهر يصب في البحر بقوة، بحيث تصل المياه العذبة إلى عدة أميال، تمامًا حيث يطفو قاربهم. وبالشكل ذاته، فإننا محاطون بالفرح، بالسعادة والحب. إلا أن معظم الناس لا يملكون أدنى فكرة عن ذلك. والسبب: تعرّضهم لفسيل المخ. السبب: أنهم منوّمون مغنطيسيًا! إنهم ذائمون. تخيلوا حاليًا ينوم مغنطيسيًا أحد الأشخاص، بحيث يرى ذلك الشخص ما ليس موجوداً ولا يرى ما هو موجود. هذا هو جوهر القضية. توبوا وأقبلوا الخبر السار. توبوا! استيقظوا! لا تنتحبوا على خطاياكم. لم الانتخاب على خطايا ارتكبتموها وأنتم نيام؟ هل ستبكون ما ارتكبتموه وأنتم منوّمون مغنطيسيًا؟ لم تودّون التماهي مع شخص كهذا؟ استيقظوا! استيقظوا! توبوا! تحلوا بعقلية جديدة. أنظروا إلى الأمور من منطلق جديد! وبشأن عبارة «الملكوت هنا» فاعلموا أن قلة قليلة فقط من المسيحيين تأخذها على محمل الجد. قلت لكم بأن أول ما تحتاجون إلى عمله هو الاستيقاظ، مواجهة حقيقة أنكم لا تحبون أن تكونوا مستيقظين. ثانيًا، تحتاجون إلى أن تفهموا. أن تفهموا أنكم لربما قد كنتم أفكارًا خاطئة، وأن هذه الأفكار هي ما يؤثر في حياتكم، فتجعلها غارقة في الفوضى وثبقيكم نيامًا. هي أفكار عن الحب، عن الحرية، عن السعادة وهلم جرا. وأنه ليس من السهل الإصغاء إلى شخص قد يتحدث أفكاركم التي قد تكون غالية عليكم.

هنالك بعض الدراسات المثيرة للاهتمام عن غسل المخ. لقد أظهرت أن المرء يكون مفسول المخ، عندما يتبنى فكرة ليست فكرته بل فكرة شخص آخر. والطريف في الأمر أنه قد يكون مستعداً للموت في سبيلها. أليس هذا غريبًا؟ إن الاختبار الأول لتبنيها فيما إذا كنتم قد تعرّضتم لفسيل المخ بحيث تبنيتم قناعات ومعتقدات معينة، يظهر في اللحظة التي تتم فيها مهاجمة هذه القناعات والمعتقدات. تشعرون بالذهول، وتنفعلون. هذه إشارة جيدة - ليست مطلقة، ولكنها إشارة جيدة - إلى كوننا نتعامل مع حالة غسيل للمخ. تكونون مستعدين للموت في سبيل فكرة لم تكن فكرتكم على الإطلاق. يأخذ الإرهابيون والقديسون (وفق ما نسميهم) فكرة ما، يبتلعونها بأكملها، ويصبحون مستعدين للموت في سبيلها. الإصغاء ليس سهلاً، خاصة عندما تكونون عاطفيين في مواجهة فكرة ما. وحتى عندما لا تكونون عاطفيين إزاءها، لا يكون الإصغاء سهلاً؛ تصفون دومًا انطلاقًا من لبرمجتكم الخاصة، انطلاقًا من ظروفكم، من حالة التنويم المغنطيسي التي تعيشونها. غالبًا ما

تترجمون ما يُقال وفقًا لحالة التنويم المغناطيسي التي تعيشونها أو وفقًا لظروفكم أو لبرمجتكم. كمثال تلك الفتاة التي تستمع إلى محاضرة عن الزراعة ونقول: «أعذرني، يا استاذ، أوافقك الرأي تمامًا على أن روث الحصان العجوز يشكل أفضل أنواع السماد، لذلك هلاً تفضلت بإطلاعنا على العمر المفضل للحصان؟». أتزون الخلفية التي يأتي منها سؤال هذه الأنسة؟ لكل منا موقعه وخلفيته، اليس كذلك؟ ونصفي انطلاقاً من هذه المواقع: «أوه هنري لقد تغيرت كثيراً! كنت أطول من ذلك. كما كنت تتمتع ببنية أصلب من تلك التي تمتلكها الآن. كنت فاتح البشرة والآن صرث في غاية السمرة. فما الذي جرى لك يا هنري؟» يجيب هنري: «لست هنري، أنا جون!». «أوه، لقد غيّرت اسمك أيضاً». كيف يمكنكم أن تحملوا أشخاصاً كهذا على الإصغاء.

الإصغاء، الرؤية هي أصعب شيء في العالم. لا نريد أن نرى. أنظنون أن الرأسمالي يرغب في أن يرى الجيد في النظام الشيوعي؟ أنظنون أن شيوعياً يود أن يرى الأمور الجيدة والصحية في النظام الرأسمالي؟ أنظنون أن رجلاً ثرياً يرغب في النظر إلى الفقراء؟ لا نريد أن نرى، لأننا إن فعلنا، فقد نتغير. لا نريد أن ننظر. إن نظرتم فقد تفقدون التحكم بحياتكم التي كنتم تجهدون في لملعة أشلائها. كذلك، وبغرض الاستيقاظ، فإن الشيء الوحيد الذي تحتاجون إليه بشدة ليس امتلاك الطاقة، أو القوة، أو الشباب، أو حتى الذكاء العظيم. بل الشيء الوحيد الذي تحتاجون إليه أكثر من أي شيء آخر هو الاستعداد لتعلم شيء جديد. إن فرض استيقاظكم لهي في تناسب طردي مع مقدار الحقيقة التي يمكنكم تحملها قبل أن تفروا هاربين. لذا، ما مقدار الحقيقة التي أنتم على استعداد لتلقيها؟ ما مقدار الأشياء العزيزة عليكم والتي تتمسكون بها، المستعدين لتحطيمها من دون أن تفروا هاربين؟ إلى أي حد أنتم مستعدون للتعامل مع شيء غير مألوف لكم؟

سيكون رد فعلكم الأول هو الخوف. ليس الأمر أننا نخاف من المجهول. إذ ليس بإمكانك أن تخشى شيئاً لا تعرفه. لا أحد يخشى المجهول. ما تخشونه فقد أنكم لما تعرفونه. هذا هو حقيقة ما تخشونه.

سبق لي أن أوضحت، على سبيل المثال، أن كل ما نفعله ملطخ بأنانيتنا. ليس سماع هذا الشيء بالأمر السهل. ولكن فكروا الآن ولمدة دقيقة، لنمض في العمق في ما يتعلق بهذا الموضوع. إن كان كل ما نقومون به ينبع من مصالحكم الشخصية - سواء أكان ذلك يتم بشكل متتوّر أم لا - فما شعوركم تجاه كل إحساناتكم وأعمالكم الخيرية؟ ما الذي يحدث لها؟ هاكم تمريناً صغيراً نجرونه. فكروا في كل أعمال الخير التي قمتم بها، أو في بعضها (لأنني سامنحكم بضع ثوانٍ فقط). إلهموا الآن أنها تنبع في الحقيقة من المصلحة الشخصية، سواء علمتم ذلك أم لم تعلموه. ما الذي يحدث لكبرياتكم؟ ما الذي يحدث لغرورككم؟ ما الذي يحدث لذلك الشعور الجيد الذي وهبتموه لأنفسكم، لتلك التربية على الظهور في كل مرة ظننتم أنكم نقومون بعمل إحسان؟ لقد فلاشي كل ذلك الآن، اليس كذلك؟ ما الذي جرى لتلك

التظرة المتعالية التي ترمقون بها جاركم الذي تعتقدون أنه أاناى؟ كل شيء يتغير، اليس كذلك؟ نقول: «حسنا، يمتلك جاري ذوقا أسوأ من ذوقي». أنتم الأخطر هنا، أنتم حقاً كذلك، يبدو أنه كان ليسوع المسيح مقداراً أقل من المشاكل مع النموذج الآخر من الناس ممّا كان له مع نموذجكم.

لقد كانت له مشاكل مع أناس كانوا يعتقدون حقاً أنهم جيّدون. لا يبدو أن التماذج الأخرى سببت له مشاكل كثيرة، أولئك الذين كانوا أانايتين بشكل صريح، وعرفوا ذلك. ألا ترون كم يمكن هذا أن يكون محرّراً؟ هيا، استيقظوا! إنه شعورٌ محرّر، إنه شعورٌ رائع! أتشعرون بالإحباط؟ ربّما. ولكن، اليس من الرائع أن ندرك أننا لسنا أفضل من أي شخص آخر في العالم؟ اليس هذا رائعاً؟ هل خاب أملككم؟ أنظروا إلى ما اكتشفناه! ما الذي يحدث لغروركم؟ كنتم تحبون أن تمنحوا أنفسكم شعوراً جيّداً بأنكم أفضل من غيركم. ولكن أنظروا كيف سلطنا الضوء على المظهر الخادع ذلك.

جيد، سيئ، أم محظوظ؟

يبدو لي أنَّ الأناثية تبرزُ من غريزة البقاء، أولى غرائزنا وأعمقها. كيف لنا أن نؤثر القيرية؟ سنكون عندها كمن يؤثر أن لا يكون. سيحدث ذلك، في نظري، على الأقل، أن لا أكون. مهما يكن الأمر، فإني أقول: توقفوا عن الشعور بالسوء حيال كونكم أنانيين؛ كلنا متمثلون. كان لدى أحدهم يومًا ما الكثير من الأشياء الفائقة الجمال يقولها عن المسيح. حتى إنَّ هذا الشخص لم يكن مسيحيًا. قال: «الزائع في يسوع المسيح أنه كان يشعر وكأنه في بيته في حضور الخطاة، لأنه فهم أنه ليس أفضل منهم». نختلف عن الآخرين - المجرمين على سبيل المثال - في ما نفعله أو لا نفعله فقط، وليس في ما نحن عليه. الفارق الوحيد بين يسوع وأولئك الآخرين كان في كونه وأعياد، في حين لم يكونوا هم كذلك. أنظروا إلى الأشخاص الذين يقفون باليانصيب. هل يقول أحدهم: «أنا فخور للغاية بقبولي الجائزة، ليس من أجلي، بل من أجل أمي ومجتمعي». أينكلم أحدهم بهذا الشكل عندما يربخ؟ لا. لأنهم كانوا محظوظين، محظوظين فقط. لقد فازوا بالجائزة الأولى. أمن شيء يستدعي الفخر في هذا؟

وبالطريقة عينها، إن وصلتكم إلى الاستنارة، فسيحقق لكم ذلك بفضل اهتمامكم بأنفسكم وبفضل كونكم محظوظين. أتريدون أن تفاخروا بذلك؟ وهل هنالك من شيء يمكنكم أن تفاخروا به؟ ألا ترون كم أن الزهو بأعمال الخير التي تقومون بها هو أمر أحمق بكل ما للكلمة من معنى؟ لم يكن القريسي رجلًا شريًا، لقد كان أحمق. كان أحمقًا لا شريًا. لم يتوقف برهة للتفكير. قال أحدهم ذات مرة: «لا أجرؤ على التوقف للتفكير، لأنني إن فعلت، فلن أعرف كيف أبدأ ثانية».

أوهامنا عن الآخرين

لذا، فإن توقفتكم للتفكير، سترون بعد كل ذلك أنه ما من شيء يستوجب الفخر. ولكن ما دخل هذا بعلاقاتكم بالناس؟ ما الذي تشتكون منه؟ أتاني يوماً شاب يشتكي من أن صديقته خذلته، بأنها خدعته. مم تشتكي؟ هل توقعت أي شيء أفضل؟ توقع الأسوأ، فأنت تتعامل مع أناس أنانيين. أنت الأبله، لقد مجذتها، ألم تفعل؟ لقد ظننت أنها أميرة، ظننت أن الناس لطفاء. ليسوا كذلك! ليسوا لطفاء. إنهم سيتنون على شاكلتك - سيتنون، أفهم! إنهم على مثالك نائمون. وعم تظنهم يبحثون؟ عن مصلحتهم الشخصية، مثلك تماماً، ما من فرق.

اتخيلون كم هي محزنة هذه المعرفة؟ أن لا تتوهموا ثانية، أن لا يخبىب أملككم ثانية؟ لن تشعروا بالخذلان ثانية. لن تشعروا بالرفض. تريدون الاستيقاظ؟ تريدون السعادة؟ تريدون الحزينة؟ هاكم: تخلوا عن أفكاركم الخاطئة. أبصروا من خلال الناس. إن أبصرتهم من خلال ذواتكم، فسيمكنكم أن تبصروا من خلال الجميع. عندها ستحبونهم. وإلا فإنكم ستمضون جل أوقاتكم تتعشرون بمفاهيمكم الخاطئة عنهم، بأوهامكم التي تستمر في الشحط على صخرة الواقع.

من المحتمل أن يكون هذا مروّعاً للكثيرين منكم، فهم أنه من المتوقع للجميع، ما عدا الأشخاص الواعين والناشرين أولئك، أن يكونوا أنانيين، باحثين عن مصلحتهم الشخصية، سواء أكان ذلك بأسلوب فظ أم مهذب. يفودكم ذلك إلى إدراك أنه ما من شيء يدعو إلى الإحباط، لا شيء يدعو إلى التوهم. إن كنتم على صلة مستمرة بالواقع، لن تكونوا غائبين الظن. إلا أنكم تختارون رسم الناس بالوان براقة؛ تختارون أن لا تبصروا من خلال الكائنات البشرية، لأنكم تختارون أن لا تبصروا من خلال ذواتكم. لذلك تدفعون الثمن الآن.

قبل أن نناقش هذا، دعوني أروي لكم قصة. سأل أحدهم يوماً: «ما هي الاستشارة؟ ما هو الاستيقاظ؟». حسناً، إنها كمثال المنشرد اللندني ذلك الذي يبحث عن مكان يقضي فيه ليلته. وبالكاد تمكن من تدبر كيسة خبز يأكلها. ثم وصل إلى مكانه على حافة نهر التايمز. كان هناك زخات خفيفة من المطر، لذلك تكوّم تحت معطفه الرث والقديم. كاد أن يفقد عندما توقفت فجأة سيارة رولز رويس مع سائق. ترجلت من السيارة سيّدة جميلة قالة، «أيها الرجل المسكين، أنت عزم قضاء الليل هنا على ضفة النهر؟». أجاب المنشرد: «نعم». فقالت: «لا، لن أحتمل هذا. ستأتي معي إلى المنزل، هناك يمكنك الحصول على عشاء مناسب وتمضية الليلة في فراش مريح». أصرت

على أن يدخل السيارة. ومضوا خارج لندن إلى أن وصلوا إلى عزبة متزامية الأطراف ذات أراضٍ واسعة. إستقبلهم كبير الخدم، فقالت له: «إحرص يا جيهس على وضعه في جناح الخدم، وعلى تلقّيه معاملة لائقة». هذا ما فعله جيهس. غيّرت السيدة الشابة ثيابها وكانت على وشك التوجّه إلى سريرها عندما تذكرت فجأة ضيفها. لذلك وضعت ثوبًا خفيفًا عليها، واجتازت الممرّ إلى أجنحة الخدم. لمحت بصيصًا من النور يتسرّب من الغرفة حيث وُضع المتشرّد. قرعت الباب برفق، فتحتّه، فوجدت الرجل صاحبًا. قالت: «ما المشكلة أيها الرجل الطيّب، ألم تحصل على وجبة جيدة؟» فأجاب: «لم يسبق لي يا سيديتي أن تناولت طيلة حياتي وجبة أفضل منها». «أتشعر بالذفء الكافي؟» أجاب: «بالتأكيد. إنه سرير دافئ ولطيف». ثمّ قالت: «لعلك بحاجة إلى بعض الرفقة؟ لم لا تتنخى قليلًا؟». وعندما اقتربت منه، تنخى الرجل قليلًا ووقع في نهر التايمز.

ها! لم تتوقعوا ذلك. الاستنارة! الاستنارة! إستيقظوا. عندما تكونون مستعدين لاستبدال أوهامكم بالواقع، عندها فقط، ستتمكنون من إيجاد الاستنارة. عندها يصبح للحياة معنى. تصبح الحياة جميلة.

هناك قصة عن راميرز. ذاك الرجل العجوز الذي يعيش في القلعة أعلى التلّ كان ينظر إلى الخارج من خلال نافذته (فهو مشلول وقابع في سريره) فرأى عدوّه يتسلق التلّ - ببطء وألم. إستغرق الأمر ساعتين قبل أن يتمكن من صعود التلّ. لم يكن بإمكان راميرز فعل أي شيء، إذ كان هذا يوم راحة الخدم. فتح عدوّه الباب، وتقدّم مباشرة إلى غرفة نومه، وضع يده داخل معطفه، سحب منه مسدسًا، وقال: «أخيرًا يا راميرز، سأتمكن من الانتقام منك!». إستجمع راميرز قواه ليكلّمه. قال له: «هيا بورجيا، لا يمكنك فعل ذلك. لم أعد رجل العصابات ذاك الذي أساء إليك منذ عدة سنوات. إنش ذلك». «أوه لا» أجابه عدوّه، «لن تنفك كلماتك اللطيفة في ثنبي عن القيام بمهمتي المقدسة. أريد الانتقام، ولا يسعك فعل شيء حيال ذلك». عندها قال راميرز: «بلى هناك ما يمكنني فعله». «وما هو؟» سأل العدو. قال راميرز: «يمكنني أن أستيقظ». وهذا ما فعله: لقد استيقظ! هذه هي الاستنارة. عندما يخبركم أحدهم بأنه «ما من شيء يمكنك عمله»، يمكنكم أن تقولوا له: «بلى، يمكنني الاستيقاظ». وفجأة، لا تعود الحياة ذاك الكابوس الذي كانت تبدو عليه. إستيقظوا!!

طرح على أحدهم سؤالاً. ماذا تظنّونه سألني؟ في الواقع لقد سألني: «هل أنت متنور؟». وبم تظنونني أجبت؟ «ما أهمية ذلك؟»

أتريدون إجابة أفضل؟ حسًا ستكون: «كيف لي أن أعرف؟ كيف لك أن تعرف؟ ما المهم في ذلك؟». أتعلمون شيئًا؟ إن رغبتم في شيء ما بشدة، فأنتم أمام مشكلة كبيرة حقًا. أتعلمون شيئًا آخر؟ لو أنني كنت متنورًا، وكنتم تُصغون إليّ بسبب ذلك، لكنتم في مشكلة كبيرة. هل أنتم على استعداد لأن

يتمّ غسل دماغكم من قبل أحد المتنوّرين؟ يمكن أن يتمّ غسل دماغكم من قبل أيّ كان، كما تعرفون. فما المهمّ في كون أحدهم متنوّراً أم لا؟ أترون القضية هي أننا نريد أن نتعلّم على يد أحد ما، اليس كذلك؟ نريد أن نتعلّم على يد أيّ شخص نعتقد أنّه قد وصل. ذلك يمنحنا الأمل، اليس كذلك؟ ما الذي تريدون أن تأملوا به؟ اليس ذلك شكلاً جديداً للرغبة؟

تريدون أن تأملوا بشيء أفضل ممّا تمتلكونه الآن، اليس كذلك؟ وإلاّ، فلن تأملوا. لكنكم ستستنون، ساعتها، أنكم تمتلكون كل شيء الآن من دون أن تدركوا ذلك. لمّ لا تركز على الحاضر عوضاً من أن تأمل بأوقات أفضل في المستقبل؟ لمّ لا نفهم الحاضر عوضاً من نسيانه والأمل في المستقبل؟ اليس المستقبل مجرد فتح آخر؟

المراقبة الذاتية

إنَّ الطريقة الوحيدة التي تمكّن شخصًا ما من مساعدتكم هي تحدّي أفكاركم. إن كنتم جاهزين للإصغاء وجاهزين ليتمّ تحدّيكم، فإنّه يمكنكم عمل شيء واحد فقط، ولكن ليس بإمكان أحد مساعدتكم فيه. ما هو هذا الشيء الذي يفوق كل ما عداه أهمنيّة؟ يدعي ذلك بالمراقبة الذاتية. لا يمكن أحدًا مساعدتكم في هذا. لا يمكن أحدًا أن يعلمكم منهجًا. لا يمكن أحدًا أن يربكم تقنيّة فعل ذلك. ففي اللحظة التي تختارون فيها تقنيّة ما، تنمّ بزمجتكم ثانية. ولكن المراقبة الذاتية - أن تراقب نفسك - أمر مهم. هي غير الانهماك الذاتي. الانهماك الذاتي هو الانشغال بالذات، حيث تكونون مهتمّين بأنفسكم، قلقين على أنفسكم. ألا أتيّ أتحدّث عن المراقبة الذاتية. فما الذي يعنيه ذلك؟ يعني ذلك أن تُراقبوا كل شيء فيكم ومن حولكم بأبعد ما يمكنكم، وراقبوه كما لو أنه يحدث لشخص آخر. ما الذي تعنيه العبارة الأخيرة؟ تعني أنّه لا ينبغي لكم شخصنة ما يحدث لكم. تعني أن تنظروا إلى الأشياء كما لو أنّه ما من علاقة تربطكم بها بالمرّة.

إنّ سبب معاناتكم من إحباطاتكم واضطراباتكم هو أنكم تتماهون معها. يقول أحدكم: «أنا محبط» ولكن هذا خطأ. لست محبطًا. إن أردت توكّي الدقّة، لربّما ينبغي لك أن تقول: «أمر الآن بحالة إحباط». لا يمكنك أن تقول «أنا محبط». لست إحباطك. هناك لا يعدو كونه نوعًا غريبًا من الخدع الذهنيّة، نوعًا غريبًا من الوهم. تقوم بتضليل نفسك من خلال التفكير - على الرغم من أنّك قد لا تعي ذلك - في أنّك إحباطك، أنّك اضطرابك، أنّك الفرح أو الإثارة اللذين تعيشهما. «أنا مبتهج». من المؤكّد أنّك لست مبتهجًا. قد تشعر بالبهجة في هذه اللحظة، ولكن انتظر بعض الشيء، سيتغيّر ما تشعر به: ذلك لن يدوم. إنّّه لا يدوم مطلقًا؛ يظلّ في حالة تغيّر. إنّّه يتغيّر دومًا. تأتي الفيوم وتروح: بعضها أسود وبعضها أبيض، بعضها كبير وبعضها الآخر صغير. وإن أردنا أن نتمثّل بهذا التشبيه، فسيكون كل واحد فيكم هو السماء التي تراقب الفيوم. كل واحد فيكم عبارة عن مراقب غير منفعل، وغير متحيّز. أعرف أنّ ما أقوله صادم، وخصوصًا لأبناء الحضارة الغربيّة. لن تندخلوا. لا تتدخلوا. لا تصلحوا أي شيء. انظروا! راقبوا!

المشكلة هي في أنّ الناس منشغلون في إصلاح الأشياء التي لا يسعهم فهمها. نحن منهمكون على الدوام في إصلاح الأشياء، ألسنا كذلك؟ لا نتوقّف مطلقًا للتفكير في أنّ هذه الأشياء ليست بحاجة إلى الإصلاح. لا تحتاج إلى ذلك حقًا. هذه استنارة عظيمة. نحتاج منا إلى أن نفهمها، عندها فقط ستتغيّر.

الوعي من دون تقييم الأشياء

أتريدون تغيير العالم؟ لم لا تبدأون بأنفسكم؟ لم لا تحوّلون أنفسكم أولاً؟ ولكن، ما السبيل إلى تحقيق ذلك؟ المراقبة. الفهم. من دون أي تدخل أو حكم من قبلكم. إذ لا يسعكم فهم ما تحكمون عليه.

عندما تقولون عن أحدهم: «إنه شيوعي»، يتوقّف الفهم في تلك اللحظة. تكونون قد صنّقتموه. «إنها رأسمالية»، هنا أيضاً يتوقّف الفهم في اللحظة عينها. لقد صنّقتموها. وإن كان التصنيف مترافقاً مع لهجة خفية من الاستحسان.

أو الاستهجان، يكون الأمر أسوأ! إذ كيف لكم أن تفهموا ما تستهجنون أو تستحسنون؟ يبدو لكم هذا الكلام كله كعالم جديد، اليس كذلك؟ لا أحكام، لا تعليق، لا مواقف: مجرد مراقبة، دراسة، نظر، دونما رغبة في تغيير مأل الأمور. لأنكم إن أردتم تغيير ماهية الشيء، إلى ما تظنون أنه ينبغي له أن يكونه، فلن تتمكنوا من الفهم بعد ذلك. يحاول مدرب الكلاب فهم الكلب ليتمكن من تدريبه على القيام بخدع معينة. كما يراقب العالم سلوك الحشرات من دون أن يكون له أي غرض سوى دراسة الحشرات. ليس لديه أي هدف آخر. لا يحاول أن يدرّبها أو أن يستخلص أي شيء منها. إنه مهتم بالحشرات، يرغب في أن يتعلم كل ما يمكنه عنها. هذا هو موقفه. وفي اليوم الذي تتمكنون فيه من بلوغ هذه الحالة، فستختبرون معجزة. ستتغيّرون - من دون أن تبتذلوا أدنى جهد، وبشكل صحيح - . نعم سيحدث التغيّر، من دون أن تضطّروا إلى استحداثه. وفيما تترسخ حياة الوعي خفية عنكم، سيختفي كل ما هو شرير، وسينعزز الخير الذي فيكم. يتوجب عليكم اختبار ذلك بأنفسكم.

إلا أن ذلك يتطلب عقلاً منضبطاً. وعندما أقول منضبطاً، فلا أتكلّم على المجهود، بل على شيء مختلف تماماً. هل سبق أن قمتم بدراسة رياضي ما. الرياضة هي كل حياته، ولكن يالها من حياة منضبطة تلك التي يحيها. أنظروا كذلك إلى النهر وهو يتحرك باتجاه البحر، يخلق لنفسه ضفافه التي تحتويه. وهكذا، عندما يكون في داخلكم ما يتحرك في الاتجاه الصحيح، فإنه يخلق انضباطه الخاص. إنها اللحظة التي تعصمكم فيها حشرة الوعي! أوه، كم أن ذلك مبهج! إنه الشيء الأشد إثارة للبهجة في العالم؛ الأشد أهمية، والأشد إثارة للبهجة. ما من شيء في الدنيا بأهمية الاستيقاظ! لا شيء! وبالطبع إنه الانضباط بأسلوبه الخاص.

ما من شيء مبهج كالوعي. أنفضّلون العيش في الظلمة عوضاً من ذلك؟

أفضلون التصرف من دون وعي لأفعالكم، التحدث من دون وعي لكلماتكم؟
أفضلون الاستماع للناس من دون أن تغيروا ما تسمعون، أو أن تنظروا من
دون أن تفهموا ما ترون؟ قال سقراط ذات مرة: «الحياة غير الواعية لا تستحق
أن تعيش». إنها حقيقة بديهية. فمعظم الناس لا يعيشون حياة واعية. إنهم
يعيشون حياة الآلة، أفكار الآلة - أفكار شخص آخر على الأغلب - مشاعر الآلة،
أفعال الآلة، ردود أفعال الآلة. أتريدون أن تزوا إلى أي مدى أنتم الآلة؟ «يا
إلهي، ما هذه السترة الجميلة التي ترتديتها؟» تشعرون بالسرور بسيدتي
لسماعتك هذا. بحق السماء، امن أجل سترة أنفخرين بنفسك حقًا لسماعتك
ذلك؟ يأتي الناس إلى مركزي في الهند قائلين: «يا له من مكان جميل، مع كل
الأشجار الجميلة هذه» (طبعًا لست أنا المسؤول عن ذلك الجمال). «هذا
الطقس اللطيف». ومع ذلك أشعر بالسرور، إلى أن أضبط نفسي مسرورًا،
وأقول لنفسي: «هيا، أيمكنك تخيل ما هو أشد حُفًا من ذلك؟». لست مسؤولاً
عن تلك الأشجار؛ كما لم أكن مسؤولاً عن اختيار الهرمز الذي أقيم فيه. لم
أوص على الطقس؛ لقد أتى فجأة. إلا أن «الأداء» تسببت، لذلك أشعر بالسرور.
أشعر بالسرور في ما يتعلق بحضارتي وأمتي. كم أن ذلك لعمل أخرق! أنا
أعني ما أقول، لقد قبل لي بأن حضارتي الهندية العظيمة قد أعطت كل هذه
الروحانيات. لست أنا من صنعها، لست مسؤولاً عنها. أو يقولون لي: «بلدك
يعني الفقر - ذلك مقرف». وأشعر بالخجل. لكن، لست أنا من خلق الفقر. ما
الذي يجري؟ هل توقفتكم يوماً للتفكير؟ يقول الناس: «أرى أنك فائن».
فبتملكني شعور رائع. أتلقى صدمة إيجابية (لهذا يدعون ذلك أنا بخير، فانت
بخير). سأكتب ذات يوم كتاباً بعنوان أنا أخرق، فانت أخرق! عندما تعترف
بأنك أخرق، فإن ذلك يكون الشيء الأجمل والأقوى تحريراً في العالم. إنه
رائع. عندما يقول لي الناس: «أنت مخطئ»، أجيب: «ما الذي يمكن توقعه من
أخرق مثلي؟»

ينبغي أن يكون الجميع منزعج السراح. في عملية التحرير النهائية أكون
أخرق وأنتم تكونون أخرقاً. يتم الأمر، عادة، بأن أضغط على زر ما فتقفون؛
وأضغط على زر آخر فتجلسون. ذلك بعجبكم. كم من شخص تعرفونه لا
يتأثر بالإطراء أو اللوم؟ نقول، ولكن هذا ليس إنسانياً. وهل تعني الإنسانية
أنه ينبغي أن يكون المرء كالقرد الصغير، بحيث يمكن ألا كان أن يشي له
ذيله، ويستمر مع ذلك في عمل ما يتوجب عليه عمله؟ وعلى الرغم من ذلك
يكون هذا إنسانياً؟ إن كنتم تزوني فانتا، فهذا يعني أنكم حالياً في مزاج
جيد، لا أكثر.

كما يعني ذلك أنني متفق مع لائحة التسوق الخاصة بكل واحد فيكم. يحمل
كل منا لائحة تسوق، ويبدو وكأنه ينبغي لنا أن نتماشى معها - طوبل...
اسمر... وسيم، وفقاً لذوقي - قد يقول أحدكم، «تعجبي نيرة صوتته». «أنا
مغرمة بهذه الفتاة»، لست مغرمة، لست سوى أحقق سخيف. في كل مرة تكون
فيها مغرمة - حتى أنني أتردد في قول هذه العبارة - تكون أشبه بالحمار
يجلس وراقب ما يحدث لك. إنك تهزّب من نفسك. تريد الفرار. قال أحدهم

ذات مرة: «شكراً للرب على الواقع، وعلى وسائل الهرب منه». هذا ما يحدث معك بالضبط. لقد أصبحنا البهين ومتحكما بنا إلى حد بعيد. نؤلف كتباً عن كوننا متحكما بنا، وكم أن ذلك الشيء رائع، وكم من الضروري أن يقول لك الناس بأنك جيد. ومن ثم يملكك شعور جيد عن ذاتك. كم هو رائع أن تكون في السجن أو كما قال لي أحدهم البارحة، أن تكون في قفصك. أنتحبون أن تكونوا مسجونين؟ أنتحبون أن تكونوا متحكما بكم؟ دعوني أخبركم شيئاً: إن سمحتم لأنفسكم ولو لمرة واحدة أن تشعروا بالسرور لإطراء الناس عليكم، فإنكم تحضرون أنفسكم للشعور بالسوء عندما يذمونكم. طالما أنكم تعيشون لتلبية تطلعات الناس، فإنه من الأفضل أن تنتبهوا إلى ما تلبسون، إلى طريقة تصفيفكم شعركم، إلى ليعان أحذيتكم - باختصار، سيتوجب عليكم أن تنتبهوا إلى العيش وفقاً لكل تطلع من تطلعاتهم اللعينة. أيدعي ذلك إنسانياً بعد؟

هذا ما سوف نكتشفونه عندما نراقبون أنفسكم! سترثعون! في الواقع، لستم بجيدين أو سيئين. قد تكونون متوافقين مع المزاج أو النزعة أو الموضة الزاهية! هل يعني ذلك أنكم صرتم جيدين؟ أنتمتعوا جودتكم على ذلك؟ هل تعتمد على ما يظنه الناس فيكم؟ لا بد من أن يسوع المسيح لم يكن وفقاً لهذه المعايير جيداً على الإطلاق. لست جيداً. وكذلك لست سيئاً. أنت هو أنت. أمل أن يكون هذا اكتشافكم الأكبر، لبعضكم على الأقل. لو تمكّن ثلاثة أو أربعة منكم من تحقيق هذا الاكتشاف في الأيام التي سنعرضها معاً، يا إلهي، فسيكون ذلك شيئاً رائعاً حقاً! استثنائياً! إنزعوا عنكم كل الأشياء «الجيدة» والأشياء «السيئة» على حد سواء؛ إنزعوا عنكم كل الأحكام واكتفوا بالمراقبة، بالفرجة. ستقومون ساعتها باكتشافات عظيمة. وستغيّركم هذه الاكتشافات. صدقوني، لن نكونوا بحاجة إلى بذل أدنى جهد.

يذكرني هذا برجل لندني بعد الحرب. كان يجلس في الباص وفي حضنه رزمة ملفوفة بورق بني؛ كانت رزمة كبيرة وثقيلة. أتاه سائق الباص وسأله: «ما هذا الذي تضعه في حضنك؟» فأجابه الرجل: «إنها قنبلة غير منضجرة. لقد انتشلناها من حديقتنا وأريد إيصالها إلى مركز الشرطة». عندها قال السائق: «لا ينبغي وضع شيء كهذا في حضنك. ضعها تحت المقعد».

علم النفس والرؤى (كما نفهمها غالباً) يتغلان القنبلة من الحضان إلى أسفل المقعد. إنهما فعلياً لا يخلان المشاكل، بل يستبدلون بها مشاكل أخرى. هل صدقكم ذلك يوماً؟ لديكم مشكلة، فتقومون باستبدال واحدة أخرى بها. سيكون الأمر دوماً على هذه الشاكلة إلى أن نحل المشكلة المدعوة «أنت».

وَهُمُ الْمُكَافَات

إلى ذلك الوقت، فإنا لن نذهب إلى أي مكان. كان معلّمو الشرق ومتصوّفوه العظماء يقولوا: «من أنت؟». يعتقد كثير من الناس أنّ أهمّ سؤال في الكون هو: «من هو يسوع المسيح؟» خطأ!

كثيرون يعتقدون أنّ السؤال الأهمّ هو: «هل الله موجود؟» خطأ كثيرون يعتقدون أنّه: «هل من حياة بعد الموت؟». خطأ لا يبدو أنّ أحدا منهم مهتمّ بمشكلة: هل ثقة حياة قبل الموت؟ ومع ذلك فإنّ خبرتي تقول لي علي وجه الخصوص بأنّ أولئك الذين لا يعلمون ما يفعلون في هذه الحياة، هم أكثر الناس تساؤلا عما سيحدث في الحياة الأخرى. أحذي علامات يظنكم هي عدم اهتمامكم البتّة بما سيحدث في الحياة التالية. لا يفلتكم ذلك! لا تبالوا، لا تهتمّوا بذلك وحسب.

اتعلمون ما هي الحياة الأبدية؟ تظنون أنّها حياة تدوم إلى الأبد، يقول لكم اللاهوتيون بأنّ هذا جنون، إذ إنّ دوامها إلى الأبد ما يزال خاضعا للزمن. إنّ الزّمن الذي يدوم إلى الأبد، الأبدية تعني السرمديّة - ما من زمن، لا يمكن العقل البشريّ فهم ذلك، بإمكان العقل البشريّ فهم الزّمن وإنكاره، السرمديّة هي شيء أبعد من فهمنا، ومع ذلك يخبرنا المتصوّفون بأنّ الأبدية هي الآن، ما رأيكم في هذا، أهو خبر جيّد؟ إنّها الآن. يشعر الناس ببالح الأسى عندما أطالبهم بنسيان ماضيهم، هم إمّا فخورون جدّا بماضيهم، أو في غاية الخجل منه. إنّهم مجانين! إنسوه! عندما تسمعون عبارة «اندموا على الماضي»، فاعلموا أنّ ما ذلك إلا تشويش ديني يعوقكم عن الاستيقاظ. استيقظوا! هذا هو المعنى الحقيقي للندم، لا «تندموا على خطاياكم». بل استيقظوا! إفهموا، اوقفوا النحيب، إفهموا! استيقظوا!

إيجاد الذات

يُخبرنا المعلمون الكبار بأن السؤال الأهم في الحياة هو «من أنا؟»، أو بالحرى «ما هو أنا؟» ما هو هذا الشيء الذي أدعوه «أنا»؟ ما هو الشيء الذي أدعوه الذات؟ هل تعلمون حقاً ما تدعون، من أنكم فهمتم كل ما عدا ذلك في الحياة ولم تتمكنوا من فهم هذا؟ أتعلنون حقاً أنكم فهمتم الفلك والثقوب السود والنجوم الزائفة، وتتمكنتم من علوم الحاسب من دون أن تعرفوا من أنتم؟ يا إلهي، ما زلتم نياماً. أنتم علماء نيام. أتعلنون أنكم فهمتم ماهية يسوع المسيح من دون أن تفهموا من أنتم؟ كيف تعلمون بأنكم فهمتم يسوع المسيح؟ من هو الشخص الذي يقوم بعملية الفهم؟ إكتشفوا ذلك أولاً. هذا أساس كل شيء، أليس كذلك؟ بسبب عدم فهمنا هذا، حصلنا على كل المتدينين الأغبياء أولئك الغارقين في حروب دينية غبية - المسلمون يحاربون اليهود، البروتستانت يحاربون الكاثوليك - وكل ما عدا ذلك هو محض هراء. إنهم لا يعرفون من يكونون، لأنهم إن فعلوا، فلن تكون هناك حروب. كمثل الفتاة الصغيرة التي سألت رفيقها الصغير: «أأنت مشيخي؟»، فأجابها الصبي: «لا، نحن ننتمي إلى هرطقة مختلفة!»

ما أبغى التشديد عليه في الوقت الزاهن هو المراقبة الذاتية. أنتم تسمعونني، ولكن ألا تلتقطون فيما تسمعون إلى أصوات أخرى غير صوتي؟ أتعلنون ردود أفعالكم فيما تسمعون إلي؟ إن لم تفعلوا، سيتم غسل أدمغتكم. وإلا فإنكم ستتناثرون بقوة داخلية لا تغونها بالمرّة. حتى وإن كنتم تعلمون كيفية تفاعلكم معي، هل يمكنكم أن تفعلوا في الوقت عينه، الخلفية التي تأتي منها ردود الأفعال هذه؟ لربما كنتم لا تسمعون لي بالمرّة؛ لربما كان آباؤكم هم من يسمعون. أعتقدون أن ذلك ممكن؟ إنه ممكن بالطبع. أقول لكم ثانية، بأنني أصادف في مجموعاتي العلاجية أناساً غير حاضرين معنا بالمرّة. آباؤهم حاضرون، أمهاتهم حاضرات، لكنهم أنفسهم غير حاضرين. لم يكونوا حاضرين على الإطلاق. «اعيش الآن، لكنني لست أنا، إنه أبي الذي يعيش في». حسناً، هذا صحيح بالتأكيد، وبشكل حرفي. يمكنني أن أجزئ واحدكم قطعةً فقطعة متساوياً: «والآن من تصدر هذه العبارة من بابا، ماما، جدّك، جدّك؟».

من الذي يعيش فيكم؟ إنه لمن المرعب حقاً إدراك ذلك. تظنون أنكم أحرار، لكن من المحتمل أنه ما من تصرفي، فكري، شعوري، موقف، إيمان فيكم، إلا ويأتي من شخص آخر. أليس هذا رهيباً؟ ولكنكم لا تعرفونه، لتحدث عن الحياة الآلية التي انطبعت فيكم. تشعرون بأنكم في غاية الرسوخ بالنسبة إلى أمور محدّدة، وتظنون أنكم أنتم من يشعرون بهذه الثقة نحوها، ولكن أهو واقع الأمر حقاً؟ يلزمكم قدرٌ من الوعي لتفهموا أنه لربما تكون تلك الأمور

التي تدعوها «أنا» مزيجًا من خبراتكم السابقة، من ظروفكم وبرمجتكم.

ذلك مؤلم. في الواقع، عندما تبدوون بالاستيقاظ، فإنكم تختبرون مقدارًا كبيرًا من الألم. من المؤلم أن تشهدوا تبدد أوهامكم. ينهار كل ما ظننتم أنكم بنيتموه وهذا مؤلم. هذا هو جوهر التوبة؛ هذا هو جوهر الاستيقاظ. لذا، ما رأيكم في أن تأخذوا دقيقة، في المكان الذي تجلسون فيه الآن، لتعوا، حتى فيما أنكم، ما تشعرون به في أجسادكم، وما يجري في عقولكم، وما تبدو عليه حالتكم العاطفية؟ ما رأيكم في أن تغوا اللوح الأسود، فيما لو كانت عيونكم مفتوحة، وألوان هذه الجدران والمواد المصنوعة منها؟ ما رأيكم في أن تعوا وجهي وردود أفعالكم تجاه وجهي هذا؟ إذ ينكؤن لديكم رد فعل ما، سواء وعيتم ذلك أم لا؟ وهو في الغالب ليس رد فعلكم الشخصي، بل رد فعل تم تكييفكم لتملكوه. وما رأيكم في أن تعوا بعض الأشياء التي قلتها للتو، على الرغم من أن ذلك لن يكون الآن وعيًا، بل مجرد ذاكرة؟

كن واعيًا لحضورك في هذه الغرفة. قل لنفسك: «أنا في هذه الغرفة». كما لو أنك خارج عن ذاتك وتنظر إليها. لاحظوا الفارق الطفيف في المشاعر فيما لو كنتم تنظرون إلى الأشياء التي في الغرفة. سنتساءل لاحقًا: «من هو هذا الشخص الذي يقوم بفعل النظر؟» أنا أنظر إلى نفسي. ما هو الـ «أنا»؟ وما هي «نفسي»؟ في الوقت الراهن، يكفيني أن أراقب نفسي، ولكن إن وجدت أنك تدبّن نفسك أو تطري على نفسك، لا توقف الإدانة أو الإطراء، راقبها فقط. أنا أدبّن نفسي؛ أنا أستهجن نفسي؛ أنا أطري على نفسي. أنظر إلى ذلك وحسب. لا تحاول تغيير ذلك! لا تقل، «أوه، لقد قيل لي ألا أفعل ذلك». راقب ما يحدث وحسب. كما قلت لكم سابقًا، فإن المراقبة الذاتية تعني الفرجة - مراقبة ما يحدث فيك ومن حولك مهما كان. كما لو أنه يحدث لشخصي آخر.

التجرّد نحو الأنا

ساقترح الآن تمريناً آخر. أكتبوا على قطعة من الورق أي وصف مقتضب لأنفسكم - على سبيل المثال، رجل أعمال، كاهن، كائن بشري، مسيحي، يهودي، مسلم، أي شيء.

يكتب بعضكم، كما لاحظ، أشياء من قبيل: متمر، حاج باحث، منافس، حي، نافذ الصبر، متمركز، مصلح، محب، عضو من الجنس البشري، مفرط التنظيم. هذه هي ثمرة المراقبة الذاتية على ما اعتقد. كما لو أنكم ترأفون شخصاً آخر.

لكن انتبهوا إلى كون «الأنا» يراقب «النفس». إنها ظاهرة مثيرة للاهتمام لا يبدو أنها أثارت تساؤلات الفلاسفة، المتصوّفين، العلماء أو المحللين النفسيين، بأن «الأنا» يمكنها مراقبة «النفس». إذ يبدو أن الحيوانات لا تمتلك القدرة على فعل ذلك بالمرّة. كما أن المرء بحاجة إلى مقدار معين من الذكاء ليتمكن من فعل ذلك. لن أقوم بتعليمكم المينافيزيقيا ولا الفلسفة، ولكن المراقبة السهلة والحس العام. إن مرجعية متصوّفي الشرق العظماء هي هذه «الأنا»، وليست «النفس». في الواقع، يُخبرنا بعض أولئك المتصوّفين بأننا نبدأ أولاً بالأشياء، بوحي للأشياء؛ ثم ننتقل إلى وعي للأفكار (هذه هي «النفس»); وأخيراً نصل إلى وعي للشخص الذي يفكر. أشياء، أفكار، المفكر. ما نبحث عنه في الحقيقة هو المفكر. هل يمكن المفكر أن يعرف نفسه. هل يمكنني أن أعلم ما هي «الأنا»؟ يجيب بعض هؤلاء المتصوّفين: «أيمكن السكين أن تقطع نفسها؟ أيمكن السن أن يقضم نفسه؟ أيمكن العين أن ترى نفسها؟ أيمكن «الأنا» أن تعرف نفسها؟». إلا أنني مهتمٌ حالياً بما هو أشدّ عملية بشكل غير محدود، وهو اكتشاف ما ليست عليه «الأنا». سامضي في الشرح بأبطأ شكل ممكن، لأن النتائج مدمّرة، هائلة أو مروعة، ذاك يعتمد على وجهة نظرهم.

اصفوا إلى هذا: هل أنا أفكاري، الأفكار التي تجول في خاطري؟ لا، فالأفكار تأتي وتذهب؛ لست بأفكاري. هل أنا جسدي؟ يقولون بأن ثقة ملايين الخلايا في جسد كل شخص، وهي تتغير أو تتجدد في كل دقيقة، بحيث إننا، وبعد مضي سبع سنوات، لا نمتلك في أجسادنا أي خلية من تلك التي كانت موجودة قبل سبع سنوات. الخلايا تأتي وتذهب. الخلايا تنشأ وتموت. إلا أن «الأنا» تبدو دائمة. إذا، هل أنا جسدي؟ بالتأكيد لا!

«الأنا» أكثر من مجرد جسد. قد نقولون بأن الجسد هو جزء من «الأنا»، إلا أنه جزء متغيّر. يستمرّ بالانتقال، يستمرّ بالتغيّر. يحتفظ بالاسم ذاته، إلا أنه

يتغيّر باستمرار. ذلك يشبه شلالات نياجرا التي تحتفظ بالاسم ذاته، إلا أنها مكونة من مياه متغيرة باستمرار. إننا نستخدم الاسم نفسه لوصف واقع دائم التغير.

وماذا عن اسمي؟ هل «أنا» هي اسمي؟ بالتأكيد لا، لأنه يمكنني أن أغتير اسمي من دون أن أغتير «الأنا». وماذا عن مهنتي؟ ماذا عن معتقداتي؟ أقول بأنني مسيحي، يهودي، مسلم... هل يعتبر ذلك جزءاً أساسياً من «الأنا»؟ لقد سبق لي ذكر قصة الفتاة التي تسأل رفيقها الصغير: «هل أنت مشيخي؟». حسناً، لقد أخبرني أحدهم قصة أخرى عن بادي. كان بادي يمشي في أحد شوارع بلفاست، وأحس فجأة بمسدس موجه إلى ظهره وصوت يقول له: «كاثوليكي أم بروتستانتي؟». حسناً، توجب علي بادي أن يفكر بسرعة. قال: «أنا يهودي». فسمع الصوت يقول له: «لا بد من أنني العربي الأشد سعادة في بلفاست كلها». التسميات مهمة لنا. نقول: «أنا جمهوري». ولكن هل أنت حقيقة كذلك؟ لا يمكن أن تعني بقولك هذا أنك عندما تبدل الحزب الذي تنتمي إليه فإنك تبدل «الأنا». أليست «الأنا» القديمة هي عينها ولكن مع قناعات سياسية مختلفة؟ أتذكر سماعي لرجل يسأل صديقه: «أعتزم التصويت للجمهوريين؟» فيجيب الصديق: «لا، بل أعتزم التصويت للديموقراطيين. أبي كان ديموقراطياً، وكذلك كان جدي وجدي الأكبر». عندها قال الرجل «هذا منطق مجنون. ما أعنيه، هو أنه لو كان أبوك لصاحصنة، وكذلك كان كل من جدك وجدك الأكبر، فما كنت لتكون أنت؟». أجاب الصديق: «أه، عندها أكون جمهورياً».

ننفق معظم أعمارنا ونحن نتصرف وفقاً للتسميات، تلك التي تتعلق بنا وبالأخرين. فما هي تلك التسميات مع «الأنا». الكاثوليكية والبروتستانتية هي تسميات مألوفة. ثقة رجل قصد الكاهن يوماً قائلاً له: «أبت، أريدك أن تقيم قداساً من أجل راحة نفس كلب». كان الكاهن ساخطاً لهذا الطلب فقال: «ما الذي تعنيه، يا قامة القداس من أجل كلبك؟». «إنه كلب الأليف» قال الرجل. «لقد أحببت ذلك الكلب، وأود لو تقيم قداساً من أجله». قال الكاهن: «إننا لا نقيم هنا قداساً للكلاب. يمكنك أن تجرّب ذلك لدى تلك الطالفة في نهاية الشارع. إسأل إن كان بإمكانهم تقديم مثل هذه الخدمة». وبينما كان الرجل يهيم بالانصراف، قال للكاهن: «هذا مؤسف للغاية. لقد أحببت ذلك الكلب حقاً. كنت أنوي تقديم مليون دولار عن القداس». فقال الكاهن: «انتظر لحظة، لم تقل إن كلبك كان كاثوليكيًا».

عندما تحاصرّكم التسميات، فما هي القيم التي تحملها بالنسبة إلى «أنا»؟ يمكننا القول إن الـ «أنا» ليست أيّاً من تلك التسميات التي نلصقها بها؟ تنتمي التسميات إلى «النفس». ما يتغيّر باستمرار هو «النفس». هل تتغيّر «الأنا» يوماً ما؟ هل يتغيّر المراقب؟ في الواقع، ينبغي تطبيق التسميات التي نفكرون فيها، ومهما كان نوعها (ربما عدداً الكائن البشري)، على «النفس». ليست «الأنا» أيّاً من هذه الأشياء. لذا، عندما تتجرّد من ذاتك وتراقب

«نفسك» فإنك لا تتماهى بعد الآن مع «نفسك». تتواجد المعاناة في «النفس». وعندما تماهى «الأنا» مع «نفسك» هنا فقط تبدأ المعاناة.

لنقل إنك خائف أو تواق أو قلق. عندما لا تتماهى «الأنا» مع المال، أو الاسم، أو الجنسية، أو الأشخاص، أو الأصدقاء، أو أي صفة، فهي لا تكون مهددة على الإطلاق. قد تكون نشيطة للغاية، ولكنها غير مهددة. فكل شيء سبب أو يسبب لك الألم أو القلق أو الاضطراب. يمكنك أن تحدد بداية الرغبة الكامنة وراء تلك المعاناة، لا بد من وجود ما ترغبه بقوة وإلا ما كانت هذه المعاناة لتوجد. ما هي هذه الرغبة؟ ثانيًا، إنها ليست مجرد رغبة؛ هنالك تماهى ما هنا. لقد قلت لنفسك، بشكل أو بآخر: «إن كينونة «الأنا»، وجود «الأنا» تقريبًا، مرتبط بهذه الرغبة». تتأني كل المعاناة من مماهة نفسي مع شيء ما، سواء أكان هذا الشيء داخليًا أم خارجيًا.

المشاعر السلبية تجاه الآخرين

في أحد مؤتمراتي، علق أحدهم بالتالي:

«أرغب في مشاركتكم بشيء رائع حصل معي. ذهبت إلى السينما، كنت أعمل بعيد ذلك بقليل، وكانت لدي حقيقة مشاكِل مع ثلاثة أشخاص في حياتي. لذا قلت لنفسي: «حسنًا، سأعمل كما تعلمت من الفيلم، سأحاول الخروج من نفسي». وأبضع ساعاتي، تواصلت مع مشاعري، مع مدى السوء الذي أشعر به تجاه أولئك الأشخاص. قلت: «أنا أكره أولئك الأشخاص حقًا». ثم قلت: «يا يسوع ما الذي يمكنك أن تفعله تجاه هذا كله؟». وبعد برهة أجهشت بالبكاء، لأنني أدركت أن يسوع مات من أجل هؤلاء الأشخاص تحديدًا على الرغم مما هم عليه. في ذلك اليوم، توجهت بعد الظهر إلى المكتب، حيث كلمت أولئك الأشخاص. أخبرتهم ما كانت مشكلتي، وأنفقوا معي. تخلصت من غضبي وكراهي لهم من ساعتها».

كل مرة تختبرون مشاعر سلبية تجاه أي كان، فإنكم تعيشون في الوهم. هناك شيء على غير ما يرام فيكم: ليسم ترون الواقع. ينبغي لشيء ما بداخلكم أن يتغير. ولكن ما الذي نفعله عادة عندما نختبر مشاعر سلبية تجاه الآخرين؟

«هو الفلام، هي الملامة، ينبغي لها أن تتغير». لا! العالم على خير ما يرام، ومن ينبغي له أن يتغير هو أنت.

لنقل بأن أحدكم يعمل في معهد ما. وأثناء اجتماع الموظفين قال أحدهم «الطعام مقرف هنا». فتجحظ عبنا مسؤولة التغذية. لقد تماهت مع الطعام. كأنها تقول: «كل من يهاجم الطعام يهاجمي». أشعر بأنني مهددة. لكن ليست «الأناء» هي المهددة هنا، بل «النفس» فقط.

ولكن، لنفترض أن أحدكم شهد ظلمًا فاضحًا، شيئًا خاطئًا بشكل موضوعي. ليس من المفترض التدخل والقول بأن هذا غير جائز؟ ألن نود التدخل بشكل أو بآخر، لتصحيح مجرى الأمور؟ كان يقوم أحدهم بجرح طفل على سبيل المثال، فيما تشهد أنت على هذه الإساءة. ما رأيك في هذا النوع من الأشياء؟ أمل أنكم لم تفترضوا أنني أقول بأنه لا ينبغي لكم عمل شيء ما. أعني هنا هو أنه عندما لا يكون لديكم مشاعر سلبية فإنكم تكونون أشد فاعلية بكثير. عندما تداخلكم المشاعر السلبية فإنكم تصابون بالعمى. تدخل «النفس» في الصورة، وينشأ بك كل شيء. قبل ذلك كان ثقة مشكلة واحدة فقط بين أيدينا، والآن أصبحنا اثنين. يفترض الكثيرون بشكل خاطئ أن عدم امتلاك مشاعر سلبية كالغضب والاستياء والكراهية يعني عدم التصرف

حيال المواقف. أوه لا، أوه لا! ذلك يعني ألا تتأثروا على الصعيد العاطفي، بل أن تشبوا إلى العمل. تصبحون مرهفي الحس تجاه الأشياء والناس من حولكم. ما يقتل رهافة الحس هو ما يدعو كثير من الذات الشرطية؛ عندما تنمادي في التماهي مع «النفسي» بحيث يكون هناك كثير من «نفسك»، الأمر الذي يمنعك من رؤية الأشياء بموضوعية، ودونما تحيز. عندما تنتقل إلى العقل، فمن المهمّ بمكان أن تكون قادرًا على رؤية الأشياء دونما انحياز. إلا أن المشاعر السلبية تعوق ذلك.

بم يمكننا أن ندعو إذاً ذلك النوع من الشغف الذي يحفز أو ينشط الطاقة لفعل شيء ما حيال الشر الموضوعي؟ مهما يكن من أمر، إلا أنه ليس ردّ فعل؛ بل هو فعل.

يتساءل بعضكم فيما لو كان ثقة منطقة رمادية قبل أن يتحول شيء ما إلى تعلق، قبل أن يحدث التماهي. لنقل إن صديقًا لك قد توفي. يبدو ساعتها أنه من الصحيح والإنساني الشغور ببعض الحزن نتيجة لذلك. ولكن ما نوع ردّ فعلك؟ رثاء الذات؟ ما الذي ستحزن عليه؟ فكر في ذلك. قد يبدو لكم ما أقوله فظيفًا، لكن سبق لي وأخبرتكم بأنني أت من عالم آخر. ردّ فعلكم هو خسارة شخصيّة، أليس كذلك؟ أشعر بالأسى على «نفسي» أو على الآخرين الذين جلب صديقي الفرح إليهم. لكن هذا يعني أنك تشفر بالأسى على آخرين يشعرون بالأسى على أنفسهم. إن لم يكونوا يشعرون بالأسى على أنفسهم، فما الذي قد يناسفون عليه؟ لا نشعر بالحزن مطلقًا لدى فقداننا أمورًا سمحنا لها بأن تكون حرة، ولم نحاول يومًا أن نمتلكها. الحزن هو علامة أنني جعلت سعادتي معتمدة على هذا الشيء أو الشخص، إلى حد ما. لقد اعتدنا على سماع ما يعاكس هذا، بحيث يبدو لكم ما أقوله لا إنسانيًا، أليس كذلك؟

عن التبعية

ولكن هذا ما كان يقوله لنا المنتصوفون في الماضي. لا ادعي أن «النفس» الذات الشرطية، لن تسقط أحياناً في أنماطها المعتادة. إنها الطريقة التي تمّ تكييفنا عليها. إلا أن ذلك يطرح السؤال عما إذا كان من الممكن تخيل حياة يكون فيها المرء وحيداً للغاية، بحيث لا يعتمد على أحد.

كلنا ناعتمد على شخص آخر في أنواع الأشياء كافة، ألسنا كذلك؟ ناعتمد على الجزار، الخباز، صانع الشموع. إنها تبعية متبادلة. هذا حسن! لقد أعدنا المجتمع بهذه الطريقة، كما أننا نوزع وظائف مختلفة على أناس مختلفين من أجل رفاهية الجميع، بحيث نعمل بشكل أفضل ونعيش بشكل أشد فاعلية - ذلك ما ذامله على الأقل - ولكن ما الذي يتضمنه اعتمادي النفسي على الآخر - اعتمادي العاطفي على الآخر؟ يعني ذلك أنني اعتمد على كائن بشري آخر في سبيل تحقيق سعادتي.

فكروا في ذلك. لأنكم إن اعتمدتم على آخر في تحقيق سعادتكم، فإن الشيء التالي الذي ستقومون به - سواء وعيتم ذلك أم لا - هو طلب أن يساهم أشخاص آخرون في سعادتكم. ومن ثمّ سيكون هنالك خطوة أخرى: الخوف، الخوف من الخسارة، الخوف من الانسلاخ، الخوف من الرفض، تحكّم متبادل. الحب المثالي يطرح عنه الخوف. عندما يتواجد الحب، تختفي المطالب، لا يوجد توقعات، لا يوجد تبعية. لا أطالبك بأن تجعلني سعيداً؛ سعادتي ليست فيك. وإن أردت هجري، فلن أشعر بالأسى على نفسي؛ أستمتع بصحبتك بشكل هائل، إلا أنني لا أتشبّث بك.

أستمتع بها على قاعدة عدم التشبّث. لست أنت ما أستمتع به حقاً، بل بشيء أعظم من كلياً مقاً. إنه شيء اكتشفته، نوع من السيمفونية، نوع من الأوركسترا التي لا تتوقف. عندما التقى بشخص آخر، فإنها تعزف لحناً مختلفاً. لحناً مبهجاً هو الآخر. وعندما أكون وحيداً، فإنها تستمرّ بالعزف، لديها ذخيرة هائلة بحيث لا تنقطع عن العزف مطلقاً.

هذا هو جوهر الاستيقاظ. وهذا هو أيضاً سبب تنويمنا المغنطيسي، غسيل أدمغتنا، نومنا. يبدو من المرعب أن أسأل، ولكن هل يمكن القول إنك تحبني فيما لو كنت تشبّث بي وترفض السماح لي بالرحيل؟ ترفض السماح لي بأن أكون؟ هل يمكن القول إنك تحبني إن كنت بحاجة نفسيّاً أو عاطفياً من أجل تحقيق سعادتك؟ يتبدّد ذلك أمام التعاليم الكونية للنصوص المقدسة كافة، وللديانات كافة، وللطرق الصوفية كافة. أسأل نفسي مراراً: «كيف غفلنا عن ذلك كل هذه السنين؟» «كيف لم أر ذلك؟». عندما تقرؤون الأشياء

الجزئية تلك في الكتاب المقدس، تبدوون بالتساؤل: هل هذا الرجل مجنون؟ ولكنكم بعد قليل تفكرون في أن البقية هم المجانين. «ما لم يُبغضوا آباءكم أو أمهاتهم، إخوانكم وأخواتكم، ما لم تزهدوا وتتخلوا عن كل ما تملكونه فلا يمكنكم أن تكونوا تلاميذي». يجب أن تتخلوا عن كل شيء، لا أقصد التمسك الجسدي؛ فهذا سهل. عندما تسقط أوهامكم، تكونون أحراراً على اتصال بالواقع، وصدقوني لن تشعرُوا بالوحدة ثانية، على الإطلاق. لا يتم شفاء الوحدة من خلال الصحة البشرية، بل يتم شفاؤها من خلال الاتصال بالواقع. أوه، لدي الكثير لأقوله بهذا الخصوص، الاتصال بالواقع، تخليك عن أوهامك، الاتصال بما هو حقيقي. ومهما يكن ذلك الشيء، فلا اسم له. إذ يمكننا معرفته فقط من خلال التخلي عما هو غير حقيقي. يمكنكم معرفة ماهية الوحدة فقط، عندما تتخلون عن التشبث، وعندما تتخلون عن التبعية. إلا أن الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي أن ترغبوا ذلك. إن لم ترغبوا فيه، فكيف يمكنكم الوصول إليه؟

فكروا في الوحدة على أنها ملككم. هل يمكن الصحة البشرية أن تنتزعها منكم؟ كل ما ستفعله هو الإلهاء. ثقة فراغ في الداخل، أليس كذلك؟ وعندما يطفو هذا الفراغ على السطح، فماذا تفعلون؟ تقرؤون هاربيين، تشغلون التلفاز، الراديو، تقرؤون كتاباً، تبحثون عن الصحة البشرية، تبحثون عن التسلية، تبحثون عن الإلهاء. كل شخص يفعل ذلك. إنها تجارة ضخمة هذه الأيام، صناعة منظمة لإلهائنا وتسليتنا.

كيف تحدث السعادة؟

إنهبوا إلى بيوتكم، وراقبوا أنفسكم. لهذا سبق لي أن قلت بأن المراقبة الذاتية هي شيء مبهج وعظيم. بعد قليل، لن تكونوا بحاجة إلى بذل أي جهد، لأنه، وبينما تتلأش الأوهام، تبدوون بمعرفة أشياء لا يمكن وصفها. إذ تدعى السعادة. يتغير كل شيء وتصبحون مُدمنين على الوعي.

ثقة قصة عن تلميذ توجه إلى معلمه قائلاً: «أيمكنك إعطائي كلمة حكمة؟ أيمكنك إطلاعي على ما يمكنه إرشادي طوال أيامي؟». تصادف ذلك مع يوم صمت المعلم، لذلك فقد أخذ لوحًا، وكتب عليه «الوعي». عندما رأى التلميذ ذلك، قال: «هذا مختصر للغاية. ألا يمكنك التوضيح في الشرح بعض الشيء؟». فأخذ المعلم اللوح وكتب عليه: «الوعي، الوعي، الوعي». فقال التلميذ: «نعم، ولكن ماذا يعني ذلك؟». أخذ المعلم اللوح ثانية وكتب: «الوعي، الوعي، الوعي يعني الوعي».

هذا ما تعنيه المراقبة الذاتية. لا يمكن أحدًا أن يُريكم كيفية القيام بها، لأن ذلك سيعني إعطاءكم تقنية، سيعني برمجتكم. لكن راقبوا أنفسكم. عندما تتكلم مع أحدهم، فهل تعي ما تنطق به، أم تكتفي بالتماهي معه فحسب؟ عندما تغضب من شخص ما، هل تعي أنك غاضب، أم ببساطة تتماهي مع غضبك؟ لاحقًا، وعندما يتسنى لك الوقت، هل تدرس تجربتك وتحاول فهمها؟ من أين تأتي؟ ما الذي تسبب بها؟ ليس بإمكانك معرفة أي طريقة أخرى للوعي. يمكنك أن تغير ما تفهمه فقط، أما ما لا تفهمه، ولا تعيه، فإنك تكبته. لا يتغير. ولكن عندما تفهمه، فإنه يتغير.

اسأل في بعض الأحيان: «هل النمو في الوعي تدريجي أم يحصل كنوع من الانفجار الفجائي؟». حسنًا، هناك بعض المحطوظين ممن يتمكنون من رؤية ذلك كوميضة «فلاش». في حين يستمر آخرون في النمو البطيء، التدريجي والمتزايد. تبدوون برؤية أشياء معينة. تتساقط الأوهام، تنسلخ الخيالات، ويبدوون ببناء صلاتٍ بالحقائق. ما من قاعدة عامة. ثقة قصة شهيرة عن أسد أتجه نحو قطيع من الخراف ولشدة دهشته، وجد أسدًا ضمن القطيع. لقد كان أسدًا جلبته الخراف، فذ كان شيئًا صغيرًا. كان يتغوى بالخراف، ويركض كالخراف. إتجه الأسد مباشرة إليه، وعندما وقف الأسد (الخراف) أمام الأسد الحقيقي، ارتعدت أوصاله. فقال له الأسد: «ما الذي تفعله بين هذه الخراف؟». أجاب الأسد (الخراف): «أنا خروف». فقال الأسد: «أوه لا، لست خروفاً. سنأتي معي». أخذ الأسد (الخراف) إلى بركة وقال: «انظروا». وعندما رأى الأسد (الخراف) انعكاس صورته في المياه، أطلق زليزًا عظيمًا، وفي تلك اللحظة تحوّل. لقد تغير إلى الأبد.

إن كنتم محظوظين وكانت الآلهة لطيفة، أو إن كنتم قد حصلتم علي نعمة إلهية (استخدموا التعبير اللاهوتي الذي يناسبكم)، فقد تفهمون فجأة من هي «الأزاه» وستتغيرون إلى الأبد. لن يتمكن أي شيء من مشكم ثانية، ولن يتمكن أي كان من أذيتكم بعد ذلك.

لن تخشوا أحدًا ولن تخشوا شيئًا. أليس هذا بمذهل؟ سنعيشون كملاك، كمملكة. هذا هو المقصود بالعيشة الملكية، لا ذلك الهراء من قبيل عرض صوركم في الجرائد أو امتلاك نقود كثيرة. هذا هراء كبير. لا تخافون أحدًا لأنكم مرتاحون للغاية لكونكم لا أحد. لا تأبهون على الإطلاق للنجاح أو للفشل؛ لا يعين لكم شيئًا بعد الآن. الشرف، الخزي، لا يعين شيئًا! حتى وإن جعلتم من أنفسكم أضحوكة للآخرين، فلن يعني ذلك بدوره شيئًا. ما أروع هذه الحالة! بعض الناس يصلون إلى هذه المرحلة ببذل قصارى جهدهم، خطوة بخطوة، عبر شهور وأسابيع من الوعي الذاتي. إلا أنني أهدكم بالنالي: لم يسبق لي معرفة شخص واحد خصص وقتًا ليصبح واعيًا، ولم يلحظ الفارق طوال أسابيع. تتغير نوعية حياتهم، بحيث لا يتوجب عليهم أن يعيشوها بعد الآن بالإيمان. يلحظون ذلك؛ لقد صاروا مختلفين. صارت ردود أفعالهم مختلفة. في الواقع، تقل ردود أفعالهم وتزداد أفعالهم. تتمكنون من رؤية أشياء لم تروها سابقًا.

تكونون أشد نشاطًا، أفهم حياة. يعتقد الناس أنهم إن لم يمتلكوا رغبة جامحة، فإنهم يكونون أشبه بالأغصان الميتة. ولكنهم في الواقع يفقدون تأثيرهم. تخلصوا من مخاوف الفشل التي لديكم، تؤثراتكم المتعلقة بالنجاح، وستكونون أنفسكم. مسترخين. لن تفقدوا عربة حياتكم فيما أرجلكم ضاغطة على الفرامل. هذا ما سيحدث.

ثقة مقولة جميلة لتراتنكسو، الحكيم الصيني العظيم، تحمّلت مشقة حفظها عن ظهر قلب، تقول: «عندما لا يسدد رامي السهام من أجل جائزة محددة، فإنه يمتلك كل مهاراته؛ أما عندما يسدد للحصول على لوحة نحاسية فإنه يكون متوترًا؛ وعندما يسدد للحصول على جائزة ذهبية، فإنه يصاب بالعمى، يرى هدفين ويفقد رُشده. لم تتغير مهاراته، لكن الجائزة تقسمه. أصبح مهتمًا! أصبح يفكر في الفوز أكثر من التسديد، وتستهلك الحاجة إلى الفوز طاقته». ليست هذه صورة دقيقة لماهية معظم الناس؟ عندما تعيش لا من أجل شيء، فإنك تتحكم بمهاراتك كافة، تمتلك كل طاقتك، تكون مسترخيًا، لا تبالي، لا يهم إن فزت أم خسرت.

الآن أصبح هنالك بشري يعيش من أجلك. هذا هو جوهر الحياة، يتأتى من الوعي فقط. وبالوعي ستفهمون أن الشرف لا يعني شيئًا، إنه قناعة اجتماعية، لا أكثر. ولهذا السبب ترون أن الأنبياء والمتصوفين لم يبالوا به البتة. لم يعن الشرف أو الخزي لهم شيئًا. كانوا يعيشون في عالم آخر، عالم الوعي. وكذلك لم يعن الفشل والنجاح لهم شيئًا. لقد كان لديهم هذا الموقف:

إن كنتم محظوظين وكانت الآلهة لطيفة، أو إن كنتم قد حصلتم علي نعمة إلهية (استخدموا التعبير اللاهوتي الذي يناسبكم)، فقد تفهمون فجأة من هي «الأزاه» وستتغيرون إلى الأبد. لن يتمكن أي شيء من مشكم ثانية، ولن يتمكن أي كان من أذيتكم بعد ذلك.

لن تخشوا أحدًا ولن تخشوا شيئًا. أليس هذا بمذهل؟ سنعيشون كملاك، كمملكة. هذا هو المقصود بالعيشة الملكية، لا ذلك الهراء من قبيل عرض صوركم في الجرائد أو امتلاك نقود كثيرة. هذا هراء كبير. لا تخافون أحدًا لأنكم مرتاحون للغاية لكونكم لا أحد. لا تأبهون على الإطلاق للنجاح أو للفشل؛ لا يعبان لكم شيئًا بعد الآن. الشرف، الخزي، لا يعبان شيئًا! حتى وإن جعلتم من أنفسكم أضحوكة للآخرين، فلن يعني ذلك بدوره شيئًا. ما أروع هذه الحالة! بعض الناس يصلون إلى هذه المرحلة ببذل قصارى جهدهم، خطوة بخطوة، عبر شهور وأسابيع من الوعي الذاتي. إلا أنني أهدكم بالنالي: لم يسبق لي معرفة شخص واحد خصص وقتًا ليصبح واعيًا، ولم يلحظ الفارق طوال أسابيع. تتغير نوعية حياتهم، بحيث لا يتوجب عليهم أن يعيشوها بعد الآن بالإيمان. يلحظون ذلك؛ لقد صاروا مختلفين. صارت ردود أفعالهم مختلفة. في الواقع، تقل ردود أفعالهم وتزداد أفعالهم. تتمكنون من رؤية أشياء لم تروها سابقًا.

تكونون أشد نشاطًا، أفهم حياة. يعتقد الناس أنهم إن لم يمتلكوا رغبة جامحة، فإنهم يكونون أشبه بالأغصان الميتة. ولكنهم في الواقع يفقدون تأثيرهم. تخلصوا من مخاوف الفشل التي لديكم، تؤثراتكم المتعلقة بالنجاح، وستكونون أنفسكم. مسترخين. لن تفقدوا عربة حياتكم فيما أرجلكم ضاغطة على الفرامل. هذا ما سيحدث.

ثقة مقولة جميلة لتراتكسو، الحكيم الصيني العظيم، تحمّلت مشقة حفظها عن ظهر قلب، تقول: «عندما لا يسدد رامي السهام من أجل جائزة محددة، فإنه يمتلك كل مهاراته؛ أما عندما يسدد للحصول على لوحة نحاسية فإنه يكون متوترًا؛ وعندما يسدد للحصول على جائزة ذهبية، فإنه يصاب بالعمى، يرى هدفين ويفقد رُشده. لم تتغير مهاراته، لكن الجائزة تقسمه. أصبح مهتمًا! أصبح يفكر في الفوز أكثر من التسديد، وتستهلك الحاجة إلى الفوز طاقته». ليست هذه صورة دقيقة لماهية معظم الناس؟ عندما تعيش لا من أجل شيء، فإنك تتحكم بمهاراتك كافة، تمتلك كل طاقتك، تكون مسترخيًا، لا تبالي، لا يهم إن فزت أم خسرت.

الآن أصبح هنالك بشري يعيش من أجلك. هذا هو جوهر الحياة، يتأتى من الوعي فقط. وبالوعي ستفهمون أن الشرف لا يعني شيئًا، إنه قناعة اجتماعية، لا أكثر. ولهذا السبب ترون أن الأنبياء والمتصوفين لم يبالوا به البتة. لم يعن الشرف أو الخزي لهم شيئًا. كانوا يعيشون في عالم آخر، عالم الوعي. وكذلك لم يعن الفشل والنجاح لهم شيئًا. لقد كان لديهم هذا الموقف:

«أنا أحمق، أنت أحمق، فأين المشكلة؟»

قال أحدهم ذات مرة: «الأشياء الثلاثة الأصعب لدى الإنسان ليست البطولات الجسدية أو الإنجازات الفكرية، بل الرد على الكراهية بالحب أولاً، واحتواء المبتودين ثانياً، والاعتراف بالخطأ أخيراً». إلا أن هذه الأشياء تظل أسهل ما في الدنيا إن لم يتمم الفرد مع «النفس». عندها يمكنك قول أشياء مثل: «أنا مخطئ! أو عرفتني بشكل أفضل، لعرفت أنني غالباً ما أكون مخطئاً. ما الذي يمكن توقعه من أحمق مثلي؟»، ولما كان في وسعك إيذائي لو لم أتمم مع هذه المفاهيم عن «النفس». مبدئياً، سيعترض التكيف القديم وستصاب بالإحباط والقلق. ستحزن، وتبكي. «قبل الاستنارة، كنت محبطاً. وبعد الاستنارة، ما زلت محبطاً». ولكن ثقة فرق: لم أعد أتماهى مع الإحباط. أعلم أي فارق يشكل هذا؟

تخطو خارج نفسك وتنظر إلى هذا الإحباط، من دون أن تتماهى معه. لا تحاول إزالته؛ ستودّ الماضي في حياتك حقاً، فيما يمزّ الإحباط من خالك ويختفي. إن لم تعرف معنى هذا، فلديك حقاً ما تتطلع إليه قدماً. والقلق؟ ها هو يأتي من دون أن يتسبّب لك بمشكلة. كم هو غريب هذا! تقلق من دون أن تضطرب.

ليست هذه بالمفارقة؟ وعندها ستودّ السماح للغبية بالقدوم، إذ كلما حاربتها، منحناها قوة أكبر. ستودّ مراقبتها فيما تمرّ. يمكنك أن تكون سعيداً في قلقك. ليس هذا جنوناً؟ يمكنك أن تكون سعيداً في إحباطك. ولكن، لا يسعك امتلاك مفهوم خاطئ عن السعادة. أكنت تظنّ أنّ السعادة هي الإثارة أو التشويق؟ هذا ما يسبّب الإحباط. ألم يخبرك أحد بذلك؟ أنت متشوّق، ذلك حسن. إلا أنك تفقد السبيل بذلك لإحباطك التالي. أنت متشوّق، إلا أنك تحصل بذلك على القلق المترافق مع التشويق: كيف لي أن أجعله يستمر؟ هذا ليس بسعادة، إنه إدمان.

أتساءل كم عدد غير المدمنين الذين يقرؤون هذا الكتاب. إن كنتم تشبهون أي مجموعة عادية من الناس، فتتقن بعض المدمنين بينكم بالتأكيد. لا تنظر بتعال إلى مدمني الكحول ومدمني المخدرات: إذ لربما تكون قداماً مثلهم تماماً. أعترف بأنّ المرة الأولى التي حظيت فيها بصحة عن العالم الجديد هذا، كانت مرعبة للغاية. لقد فهمت أنّ ذلك يعني أن أكون وحيداً، من دون مكان ألقى عليه رأسي، أن أترك الجميع أحراراً، وأن أكون أنا نفسي حراً. ألا أكون ذا مكانة مميزة لدى أيّ كان، وأن أحب الجميع على حدّ سواء - هذا ما يفعله الحب. إنه يشرق على الأخيار والأشرار على حدّ سواء؛ يتسبّب بسقوط المطر على القديسين والخطاة على حدّ سواء.

هل من الممكن أن تقول الزهرة: «سامنخ عطري للأشخاص الطيبين الذين يستشفونني، وأحجبه عن الأشرار؟»، أو هل يمكن المصباح أن يقول:

«سامنح نوري الأخبار في هذه الغرفة، واحجبه عن الأشرار؟»، أو هل يمكن الشجرة أن تقول: «سامنح ظلي للناس الطيبين الذين يرتاحون تحتي، واحجبه عن السيئين؟». هذه بعض الصور عن ماهية الحب.

لطالما كانت هذه الصورة موجودة، تطل علينا من خلال نصوص الكتاب المقدس، مع أننا لم نبال برؤيتها لأننا كنا غارقين للغاية فيما تدعوه حضارتنا الحب، بأغنياتها وقصائدها عن الحب - هذا ليس حبًا على الإطلاق. إنه نقيض الحب. إنها الرغبة في التحكم والامتلاك. إنه تلاعب وخوف، وقلق - ليس هذا بالحب. قيل لنا بأن الحب ذو طبيعة ناعمة، منتجع للعطالات. هو ليس هذه الأشياء، إلا أننا تحاذقنا وابتكرنا أساليب تجعل سعادتنا تعتمد على أشياء أخرى، سواء داخلنا أو خارجنا. كأنك تقول: «أرفض أن أكون سعيدًا إلى أن يخفني العصاب الذي أعاني منه». لدي خبر سار لك: يمكنك أن تكون سعيدًا في هذه اللحظة، حتى مع هذا العصاب. أتريد خبرًا أفضل؟ ثقة سبب واحد يمنعك من اختبار ما تدعوه في الهند أناند، أي الغبطة. ثقة سبب واحد يمنعك من الشعور بالغبطة في الوقت الراهن، ذلك أنك تفكر أو تركز على ما لا تمتلكه، وإلا لا تجربت الغبطة. تركز على ما لا تمتلكه. غير أنك تمتلك الآن كل ما تحتاج إليه لتكون مغبطًا.

نطق يسوع بمعان سباقه مع العلمانيين، مع الجالعين ومع الفقراء. كان يُطلعهم على البشري السارة: إنها لكم لتتلقفوها. ولكن من أصفى إليه؟ لم يهتم أحد، بل كانوا يفضلون البقاء نيامًا.

إخشوا جذور العنف

يقول بعض الناس بوجود شيئين فقط في العالم: الله والخوف؛ الحب والخوف هما الشيطان الوحيدان. ثقة شرّ وحيد في العالم: الخوف. وثقة خير وحيد في العالم: الحب. على الرغم من أننا قد نطلق عليه في بعض الأحيان مسقيات أخرى. قد ندعوه سعادة أو حرّية أو سلاماً أو فرحاً أو الله أو مهما يكن. إلا أنّ التسمية غير مهمة. ما من شرّ في هذا العالم لا يمكن اقتضاء أثره إلى الخوف.

الجهل والخوف: الجهل ناتج من الخوف. هذا هو مصدر الشرور كافة. هذا هو مصدر عنفك. الشخص غير العنيف بصدق، الشخص غير القابل للعنف، هو الشخص الذي لا يخاف. تفضب فقط عندما تكون خائفاً. فكر في المرّة الأخيرة التي كنت غاضباً فيها. إمض قدماً. فكر في المرّة الأخيرة التي غضبت فيها. وابحث عن الخوف الكامن وراء غضبك. ما الذي خفت من فقدانه؟ ما الذي خفت من أن ينتزع منك؟ من هنا يأتي الغضب. فكر في أي شخص غاضب. ربّما من شخص تخشاه. هل يمكنك رؤية مقدار خوفه؟ إنه خائف حقاً. إنه خائف وإلا لما كان غاضباً. وبشكل مطلق، يمكننا القول إنّ ثقة شيئين فقط: الحب والخوف.

أفضل في هذه الخلوة أن أترك الأمور على هذا النحو، دونما بنية محدّدة، وأن أنتقل من موضوع إلى آخر مع العودة إلى الأفكار الرئيسية مرّات ومرّات، فهذه هي طريقة الإدراك الحقيقي لما أقوله، فإن لم يُصيكم ذلك في المرّة الأولى، فقد يحدث في المرّة الثانية. وما قد لا يصيب أحد الأشخاص، فقد يصيب آخر. لدي أساليب مختلفة، لكنها تتمحور جميعاً على الفكرة ذاتها. أدعوها الوعي، أدعوها الحب، أدعوها الروحانية، أو الحرّية أو اليقظة أو مهما يكن الاسم. إنه حقاً الشيء ذاته.

الوعي والاتصال بالواقع

راقبوا كل ما بداخلكم وخارجكم، وعندما يحدث معكم شيء، حاولوا رؤيته كما لو أنه يحدث لشخص آخر، دونما تعليق، دونما حكم، دونما موقف، دونما تدخل، دونما محاولة تغيير، للفهم فقط. عندما تبدوون بفعل ذلك، ستدركون أنكم بدأتكم وبشكل تدريجي عملية الالتماهي مع «النفس». تقول القديسة تيريزيا الأفيلية بأن الله منحها، قرابة نهاية حياتها، نعمة استثنائية. لم تستخدم بالتأكيد المصطلح الحديث هذا، ولكن ما يُستنتج من كلامها هو نعمة الالتماهي مع نفسها. لو كان ثقة شخص آخر مصاب بالسرطان، لا أعرف مثل هذا الشخص بالتأكيد، فلن أكون متأثراً على الإطلاق. لو أنني أحبته وأمتلك رهافة حس ما، لربما قدّدت له يد المساعدة، إلا أنني لن أتأثر على المستوى العاطفي، لو كان لدى أحدكم امتحان ما، فإني لن أتأثر بالمرّة. بل لربما أكون فيلسوفاً فأقول له: «حسناً، كلما قلقت أكثر، ازداد الأمر سوءاً. لم لا تأخذ استراحة عوضاً من الدراسة؟» إلا أنه عندما يحين دوري في التقدم للامتحان، فذلك أمر آخر، اليس كذلك؟ والسبب هو أنني تماهيت مع «نفسي» - مع عائلتي، بلدي، ممتلكاتي، جسدي، نفسي. ما الذي سيكون الأمر عليه لو أن الله منحني نعمة أن لا أدعق هذه الأشياء ملكاً لي؟ سأكون منفصلاً، سأكون لامتماهياً. هذا ما يعنيه فقدان النفس، إنكار الذات، أن تموت عن نفسك.

التدين الجيد هو نقيض اللاوعي

أذاني أحدهم ذات مرة في مؤتمر وسألني: «ما رأيك في سيّدة فاتيما؟». عندما يُطرح عليّ هذا النوع من الأسئلة، تحضّرني تلك القصة. عندما كانوا ينقلون تمثال سيّدة فاتيما على متن طائرة من أجل رحلة حج. فقيما كانت الطائرة فوق جنوب فرنسا أخذت بالتمايل والاهتزاز وبدأ أنها ستتحطم. عندها صاح التمثال العجائبي: «يا سيّدة لورد صلي لأجلنا!». وجرى كل شيء بشكل حسن. أليس هذا رائعاً، «سيّدتنا» تساعد «سيّدتنا» أخرى؟

ثقة أيضاً قصة تلك المجموعة من آلاف الأشخاص التي ذهبت في حجّ إلى مكسيكو لتبجيل مزار سيّدة غوادالوبي، وجلسوا أمام التمثال معترضين على إعلان الأسقف لسيّدة لورد شفيعاً للأبرشيّة كانوا متأكدين من أنّ سيّدة غوادالوبي تأثرت بما حصل، لذا كانوا يقومون بالاعتراض كتهويض عن الإهانة التي لحقت بها. هذه هي مشكلة التدين إن لم تنتبهوا.

عندما أكلم الهندوس، أقول لهم: «لن يكون كهنتكم سعداء لسماع هذا» (لاحظوا مدي حصافتي هذا الصباح)، «لكن، وفقاً ليسوع المسيح، فإنّ الله سيكون أشدّ سعادة إن تغيّرتم، ممّا لو عديتم. سيكون أشدّ سروراً بحبّكم منه بعبادتكم». وعندما أكلم المسلمين، فإنّي أقول: «لن يكون الملالي وآيات الله سعداء لسماع هذا، إلا أنّ الله سيكون بالتأكيد أشدّ سعادة لتحوّلكم إلى أشخاص محبّين من تردادكم عبارة الله، الله». أن تكونوا واعين، ذلك أشدّ أهقيّة بشكل لا محدود. هذه هي الروحانيّة، هذا هو كل شيء. إن امتلكتكم هذا، حظيتم بالله: عندها تعبدون «بالروح والحق». عندما تصبحون الحب، عندما تتحوّلون إلى الحب، يمكن أن تلخص بلطف الخطر الذي يمكن أن يتسبّب به التدين، في هذه القصة التي يروها الكاردينال مارتنيني، رئيس أساقفة ميلانو. تحكي القصة عن زوج إيطالي بهمّ بالزواج. كان العروسان قد رتباً اتفاقاً مع كاهن الرعيّة ليحفظوا بحفل استقبال بسيط في ساحة الأبرشيّة خارج الكنيسة. ولكن، هطل المطر، ولم يتمكّنوا من إقامة حفل الاستقبال، لذا قالوا للكاهن: «أتمنّع إن أقمنا الاحتفال داخل الكنيسة؟».

لم يكن الكاهن مسروراً على الإطلاق لفكرة إقامة حفل استقبال في الكنيسة، إلا أنّهما قالاه: «سأكل قطعة صغيرة من الكعك، ونفلي أغنية صغيرة، ونشرب جرعة صغيرة من النبيذ، ثمّ نعود إلى منازلنا». فافتنع الكاهن. ولكن بما أنّهم إيطاليون محبّون للحياة، فقد شربوا جرعة صغيرة من النبيذ، غنّوا أغنية صغيرة، ثمّ شربوا ثانية جرعة صغيرة أخرى من النبيذ، وأنشدوا مزيداً من الأغنيات، وبعد نصف ساعة كانت الكنيسة تشهد احتفالاً كبيراً. وحظي الجميع بوقت رائع، مرح ومزاح كثيرين. إلا أنّ الكاهن كان في غاية التوتر.

يزرع السكرستيا حبيثة وذهاباً، منزعاً من الضجيج الصادر عن الحضور.
حضر الكاهن المساعد وقال: «أرى أنك منفعِل للغاية».

«بالتأكيد أنا منفعِل. أصغِ إلى كل هذا الضجيج، في بيت الرب! بحق الله!».

«حسن أبت، تعلم بأنه لم يكن لديهم أي مكان آخر يذهبون إليه».

«أعرف ذلك! ولكن هل كان عليهم التسيّب بكل هذه الجلبة؟».

«حسن، يجب ألا ننسى، ليس كذلك يا أبت، أن يسوع نفسه كان ذات مرّة
حاضراً في عرس!».

قال الكاهن: «أعرف أن يسوع كان حاضراً في مأدبة عرس، لست مضطراً إلى
إخباري بذلك! ولكن القربان المقدس لم يكن موجوداً هناك!!!».

اتعلمون؟ ثقة أوقات مثل هذه يصبح فيها القربان المقدس أشد أهمية من
يسوع المسيح ذاته. تُصبح العبادة أهم من الحب، تُصبح الكنيسة أهم من
الحياة. عندها يُصبح الله أشد أهمية من القريب. وهلمّ جزاً. هذا هو الخطر
في نظري، إن هذا ما كان يسوع يدعونا إليه: عمل الأشياء الأهم أولاً الإنسان
أهم بكثير من السبت. إن قمتم بما أقوله لكم، أي أن تصيروا ما أشير عليكم
أن تصيروا، فذاك أهم بكثير من الله. ولكن مشايحكم لن يكونوا سعداء
لسماع ذلك، أوكد لكم. كهنتمكم كذلك لن يكونوا سعداء لسماعهم ذلك. ليس
بشكل إجمالي. هذا هو إذا ما كنّا نتكلم عليه: الروحانية، الاستيقاظ. وكما
أخبرتكم، إن أردتم الاستيقاظ، فإنه لمن الأهمية بمكان المضي فيما دعوته
«المراقبة الذاتية». كونوا واعين لما تقولونه، كونوا واعين لما تفعلونه، كونوا
واعين لما تفكرون فيه، كونوا واعين لطريقة تصرفكم. كونوا واعين للمكان
الذي تأتون منه، للأشياء التي تحفزكم. الحياة غير الواعية لا تستحق أن
تُعاش.

الحياة غير الواعية هي حياة ميكانيكية، غير بشرية، مبرمجة، مكيفة. ربّما
نكون كالحجارة، كقطع من الخشب. في الريف الذي أتيت منه، هنالك مئات
الآلاف من الأشخاص الذين يعيشون في أكواخ صغيرة، في فقر مدقع،
يتمكنون بالكاد من البقاء على قيد الحياة، يعملون طوال النهار، عملاً بدوياً
قاسياً، ينامون ثم يستيقظون في الصباح، يأكلوا شيئاً ما، ويبدووا ثانية.
ويجلس المرء مفتكراً: «ما هذه الحياة؟». «أهذا كل ما تحتفظ به الحياة من
أجلهم؟». ثم تصدمون فجأة عندما تدركون أن ما نسبته ٩٩.٩٩% من
الحاضرين هاهنا ليسوا في الواقع بحال أفضل. قد يكون بإمكانكم الذهاب
إلى السهول، التجول في سيارتكم، حتى إنه بإمكانكم الذهاب في رحلات
بحرية. انظنّون أنكم أفضل بكثير منهم؟ أنتم أموات مثلهم تماماً. التبن
مثلهم بالضبط - ربّما كنتم التبن بقياس أكبر، إلا أنكم التبن على كل حال.

هذا مُحزن. من المحزن حقًا رؤية الناس تمضي في حياة كهذه.

يمضي الناس في الحياة بأفكار ثابتة لا تتغير مطلقًا. إنهم ليسوا واعين لما يجري. قد يكونون هم أيضًا قطعة من الخشب، أو الصخر، آلات تتكلم، تمشي وتفكر. ليس ذلك إنساني. إنهم دُمى تهتز حول مختلف أنواع الأشياء. إضغطوا زرًا فتحصلوا على رد فعل. حتى ليكاد بإمكانكم توقع رد فعل هذا الشخص أو ذاك. إن درست شخصًا ما، فإنه بإمكانني إطلاعكم على رد فعله بالضبط. يمكنني في مجموعات العلاج التي أديرها أن أكتب في بعض الأحيان على قطعة من الورق أن فلانًا وفلانًا سيبدآن الجلسة، وفلانًا وفلانًا سيبدآن. أنظري أن هذا سيبي؟ حسنًا، لا تنصت لمن يقول لك: «إنس ذاتك! إمض في حب الآخرين». لا تنصت لهم! جميعهم مخطئون، فأسوأ ما يمكنك فعله هو أن تنجيه إلى الآخرين بموقف المساعدة ذلك.

لقد انتهت إلى ذلك بشكل قسري منذ بضع سنوات عندما كنت أقوم بدراساتي في علم النفس بشيكاغو. كنا نقوم بدورة دراسية عن المشورة النفسية للكهنة. كانت تلك الدورة متاحة فقط للكهنة العاملين فعليًا في مجال المشورة وتقديم النصيحة، والذين وافقوا على جلب إحدى جلساتهم المسجلة إلى الصف. كنا حوالي العشرين كاهنًا. وعندما أتى دوري، جلبت شريطًا عليه مقابلة سبق أن أجريتها مع امرأة شابة. وضعه الأستاذ في المسجلة وأخذنا جميعًا نستمع إليه. بعد خمس دقائق، وجرئًا على عاداته، أوقف الأستاذ الشريط وسأل: «هل من تعليق؟» قال لي أحدهم: «لم طرح هذا السؤال؟». فقلت: «لا أذكر أنني طرحته عليها هذا السؤال. في الواقع لست أذكر أنني طرحته أي سؤال». قال: «بلى لقد فعلت». كنت متأكدًا من ذلك، لأنني، وفي ذلك الوقت، كنت أتبع وبشكل واضح منهج كارل روجرز، أي السرد الحر وغير الموجه. لا تطرح أسئلة، ولا تقاطع أو تعط نصيحة. لذا كنت أعني أنني لم أفهم حقًا بطرح أي سؤال. في كل الأحوال، فقد حدث جدال بيننا فقال الأستاذ: «لم لا نعيد تشغيل الشريط؟». لذا أعدنا تشغيله وهناك ويا للرعب، كان ثقة سؤال ضخم وهائل، بطول ميني الإمبراطور ستايت، سؤال ضخم. وما كان مثيرًا للاهتمام في عيني هو أنه سبق لي أن سمعت هذا السؤال ثلاث مرات على الأقل. المرة الأولى، على ما أذكر، كانت عندما طرحته، والمرة الثانية عندما سمعت الشريط في غرفتي (لأنني أردت أن أخذ إلى الصف شريطًا جيدًا)، والمرة الثالثة عندما سمعته في الصف. إلا أنني لم ألحظ ذلك! لم أكن واعيًا.

غالبًا ما يحدث لي ذلك في جلساتي العلاجية أو في الإرشادات الروحية. أسجل المقابلة على شريط، وعندما يستمع إليه الزبون، يقول: «أنا أعلم، لم أسمع حقًا ما قلته أثناء المقابلة. لقد سمعته فقط عندما شغلت الشريط». والأشد إثارة للاهتمام أنني لم أسمع ما قلته أنا أثناء المقابلة. إنه لمن المروّع اكتشاف أنني أقول في جلسة العلاج أمورًا لا أعنيها. لا يتضح لي كامل فحواها إلا في وقت لاحق. أتدعون هذا إنسانيًا؟ وتقولون: «إنس نفسك وانطلق نحو

الآخرين»

وعلى كل حال، فبعد أن استمعنا إلى الشريط كاملاً، هناك في شيكاغو، قال الأستاذ: «هل من تعليق؟». قال لي أحد الكهنة الذين كنت أستلطفهم، وهو في الخمسين من عمره: «طوني، أود أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً. أتقبل ذلك؟». قلت: «نعم، هات سؤالك، وإن لم أرد الإجابة عنه، فلي أفل». قال: «هل المرأة التي قابلتها جميلة؟».

انعلمون، وبكل صدق، كنت في مرحلة من مراحل تطوري أو لنقل (لاتطوري) بحيث لم ألاحظ كون أحدها جميلة أم لا. لم يكن ذلك مهماً في نظري. كانت أحد خراف قطيع المسيح؛ وكنت راعياً. قدّمت المساعدة المطلوبة. اليس هذا رائعاً؟ كانت تلك هي الطريقة التي تمّ تدريبنا عليها. لذا قلت له: «ما علاقة ذلك بالموضوع؟». أجابني: «لأنك لا تستلطفها، اليس كذلك؟». قلت: «ماذا؟». لم يسبق لي أن لاحظت أنني أستلطف أو لا أستلطف الأفراد. كان لدي، مثل كل الناس، عدم استلطف عرضي سُجّل في لاوعيي، أما موقفي فكان محايداً تقريباً. سألته: «ما الذي يدفعك إلى هذا القول؟». فقال: «الشريط». استمعنا إلى الشريط مجدداً. فقال: «أصغ إلى صوتك، ولا حظ كيف صار حلواً. أنت غاضب، اليس كذلك؟». كنت كذلك بالفعل، ولقد وعيت ذلك لحظتها. وما تُراني قلت لها، وإن يكن ذلك بشكل غير مباشر؟ قلت: «لا تعودي ثانية». غير أنني لم أع ذلك. قال صديقي الكاهن: «إنها امرأة، ولا بد من أنها فهمت ذلك. ما هو الموعد المقبل لك معها؟». قلت: «الأربعاء القادم». قال: «أغلب الظن أنها لن تحضر». وهي لم تحضر بالفعل. انتظرت أسبوعاً ولم تحضر؛ انتظرت أسبوعاً آخر ولم تحضر. ثم اتصلت بها؛ لقد كسرت واحدة من قواعدني: ألا أكون المنقذ.

إنصت بها قائلاً: «أتذكرين ذلك الشريط الذي سمحت لي بتسجيله من أجل الصّف؟ لقد كان مفيداً للغاية لأن زملائي لفتوا نظري إلى كثير من الأشياء» (لم أقل لها إلاّ لفتوا نظري!). «لقد جعل ذلك، بشكل أو بآخر، جلستنا أشد فاعلية. لذا، إن كنت تودين الحضور، فذلك سيجعلها أشد فاعلية». فقالت: «حسناً، سأتي». وقد فعلت. ما زال عدم الاستلطف موجوداً. لم يخف، إلاّ أنّه لم يعد يفترض طريقنا. يمكنكم التحكم بما تعونه؛ وما لا تعونه يتحكم بكم. أنتم على الدوام عبيد لما لا تعونه. وعندما تعونه تتحرّرون منه. يظل حاضراً، لكنكم لا تتأثرون به. لا يتحكم بكم؛ لا يستعبدكم. هذا هو الفرق.

الوعي، الوعي، الوعي، الوعي. ما تمّ تدريبنا على فعله في تلك الدورة هو أن نصبح مراقبين مشاركين. لأصوّر لكم ذلك، فإنه يمكن القول بأنني أستطيع التحدث إليكم، والتواجد في الوقت ذاته لمراقبتكم ومراقبة نفسي. عندما أستمع إليكم، فإن الإصغاء لنفسي أهمّ بما لا يُقاس بالنسبة إلي من الإصغاء إليكم. من المؤكد أن الإصغاء إليكم مهم، ولكن الإصغاء إلي نفسي هو أهم. وإلاّ فلن أتمكن من سماعكم. سأشوه كل ما تقولونه. سأقبل إليكم انطلاقاً من

ظروفي الشخصية. ستكون ردود أفعالي بجميع أشكالها متأثرة من عدم الأمان الذي أحسّه، من حاجتي إلى التلاعب بكم، من رغبتي في النجاح، من تأثيراتي ومشاعري التي قد لا أعياها. لذا، فمن المهم بشكل مرعب أن أصغي إلى نفسي فيما أصغي إليكم. هذا ما كانوا يدربونا على القيام به: بلوغ الوعي.

لا يتوجب عليك، للقيام بذلك، تحيّل نفسك متوجّحًا على الدوام في مكان ما في الهواء. ولتحصلوا على فكرة ملموسة عما أقوله، أقول بأن تتخيّلوا سائقًا جيّدًا يقود سيارته، إلا أنه يركّز على ما تقولونه في الوقت نفسه. في الواقع، قد يكون منخرطًا في جدال معكم، إلا أنه واع تمامًا لإشارات الطريق. وفي اللحظة التي يحدث فيها أي شيء غير مؤاتٍ، في اللحظة التي يصدر فيها أي صوت، أو ضجّة، فإنه يسمعها، ويقول: «هل أنت متأكد من كونك قد أغلقت ذلك الباب هناك؟». كيف له أن يفعل ذلك؟ لقد كان واعيًا، لقد كان منتبهًا. لقد كان انتباهه مرّكّزًا على الحوار، أو الجدال الدائر، أمّا وعيه فكان أشدّ انتشارًا. لقد كان مهتمًا بأنواع الأشياء كافة.

ما أدافع عنه هنا ليس التركيز، فهذا ليس مهمًا. تقوم العديد من التقنيات التأملية بفرض التركيز في الذهن، إلا أنني حذر تجاه ذلك. لأنها تتضمن عتقًا وغالبًا ما تتضمن المزيد من البرمجة والتكييف. ما أدافع عنه هنا هو الوعي، وهو أمر مختلف تمامًا عن التركيز. التركيز هو بقعة ضوء، هو مصباح ضوء. تكونون منفتحين لكل ما يقع ضمن نطاق إدراككم. يمكنكم أن تنشئوا عن ذلك، ولكن عندما تمارسون الوعي، لن تنشئوا مطلقًا. عندما يعمل الوعي، فلن يحدث أيّ تشبّت على الإطلاق، لأنكم ستكونون واعين على الدوام لكل ما يكون.

لنقل بأنني أنظر إلى تلك الأشجار وأنا قلق. هل أنا مشبّت؟ ساكون مشبّتًا فقط إن تعقّدت التركيز على الأشجار. ولكن، إن كنت أعني قلقي، فذلك ليس بتشبّت على الإطلاق. كونوا واعين فقط لما يجتذب انتباهكم. عندما تُخفق مخططاتكم، أو يحدث لكم أي شيء غير مؤاتٍ، ستنتبهون على الفور. خطأ ما يحدث في اللحظة التي تنسرب فيها أي مشاعر سلبية إلى وعيكم، ستنتبهون لها. تكونون مثل سائق السيارة.

أخبرتكم أنّ القديسة تيريزيا الأفيلية قالت بأنّ الله منحها نعمة اللاتماهي مع نفسها. تسمعون الأطفال يتكلمون بهذه الطريقة. فيقول الطفل تومي ذو السنّين: «لقد حصل تومي على قطوره هذا الصباح». لا يقول «أنا»، مع أنّه هو تومي. يقول «تومي» - بصيغة المفرد الغالب. يشعر المتصوّفون بهذا. إنهم لا ملّماهون مع أنفسهم لذلك هم في سلام.

هذه هي النعمة التي كانت تتحدّث عنها القديسة تيريزيا. هذه هي «أنا» التي يحثنا المعلمون المتصوّفون الشرقيون باستمرار على اكتشافها. وكذلك

الفريثيون! يمكنكم أن تعدّوا ميستر إيكهارت Meister Eckhart واحداً منهم.
يبحثون الناس على اكتشاف الأنا.

التسميات

ليس المهم معرفة من أو ماهية «أنا». لن تتجحوا بذلك مطلقاً. لا كلمات لوصفها. الشيء المهم هنا هو التخلي عن التسميات. وكما يقول معلم الزن الياباني: «لا تبحث عن الحقيقة؛ تخل عن رأيك فقط». تخل عن نظرياتك؛ لا تبحث عن الحقيقة. ليست الحقيقة شيئاً تبحث عنه. إن تخليت عن عنادك، فستعرف. شيء مماثل يحدث هنا. إن تخليت عن تسمياتك، فستعرف. ما الذي أعنيه بالتسميات؟ إنها كل تسمية يمكنك توقعها فيما عدا الكائن البشري. أنا كائن بشري. هذه عبارة عادلة بما يكفي؛ لا تُفصح عن الكثير. ولكن عندما تقول: «أنا ناجح»، فهذا جنون. فالنجاح ليس جزءاً من الـ «أنا»؛ النجاح هو شيء يأتي ويذهب؛ قد يكون موجوداً اليوم ويختفي في الغد. هذا ليس الـ «أنا». وكذلك عندما تقول: «لقد كنت ناجحاً»، فإنك تقع في الخطأ بشكل مماثل؛ لقد اندفعت بسرعة نحو الظلمة، ماهيت نفسك مع النجاح. والأمر ذاته ينطبق على قولك: «أنا فاشل، محامٍ، رجل أعمال». أتعلم ما سيحدث لك إن تماهيت مع هذه الأشياء؟ ستنشئ بها، وستقلق من إمكانية تداعيها، ومن هنا تنبع معاناتك. هذا ما عينته سابقاً بقولي: «إن كنت تعاني، فهذا يعني أنك نائم». أتريد علامة على كونك نائماً؟ هالك إنك تعاني. فالمعاناة علامة على فقدانك التواصل مع الحقيقة. لقد منحت المعاناة ربما لتساعدك على فتح عينيك على الحقيقة، ربما لتتمكن من إدراك وجود كذبة ما، تماماً كما منحت الألم الجسدي لتدرك وجود مرض أو علة في مكان ما. تشير المعاناة إلى وجود كذبة ما في مكان ما. تحدث المعاناة عندما تصطدم بالواقع. عندما تصطدم أكاذيبك بالحقيقة، عندها تعاني. وإلا فلن يكون هنالك من معاناة.

العوائق أمام السعادة

سيبدو لكم ما أودّ قوله طناناً بعض الشيء، لكنّه حقيقي. لربّما تكون الدقائق القادمة هي الأهم في حياتكم. إن تمكّنتم من إدراك هذا فستكونون قد كشفتم سرّ الاستيقاظ. ستكونون سعداء إلى الأبد. لن تكونوا تعساء ثانية. لن يكون لأيّ شيء القدرة على إيدائكم ثانية. لا شيء، أنا أعني ما أقول. سيكون الأمر كما لو أنكم رميتم طلاءً أسود في الهواء؛ سيظلّ الهواء غير ملوّث. لن تلوّثوا الهواء بالطلاء الأسود مطلقاً. ومهما يحصل لكم، فستظلون غير ملوّثين. ستظلون في سلام. هناك كائنات بشرية تمكّنت من تحقيق ذلك، من أن يكونوا بشراً. وليس ذلك الهراء في أن يكونوا دُمى. لذا أتودّون أن تكونوا دُمى؟ تضغطون زراً فتتهبطون؛ أتودّون ذلك؟ ولكن إن رفضتم التماهي مع أيّ من تلك المسقييات، فستوقف معظم مخاوفكم.

سنحدّث في وقت لاحق عن الخوف من المرض أو الموت، ولكنكم عادةً ما تكونون قلقين حيال ما سيحدث لكم على الصعيد المهني. كان رجل أعمال متوسط، في جوالى الخامسة والخمسين من عمره، يرتشف الجعة في مشرب ما قائلًا: «آه، أنظر إلى زملائي في الصف، لقد نجحوا حقاً». ذلك الأحمق! ما الذي يعنيه بـ «نجحوا»؟ لقد ظهرت أسماؤهم على صفحات الجرائد. أتدعون ذلك نجاحاً؟ أحدهم رئيس مؤسسة؛ والآخر أصبح رئيس المحكمة العليا؛ وآخر أصبح هذا أو ذاك. إنهم قُرود، جميعهم.

من الذي يحدّد مفهوم النجاح؟ المجتمع الأبله هذا! إن هم المجتمع الرئيسي هو إبقاء المجتمع مريضاً! وكلّما أسرعتم إدراك ذلك، كان أفضل. كل واحد فيهم مريض. إنهم وحيدون، مخبولون. أنت فخورٌ بتروؤسك لبهارستان المجانين، مع أن ذلك لا يعني شيئاً؟ أن تكون رئيساً لمؤسسة ما أمرٌ لا علاقة له بالنجاح في الحياة. أن تمتلك ما لا كثيرًا، أيضًا، أمرٌ لا علاقة له بالنجاح في الحياة. تكون ناجحاً في حياتك فقط عندما تستيقظ! عندها لا يتوجّب عليك الاعتذار لأيّ كان، لا يتوجّب عليك تفسير أيّ شيء لأيّ كان، لا تبالي البتّة برأي أيّ كان فيك، أو ما يقوله أيّ كان عنك. لن يكون لديك أيّ مخاوف؛ ستكون سعيداً. هذا ما أدعوه بالنجاح. أمّا أن يكون لديك عمل جيّد، أو أن تكون مشهوراً، أو أن تمتلك سمعة ممتازة، فذلك كله لا علاقة له بالسعادة أو النجاح. على الإطلاق! ليس له أيّ علاقة على الإطلاق. كلّ ما كان يقلقه هو رأي أولاده به، رأي الجيران به، رأي زوجته به. توجّب عليه أن يكون مشهوراً. مجتمعنا وحضارتنا تزرع ذلك في رؤوسنا نهاراً وليلاً. الناس الذين نجحوا! فيم نجحوا؟ لقد نجحوا في جعل أنفسهم حمقى. لأنهم استهلكوا جل طاقتهم في الحصول على شيء لا قيمة له. إنهم مرعوبون ومرتبكون، إنهم دُمى حالهم حال البقيّة. انظروا إليهم وهم يختالون على خشبة المسرح.

أنظروا إلى مدى استيائهم فيما لو ظهرت بقعة على سترهم. أندعون ذلك نجاحاً؟ أنظروا إلى مدى انزعاجهم من احتمال عدم إعادة انتخابهم إلى ذلك المنصب. أندعون ذلك نجاحاً؟ إنهم موجهون، متلاعبون بهم. إنهم أشخاص غير سعداء. لا يستمتعون بالحياة. متوترون وقلقون باستمرار. أندعون ذلك إنسانياً؟ أتعلمون لم يحدث ذلك؟ لسبب واحد فقط: لأنهم متماهون مع تسمية ما. لقد تماهت «الأنا» مع أموالهم أو أعمالهم أو مهنتهم. هذا هو خطوهم.

هل سمعتم عن المحامي الذي تلقى فاتورة أتعاب السباك؟ فقال للسباك: «هيه، أتعالي بني بمائتي دولار عن الساعة! لا أتعاضى. أنا المحامي، مثل هذا المبلغ». قال السباك: «كذلك أنا، لم أكن أتعاضى مثل هذا المبلغ عندما كنت محامياً». يمكنكم أن تكونوا محامين أو سباكين أو رجال أعمال أو كهنة، لكن هذا لا يؤثر في «الأنا» الأساسية. إنه لا يؤثر فيكم. إن غيرت مهنتي غداً، فإن ذلك سيكون كتغيير ملابس. لن أتاثر. هل أنتم ملاسكم؟ هل أنتم أسماؤكم؟ هل أنتم مهنتكم؟ أوقفوا تماهيتكم معها. إنها تأتي وتذهب.

عندما تفهمون هذا حقاً، فما من قدر يمكنه التأثير فيكم. وما من تملق أو إطراء يمكنه التأثير فيكم. عندما يقول لك أحدهم: «أنت شخص عظيم»، فعلام يتكلم؟ إنه يتكلم على «نفسى»، لا على «الأنا». «الأنا» ليست عظيمة أو ضئيلة على الإطلاق. ليست «الأنا» ناجحة ولا حتى فاشلة. إنها ليست أيًا من هذه التسميات. إنها أشياء تأتي وتذهب؛ إنها أشياء تعتمد على المعايير التي يخلقها المجتمع. تعتمد على تكييفكم. تعتمد على مزاج الشخص الذي يكلمكم وقتها. لا تتعلق مطلقاً بـ «الأنا». ليست «الأنا» أيًا من هذه التسميات. غالباً ما تكون «النفس» أمانة، حمقاء، طفولية - حمقاء كبيرة. لذا، فعندما تقول لي: «أنت أحمق»، فما الجديد في ذلك؟ لقد عرفت هذا منذ سنين عدة! النفس المكيفة حمقاء - ما الذي توقعته؟ لقد عرفت هذا منذ سنين عدة! لم تنماهي مع الحمق؟ هذا سخيف! ليست هذه بالأنا، بل هي النفس.

أتريدون أن تكونوا سعداء؟ السعادة غير المتقطعة هي سعادة غير معللة. السعادة الحقيقية غير معللة. لا يمكنك أن تجعلني سعيداً. أنت لست سعادتي. تسألون الشخص المستنير: «لم أنت سعيد؟». فيجيبكم: «ولم لا أكون سعيداً؟»

السعادة هي حالتنا الطبيعية. السعادة هي الحالة الطبيعية لدى الأطفال الصغار، أولئك الذين يعيشون الملكوت إلى أن تلوثهم وتفسدهم حماقة المجتمع والحضارة. لا يتوجب عليكم فعل أي شيء للحصول على السعادة. فالسعادة ليست شيئاً يمكن الحصول عليه. أتعلمون سبب ذلك؟ لأننا نمتلكها مسبقاً. كيف لك أن تحصل على ما تملكه مسبقاً؟ ومن ثم، لم لا نختبرها إن كنا نمتلكها؟ لأنه يتوجب علينا ببساطة أن نتخلى عن شيء ما؛ يتوجب علينا أن نتخلى عن الأوهام. ليس عليكم إضافة أي شيء لتكونوا سعداء؛ بل

عليكم أن تتخلّوا عن شيء ما. الحياة سهلة، الحياة مُبهجة. إنها صعبة فقط على أوهامكم، طموحاتكم، طمعكم، رغباتكم الملحة. أنعلمون من أين تأتي هذه الأشياء؟ من التماهي مع مختلف أنواع المسقمات.

أربع خطوات من أجل الحكمة

أول ما ينبغي لكم عمله هو التواصل مع المشاعر السلبية التي قد لا تكون وجودها. كثير من الناس لديهم مشاعر سلبية لا يعون وجودها. كثير من الناس محبسون من دون أن يكونوا واعين لذلك. لا يدركون مدى إيجابهم إلا عندما يلتقون بالفرح. ليس بإمكاننا التعامل مع سرطان لم يتم اكتشافه بعد. ليس بإمكاننا التعامل مع سوس البذار في الحقل إن لم نغ وجوده أولاً. أول ما تحتاجون إليه هو أن تغوا مشاعركم السلبية وتدركوها. ما هي المشاعر السلبية؟ الكآبة على سبيل المثال. تشعرون بالكآبة والنكد. تشعرون بكراهية الذات أو عقدة الذنب. تشعرون بأن الحياة تأفهة، لا معنى لها؛ لديكم مشاعر مؤلمة، تشعرون بالعصبية والتوتر. تواصلوا أولاً مع هذه المشاعر.

الخطوة الثانية (هذا برنامج من أربع خطوات) هي في إدراك وجود هذه المشاعر فيكم أنتم، لا في واقعكم. هذا بديهي. ولكن، أنظن أن الناس يدركون هذه الحقيقة؟ لا يصدقونني. لديهم شهادات دكتوراه، إنهم رؤساء جامعات، وعلى الرغم من ذلك لا يفهمون هذا. لم يعلموني في المدرسة كيف أحيا، بل علموني كل ما عدا ذلك. وكما قال أحدهم: «حصلت على تعليم جيد للغاية. لقد استغرق الأمر سنوات لتخلص منه». هذا هو جوهر الروحانية: نسيان ما تعلمتموه. نسيان كل ذلك الهراء الذي لقنوكم إياه.

المشاعر السلبية فيكم أنتم، وليست في واقعكم. لذا، توقفوا عن محاولة تغيير الواقع. هذا جنون! توقفوا عن محاولة تغيير الشخص الآخر. ندد كل وقتنا وطاقتنا في محاولة تغيير الظروف الخارجية. نحاول تغيير أزواجنا، رؤسائنا، أصدقائنا، أعدائنا، وكل شخص آخر. لا يتوجب علينا تغيير أي شيء. المشاعر السلبية فيكم أنتم. ما من شخص على وجه الأرض يمتلك القدرة على جعلكم تغساء. ما من حدث على الأرض له القدرة على إزعاجكم أو أذيتكم. ما من حدث، ظرف، موقف أو شخص. ألم يخبركم أحد بهذا؟ يقولون لكم عكس ذلك. وهذا هو بالضبط سبب الفوضى التي تفرقون فيها حالياً. هذا هو سبب كونكم نياقاً. لا يخبرونكم بذلك مطلقاً. لكن هذا بديهي.

لنفترض أن هطول المطر قد أفسد عليكم نزهتكم. من الذي لديه مشاعر سلبية في هذه الحالة؟ المطر؟ أم أنتم؟ ما الذي يسبب المشاعر السلبية؟ المطر أم رد فعلكم؟ عندما يصدم أحدكم ركبتك بالطاولة، فإن الطاولة بخير. إذ إنها مشغولة بأن تكون ما صنعت لتكون: طاولة. الألم هو في ركبتك، لا في الطاولة. يحاول المتصوفون أن يخبرونا باستمرار بأن الواقع على ما يرام. الواقع ليس إشكالياً. فالمشاكل موجودة فقط في العقل البشري. وقد يمكننا أن نضيف: في العقل البشري، القبي والنائم. الواقع ليس إشكالياً. خذوا

الكائنات البشرية من هذا الكوكب وتستثمر الحياة، تستثمر الطبيعة بكل هنتتها وعنفها. أين تكمن المشكلة إذا؟ ما من مشكلة. أنتم تختلفون المشكلة، أنتم المشكلة. تماهيت مع «النفس» وهذه هي المشكلة. المشاعر كامنة فيكم، لا في الواقع.

الخطوة الثالثة: لا تتماهوا مطلقاً مع هذه المشاعر. إذ ليس لها أي علاقة بـ «الأنا». لا يمكنكم أن تعرفوا ذاتكم الأصلية من خلال هذه المشاعر. لا تقولوا: «أنا ضحيط». إن أردتم القول: «إنها (نفس) الضحيط». فهذا جيد. إن أردتم القول بأن الإحباط حاضر، فهذا حسن. إن أردتم القول بأن الاكتئاب حاضر، فهذا حسن. ولكن لا تقولوا: أنا مكتئب. إذ إنكم بذلك تعرفون أنفسكم من خلال هذا الشعور. هذا هو وهمكم: هذا هو خطؤكم. ثقة اكتئاب في الوقت الحالي، ثقة مشاعر استياء، دعوها كما هي، أتركوها وحيدة، ستمضي. كل شيء يمضي، كل شيء. ليس لإحباطاتكم ومخاوفكم أي علاقة بالسعادة. إنها مجرد اهتزازات البندول. إن بحثتم عن الارتدادات أو الاهتزازات، حضروا أنفسكم للإحباط. أتريدون مخدراً؟ جهزوا أنفسكم لأعراض الانسحاب. ستنتقلون من نهاية المطال الاهتزاز إلى النهاية المقابلة.

ليس لهذا أي علاقة بـ «الأنا»؛ ليس له أي علاقة بالسعادة. إنها «النفس». إن ذكرتم ذلك، إن رددتم ذلك لأنفسكم آلاف المرات، إن جربتم الخطوات الثلاث هذه آلاف المرات، فستتمكنون من ذلك. قد لا تحتاجون إلى فعل ذلك ثلاث مرات حتى. لا أعرف؛ ما من قاعدة لذلك. ولكن قوموا بذلك آلاف المرات، وستحققون أكبر اكتشافات حياتكم. فلنذهب إلى الجحيم مناجم الأسكا الذهبية تلك. ما الذي ستفعلونه بذلك الذهب؟ إن لم تكونوا سعداء، لن تتمكنوا من العيش. لذا، إن وجدتم الذهب، فما مدى أهمية ذلك؟ ستكون ملكاً؛ ستكون أميراً. ستكون حراً، غير مبالٍ بكونك مقبولا أم متهوداً. فليس لذلك فارق. نخبرنا علماء النفس عن أهمية إيجاد معنى للانتماء. هراء! لم قد ترغب في الانتماء إلى أي كان؟ لم يعد ذلك مهماً.

أخبرني صديق لي بأن هنالك قبيلة أفريقية عقوبتها الرئيسية هي النفي. لو تم طردك من نيويورك أو أي مكان تعيش فيه، فلن تموت. فكيف يموت إذا رجل القبيلة الأفريقي؟ لأنه يشارك في غباء البشرية المشترك. يظن أنه لن يعيش إن لم ينتم إلى مكان ما. إنه مختلف عن معظم الناس، أهو كذلك؟ إنه مقتنع بحاجة إلى الانتماء. لكنك لست بحاجة إلى الانتماء لأي كان أو لأي شيء أو لأي مجموعة. حتى إنك لا تحتاج إلى أن تقع في الحب. من قال إنك تحتاج إلى ذلك؟ ما تحتاج إليه هو أن تكون حراً. ما تحتاج إليه هو أن تحب. هذا هو الأمر؛ هذه هي طبيعتكم. ولكن ما تقولونه لي في الواقع هو أنكم تريدون أن تكونوا مرغوبين. تريدون أن يصفق لكم، أن تكونوا جذابين، أن يركض وراءكم كل أولئك القردة الصغار.

إنكم تهدرون حياتكم. إستيقظوا! لا تحتاجون إلى هذا. يمكنكم أن تكونوا

في منتهى السعادة من دونه.

لن يكون مجتمعكم سعيدًا بسماع هذا، لأنكم تصبحون مرعبين عندما تفتحون أعينكم وتفهمون هذا. إذ كيف يمكن التحكم بشخص كهذا؟ إنه لا يحتاج إليكم؛ لا تشعره انتقاداتكم بأنه مهذب. فهو لا يبالي بما تظنونه عنه أو بما تقولونه. لقد قطع كل تلك الأوتار؛ لم يعد دمية. هذا مرعب. «لذا ينبغي لنا التخلص منه. إنه يقول الحقيقة؛ لم يعد يخشى شيئًا؛ لم يعد إنسانًا». إنسانًا! لاحظوا! أخيرًا أصبح إنسانًا! لقد تحرر من عبوديته، لقد تحرر من سجنهم.

ما من حدث يهزّر الشعوب السليبي. ما من وضع في العالم يهزّر الشعوب السليبي. هذا ما بُحت أصوات متصوّفتنا في محاولاتها لإبصاله إلينا. ولكن ما من آخر يُصفي. الشعوب السليبي هو فيكم أنتم. في الباغداد - فيتا، الكتاب المقدس لدى الهندوس، يقول الإله كريشنا لأرجونا: «إفتح حرارة المعركة وضع قلبك على قدم الإله النقية». إنها عبارة رائعة.

لا ينبغي لكم فعل أي شيء للحصول على السعادة. يقول العظيم ميستر إيكهارت عبارة في غاية الجمال: «لا نحصل على الله من خلال عملية إضافة لما في روحنا، بل من خلال عملية استغناء». لا يتوجب عليكم إذا فعل أي شيء لتكونوا أحرارًا، بل أن تتخلوا عن شيء ما، عندها تصبحون أحرارًا.

يذكرني هذا بالسجين الإيرلندي الذي حفر نفقًا تحت جدران السجن فتمكن من الهرب. عندما خرج وجد نفسه وسط ساحة مدرسة حيث يلعب الأطفال بالطبع، فإنه عندما خرج لم يكن بإمكانه كبح جماح نفسه، فأخذ يقفز هنا وهناك صارخًا: «أنا حرّ، أنا حرّ، أنا حرّ». نظرت إليه فتاة صغيرة بازدراء وقالت: «ليس هذا بالشيء المهم، فأنا رقم أربعة».

الخطوة الرابعة: كيف يغيرون الأشياء؟ كيف يغيرون أنفسهم؟ هناك عدة أشياء ينبغي لكم فهمها هنا. أو بالحرى، شيء واحد فقط، ولكن يمكن التعبير عنه بطرق متعددة. تخيلوا مريضًا يزور الطبيب ويخبره عما يعاينيه. فيقول الطبيب: «حسن جدًا، لقد فهمت الأعراض التي تشكو منها. أتعرف ما الذي سأفعله؟ سأصف دواءً لجارك». فيجيب المريض: «شكرًا جزيلًا يا دكتور، فهذا يجعلني أشعر بالتحسن». اليس هذا سخيفًا؟ هذا ما نقوم به جميعًا. إذ غالبًا ما يظن الشخص النائم أنه سيشعر بالتحسن إن تغيّر آخر. تعاونون لكنكم نيام، لكنكم تفكرون، «كم ستكون الحياة رائعة لو تغيّر شخص آخر! كم ستكون الحياة رائعة لو تغيّر جاري، لو تغيّرت زوجتي، لو تغيّر مديري!».

نريد دومًا أن يتغيّر شخص آخر لنشعر بالتحسن. لكن، هل خطر على بالك يومًا أنه حتى ولو تغيّرت زوجتك أو تغيّر زوجك، فما علاقة ذلك بك؟ ستبقى هناك كما كنت في السابق؛ أحقق كما كنت في السابق؛ نالًا كما كنت في السابق. أنت من يحتاج إلى التغيير، إلى العلاج. تصرّ قائلاً: «أشعر بأني

على خير ما يرام لأنّ العالم على خير ما يرام». خطأ! العالم على خير ما يرام
لأنّي أنا على خير ما يرام. هذا ما يقوله كل المنتصوفة.

العالم على خير ما يرام

عندما تكونون مستيقظين، عندما تفهمون، عندما تزون، يصبح العالم بخير. غالبًا ما تزعجنا معضلة الشر. هنالك قصة معبرة عن صبي صغير كان يمشي على ضفة النهر. رأى الصبي تمساحًا عالقًا في شبكة. قال له التمساح: «هلا أشفقت علي وحزرتني؟ قد أبدو قبيحًا، لكنك ليس ذنبى كما تعلم. لقد خلقت بهذا الشكل. ولكن، مهما كان مظهرى الخارجى، فأني أمتلك قلب أم. لقد أتيت هذا الصباح بحثًا عن طعام لصغاري، فعلق في هذا الفخ». عندها قال الصبي: «آه، لو ساعدتك في الخروج من هذا الفخ، فسوف تختطفني وتقتلني». فأجاب التمساح: «أعتقد أنني قد أفعل ذلك لمن أحسن إلي وحزرتني؟». إقنع الصبي، فنزع الشبكة عن التمساح الذي لم يتردد في سحبه. وبينما كان الصبي يصارع بين فكي التمساح قال له: «أهذا ما أحصل عليه إذا جرأ عملي الطيب؟». أجاب التمساح: «حسنًا، لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، بني، هذا هو العالم، هذا هو قانون الحياة». جادل الصبي، فقال له التمساح: «أتريد أن تسأل أحدًا ما إن كان الأمر غير ذلك؟». رأى الصبي عصفورًا جالسًا على غصن فقال له: «أيها العصفور، أضحك ما يقوله التمساح؟». أجاب العصفور: «نعم، التمساح على حق. أنظر إلي. كنت ذات يوم أتيا إلى المنزل مع طعام لفراخي. تخيل مدى الرعب الذي عشته لدى رؤيتي ثعبانًا ينسلق الشجرة مباشرة إلى عشي. لقد كنت عديم الحيلة تمامًا. أخذ يكتهم صفاري واحدًا تلو الآخر. وظللت أضرخ وأصيح دونما فائدة. التمساح محق، هذا هو قانون الحياة، هذا هو مسار العالم». «أرايت»، قال التمساح. «لأن الصبي قال: «دعني أسأل شخصًا آخر». فأجاب التمساح: «حسنًا، امض قدمًا». كان حمارٌ عجوز يمر على ضفة النهر. «أيها الحمار» صاح الصبي، «هذا ما يقوله التمساح، فهل هو محق؟». قال الحمار: «التمساح محق إلى أبعد حد. أنظر إلي. عملت واستعبدت من قبل سيدي طوال حياتي وكان بالكاد يعطيني ما يستحقه. والآن وقد أصبحت عجوزًا وغير ذي فائدة، فقد أطلق سراحى، وها أنا ذا أتجول في الغابة، منتظرًا أن ينقض علي وحش بري، ويضع حدًا لحياتي. نعم، التمساح محق. هذا هو قانون الحياة، هذا هو مسار العالم». «أرايت» قال التمساح. «بريك!» قال الصبي، «أمنحتني فرصة أخرى، فرصة أخيرة. دعني أسأل كائنًا آخر. ألا تذكر كم كنت لطيفًا معك؟». فقال التمساح: «حسنًا، إنها فرصتك الأخيرة». رأى الصبي أرنبًا مازًا، فقال له: «أيها الأرنب، هل التمساح على حق؟». جلس الأرنب على عجزه وقال للتمساح: «أقلت هذا للصبي؟». فأجاب التمساح: «نعم، لقد فعلت». «انتظر لحظة»، قال الأرنب، «ينبغي لنا مناقشة ذلك». «نعم»، أجاب التمساح. «لأن الأرنب أضاف: «كيف لنا أن نتناقش فيما نضعه الصبي في فمك؟ حرره؟ إذ ينبغي له أن يشارك في النقاش هو الآخر». أجاب التمساح: «إنك ذكي حقًا. ففي اللحظة

التي أحزّره فيها، سيفزّ هاربًا. قال الأرنب: «اعتقدت أنك أذكى من ذلك، فلو حاول الهرب فإنّ ضربة واحدة من ذيلك ستقتله». «هذا عادل بالنسبة إليّ»، قال التمساح محذّرًا الصبي. وفي اللحظة التي تحزّر فيها الصبي، صاح الأرنب: «اهرب!». ففزّ الصبي. ثم قال الأرنب للصبي: «ألا تحب لحم التماسيح؟ لن يسزّ الناس في قريتك بوجبة شهية؟ أنت في الواقع لم تحزّر ذلك التمساح تمامًا، إذ ما يزال مُعظم جسمه عالًا في الشبكة. لم لا تذهب إلى القرية وتُجلب الجميع ليستمتعوا بالوليمة؟». وهذا ما فعله الولد بالضبط. فقد ذهب إلى القرية وناذى كلّ القوم، وهم أنّوا بدورهم حاملين فؤوسهم وهرأوانهم ورماحهم وقتلوا التمساح. حتّى إنّ كلب الصبي اتى هو الآخر. وعندما رآى الكلب الأرنب، طارده ونبتّه وخنقه. إنّبه الصبي متأخرًا إلى ما حدث. وبينما كان الأرنب يُحتضر قال: «لقد كان التمساح محقًا، هذا هو مسار العالم، هذا هو قانون الحياة».

ما من تفسير بمكنكم تقديمه لتفسير كلّ المعاناة والشّرّ والعذاب والدمار والجوع في العالم! لن تقدروا على تفسير ذلك مطلقًا. لن تفسّروا ذلك مطلقًا. يمكنكم أن تحاولوا ببسالة مع صيغكم، دياناتكم وطرق أخرى، إلّا أنّكم لن تتمكنوا مطلقًا من تفسيره. لأنّ الحياة لغز، ما يعني أنّ عقلكم المفكّر لن يتمكن من إيجاد معنى لكلّ ذلك. لهذا يتوجّب عليكم أن تستيقظوا، وعندها ستدركون فجأة أنّ الواقع ليس إشكاليًا، بل أنتم المشكلة.

السير نيامًا

تُلحِج النصوص المقدسة إلى ذلك باستمرار، إلا أنكم لن تتمكنوا من فهم كلمة مما تقوله النصوص المقدسة هذه إلى أن تستيقظوا. يقرأ الناس النيام الكتاب المقدس ويصليون المسيح وفقًا لأهوائهم. ينبغي أن تستيقظوا لو أردتم فهم النصوص المقدسة. عندما تستيقظون، يصبح لها معنى. وكذلك هو حال الواقع. لكنكم لن تتمكنوا مطلقًا من التعبير عن ذلك بالكلمات، أفضّلون العمل على التعبير؟ ولكن، حتى ولو كان الأمر كذلك، ينبغي لكم التأكد من أنكم لا تنتقلون إلى الفعل لمجرد التخلص من المشاعر السلبية. كثير من الناس ينتقلون إلى الفعل فقط، ليجعلوا الأمور أسوأ مما هي عليه. لا يأتون من الحب، بل من المشاعر السلبية. يأتون من شعور بالذنب، بالغضب، بالكراهية؛ من إحساسهم بالظلم أو ما إلى ذلك. يتوجب عليكم التأكد من «كيانكم» قبل الانتقال إلى الفعل. يجب أن تتأكدوا من ماهيتكم قبل أن تتصرفوا. للأسف، عندما ينتقل الناس النيام إلى الفعل، فإنهم يستبدلون قسوةً بأخرى، ظلمًا بأخر. وهكذا تمضي الأمور. يقول ميسنر إيكهارت: «لن تخلص بأفعالك (أو لن تستيقظ؛ سقوها ما شئتم)، بل بكيانك. لن تدان على أساس ما تفعله، بل على ما أنت عليه». هل الأعمال الجيدة في نظرك هي إطعام الجائع، سقاية العطشان، أم زيارة السجناء؟

تذكروا هذه العبارة للقديس بولس: «ولو فرقت جميع أموالى لإطعام المساكين، ولو أسلمت جسدي لبحرق، ولم تكن لي المحبة، فما يُجدي ذلك نفعًا؟». ليست أفعالكم ما يهم، بل كيانكم. عندها فقط قد تنتقلون إلى الفعل. قد تنتقلون وقد لا تنتقلون. لا يمكنكم أن تقرروا ذلك إلى أن تستيقظوا. للأسف، يتركز التوكيد كله على تغيير العالم والقليل منه يُعطى للاستيقاظ. عندما تستيقظون، ستعرفون ما ينبغي فعله أو عدم فعله. أتعرفون، إن بعض المتصوفة لقي غاية الفرابية. مثل يسوع الذي قال شيئًا من قبيل: «لم أرسل من أجل هؤلاء الناس، إني أجد نفسي بما يجب أن أعمله في الوقت الراهن. ربما فيما بعد». بعض المتصوفة يكتفون بالضمت، ويلجأ آخرون بشكل غريب إلى الفناء، فيما يثجه آخرون إلى الخدمة. لن تمتلك اليقين مطلقًا. إنهم قاتنون في ذاتهم، يعرفون تمامًا ما الذي ينبغي عمله. «أن أندفع إلى لهيب المعركة تاركًا قلبي على قدم الزب الخالدة». كما قلتُ في وقت سابق.

تخيل أنك لست على ما يرام وفي مزاج عكر، ويصحبك أحدهم في الزيف الجميل. الطبيعة من حولك جميلة، لكنك لست في مزاج يسمح لك برؤية أي شيء. نمر بعد بضعة أيام في المكان ذاته قائلاً: «يا إلهي، أين كنت، بحيث لم أتمكن من ملاحظة هذا الجمال؟» يصبح كل شيء جميلًا عندما تتغير، أو قد تنظر إلى الأشجار والجيال من خلال التأخذة المبيلة بمياه مطر العاصفة،

فيبدو لك كل شيء ضبابيًا ومشوشًا، بحيث تنتهي الخروج للتو وتغيير هذه الأشجار وتلك الجبال. أنتظر دقيقة، تفحص نافذتك. عندما تهدأ العاصفة، ويتوقف المطر، وتنتظر من خلال النافذة، فسوف تقول: «يا له من منظر مختلف!». إننا نرى الأشياء والأشخاص على غير ما تبدو عليه. هذا هو السبب الذي يجعل شخصين ينظران إلى الشيء أو الشخص ذاته، ويعطيانك رأيي فعل مختلفين. إننا نرى الأشياء والأشخاص على غير ما تبدو عليه، بل كما تبدو نحن.

أتذكرون هذه العبارة من الكتاب المقدس عن أن الأشياء كافة تصبح جيدة لأولئك الذين يحبون الله؟ عندما تستيقظون في النهاية، فإنكم لا تعودون بحاجة إلى عمل مجهود كي تحدث أمور جيدة، إنها تحدث وحسب. تفهمون فجأة أن كل ما يحدث لكم هو أمر جيد. فكروا في بعض الأشخاص الذين تعيشون معهم وتودون أن يتغيروا. تجدونهم مزاجيين، لا يراعون مشاعر الآخرين، لا يوثق بهم، غشاشين، أو مهما يكن أمرهم. ولكن عندما تكونون مختلفين، سيكونون بدورهم مختلفين. إنه علاج عجيب لا يمكن له أن يخطئ. في اليوم الذي تكونون فيه مختلفين، سيكونون هم أيضًا مختلفين. وسوف ترونهم بشكل مختلف أيضًا. الشخص الذي كان يبدو لكم مرعبًا، سيبدو لكم ساعتها مرعبًا. ومن كان يبدو لكم فظًا، سيبدو لكم ساعتها مرعبًا. فجأة، لن يعود بإمكان أي كان إيذاؤكم. لن يعود بإمكان أي كان الضغط عليكم. إنه شيء من قبيل: أن ينزك أحدكم كتابًا على الطاولة، فالتقطه وأقول له: «صحيح أنك تترك هذا الكتاب لي، إلا أنه يعود إلي، أنا فقط، أمر التقاطه من تركه». الناس منشغلون بآثام الآخرين، لوم الآخرين، لوم الحياة، لوم المجتمع، لوم الجيران. لن تتغيروا مطلقًا بهذه الطريقة؛ سوف تستمرون في رؤية كوابيسكم، لن تستيقظوا مطلقًا.

طبّقوا هذا البرنامج ألف مرة: ١- تعرّفوا على المشاعر السلبية الكامنة فيكم. ٢- افهموا أنها فيكم أنتم وليست في العالم. ٣- لا تنظروا إليها بصفاتها جزءًا أساسيًا من الـ «أنا»؛ فهذه الأشياء تأتي وتذهب. ٤- افهموا أنكم عندما تتغيرون، يتغير كل شيء.

التغيير بصفته طمعًا

يتركنا كل ذلك مع سؤال واحد كبير: هل يتوجب عليّ فعل شيء معين لكي أتغير؟

لدي هنا مفاجأة كبرى لكم، الكثير من الأخيار الجيدة لا يتوجب عليكم فعل شيء. كلما فعلتم أكثر، زدت الأمور سوءًا. كل ما عليكم عمله هو الفهم.

ليفتكر كل منكم في شخص يعيش معه أو يعمل معه ولا يستلطفه، شخص يتسبب في ظهور مشاعر سلبية. دعني أساعدك على فهم ما يجري هنا. أنت المسؤول عن المشاعر السلبية، لا الشخص الآخر. فأي شخص آخر في مكانك كان ليكون في غاية الهدوء والطمأنينة في حضرة هذا الشخص: لن يتأثر. أنت فقط تتأثر. إفهم الآن شيئًا آخر: لديك تطلب ما. تتوقع شيئًا ما من هذا الشخص: هل يمكنك إدراك ذلك؟ قل عندها لهذا الشخص: «لا أملك الحق في أن يكون لي أي متطلبات منك». ستسقطون، ساعتها، توقعاتكم. «لا أملك الحق في أن يكون لي أي متطلبات منك. أوه، ساحمي نفسي من نتائج أفعالك أو مزاجاتك أو مهما يكن الأمر، إلا أنه بإمكانك المضي قدمًا في أن تكون ما تختار أن تكونه. لا أملك الحق في أن يكون لي أي متطلبات منك».

راقبوا ما يحصل لكم عندما تقومون بذلك. إن كان ثقة مقاومة لقول ذلك، فيا إلهي، كم ستكتشفون عن «ذواتكم»! دعوا الدكتاتور فيكم يخرج، دعوا الطاغية يخرج. كنتم تظنون أن واحدكم ليس سوى حقل صغير، اليس كذلك؟ لكنني أنا نفسي طاغية، وكل واحد فيكم طاغية. تنوبعة صغيرة على عبارة «أنا أحقق، أنت أحمق». أنا دكتاتور، وكل واحد فيكم دكتاتور. أوه إدارة حياتك عنك؛ أود أن أقول لك ما يتوقع منك أن تكونه، وكيف يتوقع منك التصرف. وبخسبك التصرف كما قررت أنا عنك، وإلا فسأعاقب نفسي بالمشاعر السلبية. تذكروا ما سبق أن قلته لكم: الكل مجانيين.

أخبرتني امرأة بأن ابنها تلقى جائزة من مدرسته الثانوية، عن تفوقه الرياضي والأكاديمي. كانت سعيدة من أجله، إلا أنها كادت تقول له: «لا تُفأخر بهذه الجائزة، لأنها تُعذك للوقت الذي لا تعود فيه قادرًا على تقديم أداء بهذه الجودة». لقد كانت في مازق: كيف لها أن تتجنب خيبة أمله المستقبلية من دون أن تُشبط فورانه الحالي؟

نأمل أن يتعلم هو فيما تنمو هي في الحكمة. ليست قضية أي شيء تقوله، بل ما ستكونه في نهاية المطاف. عندها ستفهم، عندها ستعرف ماذا تقول ومتى تقوله. تلك الجائزة كانت نتيجة لمنافسة يمكنها أن تكون قاسية فيما

لو كانت مبنية على رفض الذات والآخرين. يحصل الناس على شعور جيد على أساس أن أحداً آخر سيحصل على الشعور السيئ؛ إنك تفوز على شخص آخر. اليس ذلك فظيهاً؟ إنه شيء مضمون في بهارستان المجانيين.

كتب طبيب أميركي عن أثر المنافسة في حياته. لقد ذهب إلى كلية الطب في سويسرا حيث تواجدت مجموعة كبيرة من الأميركيين الموفدين إلى تلك الكلية. يقول إن بعض الطلاب أصيبوا بالصدمة عندما أدركوا أنه ما من درجات، ما من مكافآت، ما من لائحة شرف، ما من أول وثان في الصف. إما أن تنجح أو لا تنجح. يقول: «بعضنا لم يتمكن من احتمال ذلك. لقد أصبنا بالغصاب تقريباً؛ اعتقدنا أنه لا بد من وجود خدعة ما». لذلك انتقل بعضهم إلى جامعة أخرى، وأولئك الذين صمدوا اكتشفوا فجأة شيئاً غريباً لم يسبق لهم ملاحظته في الجامعات الأميركية من قبل: أن الطلاب، وخاصة المتفوقين منهم، يساعدون الآخرين لينجحوا، يتشاركون ملاحظاتهم. في ما بعد، ذهب ابن ذلك الطبيب إلى كلية طبية في الولايات المتحدة الأميركية، وأخبره بأنه غالباً ما يعيث الطلاب في المختبر بجهاز التكبير، بحيث يحتاج الطالب التالي إلى ثلاث دقائق أو أربع من وقته لإعادة ضبطه. إنها المنافسة عليهم النجاح، عليهم أن يكونوا كاملين. كذلك فإنه روى قصة صغيرة ولطيفة يزعم أنها واقعية: إلا أنها يمكن أن تكون مثلاً جميلاً في الوقت عينه. ففي بلدة صغيرة بأميركا، حيث يجتمع الناس في فترة ما بعد الظهر لعزف الموسيقى، كان لديهم عازف ساكسفون، عازف طبول وعازف كمان، غالبيتهم من كبار السن. كانوا يجتمعون من أجل الصحة والمتعة الموسيقية المحضة، على الرغم من أنهم لم يكونوا ينتقون حقاً ما يفعلون. لقد كانوا إذا يمتنعون أنفسهم، ويحظون بوقت جيد، إلى أن قرروا في أحد الأيام الحصول على قائد جديد لديه قدر كبير من الطموح والاندفاع. قال لهم القائد الجديد: «أيها الرفقاء، علينا إقامة حفل؛ يجب أن نحضر حفلاً للبلدة». ثم أخذ يتخلص تدريجياً من بعض الأشخاص الذين لا ينتقون العزف، ويوظف بعض الموسيقيين المحترفين، إلى أن شكل الأوركسترا، وظهرت أسماءهم جميعاً في الصحف. ألم يكن ذلك رائعاً؟ لذلك قرروا في ما بعد الانتقال إلى المدينة الكبيرة والعزف هناك. إلا أن أعين بعض العازز اغرورقت بالدموع، وقد قالوا: «لقد كانت الأمور رائعة فيما مضى، عندما كنا نعزف بشكل سيئ ونستمع على الرغم من ذلك». لقد اقتحمت القسوة حياتهم، لكن أحداً لم يلحظ أنها قسوة. رأيتهم إلى أي حد بلغ الجنون بالناس؟

يسألني بعضكم عما عنيته بقولي: «إمض وكن نفسك، هذا صحيح، لكنني سأحمي نفسي، سأكون نفسي». بكلمات أخرى، لن أسمح لك بالتلاعب بي. سأعيش حياتي؛ سأمضي في طريقي؛ سأدع لنفسي حرية أن تحظى بأفكارها الخاصة؛ أن تتبع أهواءها وأذواقها. وسأقول لك لا. وإن شعرت بأنني لا أود أن أكون بصحبتك، فلن يكون ذلك بسبب أي مشاعر سلبية سببتها في. لأنك لم تعد تفعل ذلك. لم تعد لك أي سلطة علي بعد اليوم. قد أكون، وبكل بساطة، قد فضلت صحبة أناس آخرين. لذا فعندما تسألني: «ماذا عن الذهاب

لمشاهدة فيلم ما الليلة؟» سأقول: «أسف، أفضل الذهاب مع أحد سواك
سأستمع بصحبته أكثر». وهذا أمر حسن، أن تقولوا لا للناس - إنه أمر رائع؛
إنه جزء من عملية الاستيقاظ. جزء من عملية الاستيقاظ أن تعيش حياتك
كما يلائمك. وأفهموا أمراً: هذه ليست أنانية. الأنانية هي أن تطلب من
شخص آخر أن يعيش كما يلائمك أنت. تكمن الأنانية في الطلب من أحدهم
أن يعيش حياته بالشكل الذي يلائم ذوقك، أو كبرياءك أو مصالحتك، أو
سعادتك. هذه أنانية بحق. لذا سأحمي نفسي. لن أشعر بأنني مجبر على
صحبتك؛ لن أشعر بأنني مجبر على أن أقول لك نعم. إن وجدت صحبتك
ممتعة، فسأستمع بها من دون أن أتشبث بها. إلا أنني لن أنحاشاك بعد اليوم
بسبب المشاعر السلبية التي تخلقها في. لم تعد لديك تلك القدرة بعد اليوم.

ينبغي أن يكون الاستيقاظ مفاجأة. عندما لا تتوقع حدوث شيء ما ويحدث،
فإنك تشعر بالمفاجأة. عندما قامت زوجة السيد ويبستر بضبطه وهو يقبل
الخدمة، أخبرته بأنها فوجئت كثيراً. حسناً، كان ويبستر متمسكاً بالاستخدام
الدقيق للكلمات (يمكن فهم ذلك، على اعتبار أنه ألف قاموساً يحمل اسمه)،
فإنه أجابها: «لا يا عزيزتي، أنا من فوجئ، أما أنت فقد ذهلت!».

يجعل بعض الناس الاستيقاظ هدفاً لهم. إنهم عازمون على تحقيق هذا
الهدف؛ يقولون: «أرفض أن أكون سعيداً، ما لم أستيقظ». في هذه الحالة، من
الأفضل أن تبغوا على حالكم. الوعي ببساطة، هو الشهادة مقارنة بالمحاولة
المستمرة للرد طوال الوقت. يرد الناس بسرعة بالغة، لأنهم غير واعين. سوف
تتمكنون في النهاية من فهم أن هناك أوقاتاً لن يكون بإمكانكم أن تتجنبوا
الرد، حتى في حالة الوعي. ولكن، فيما ينمو الوعي، فإنكم تردون أقل من ذي
قبل وتفعلون أكثر. إن ذلك في الحقيقة غير ذي أهمية.

هنالك قصة عن تلميذ أطلع مرشده على نيته الذهاب إلى مكان بعيد للتأمل
على أمل الوصول إلى الاستنارة. لذلك فقد كان يرسل ملاحظة إلى مرشده
كل ستة أشهر ليطلعه على التطور الذي يحرزه. قال في التقرير الأول: «أفهم
الآن ما يعنيه فقدان الذات». كور المرشد الورقة، وألقاها في سلة القمامة. بعد
سنة أشهر، تلقى تقريراً آخر يقول: «لقد حصلت الآن على حساسية تجاه
المخلوقات كافة». كورها وألقاها. ثم قال التقرير الثالث: «أفهم الآن سر
الواحد والكثرة». فكان نصيبه التكوير هو الآخر. وهكذا جرت الأمور طيلة
سنوات، إلى أن توقفت التقارير عن الوصول أخيراً. بعد فترة أصيب المرشد
بالفضول، إلى أن صادف ذات يوم مسافراً متحلاً إلى البقعة البعيدة تلك. قال
له المرشد: «لم لا ترى ما الذي حصل لذلك التابع؟». أخيراً، تلقى ملاحظة من
تلميذه كانت تقول: «ما هم في كل ذلك؟». عندما قراها المرشد، قال: «لقد
فعلها! لقد فعلها! لقد وصل أخيراً! لقد حصل عليها!».

كذلك هنالك قصة عن جندي في ساحة المعركة، ألقى بندقيته على الأرض
ببساطة، والتقط قصاصة ورق وجدها هناك، نظر إليها ثم تركها لتخت على

الأرض. ثم انتقل إلى مكان آخر وفعل الشيء ذاته. عندها قال الآخرون: «هذا الرجل يعرض نفسه للموت. إنه بحاجة إلى المساعدة». لذا، فقد وضعوه في المستشفى ليعالجه الطبيب النفسي. لكن بدا أنه لم يكن لذلك من تأثير فيه. كان يتجول في العنابر ملتقطاً قصاصات الورق، ناظرًا إليها بتراخ، تاركًا إياها في ما بعد وهي تخط ببطء على الأرض. قالوا في النهاية: «يتبقى تسريح هذا الرجل من الجيش». فاستدعوه، ومنحوه وثيقة تسريح التفتلها بدوره بتراخ، نظر إليها، وصرخ: «أهذه هي؟ نعم هي ذي». لقد حصل عليها أخيرًا.

لذا، ابدؤوا بوعي وضعكم الراهن مهما يكن. كفوا عن أن تكونوا دكتاتورًا. توقفوا عن دفع أنفسكم إلى مكان آخر. عندها، ستفهمون يومًا ما، وببساطة، أنكم قد حققتم من خلال الوعي ما كنتم تدفعون أنفسكم دفعًا لتحقيقه.

شخص متغير

لا تكونوا منتظرين في سعيكم نحو الوعي. إنه شيء من قبيل احترام قواعد المرور. إن لم تحترموا قواعد المرور فستدفعون الغرامة. هنا في الولايات المتحدة الأميركية، تقودون على الجانب الأيمن من الطريق؛ في إنكلترا ستقودون على الجانب الأيسر؛ في الهند تقودون على الجانب الأيسر. إن لم تفعلوا، فستدفعون الغرامة؛ لا مجال لمشاعر الاستياء أو التطلب أو التوقعات؛ تخلصون باحترامكم قواعد المرور فقط.

تساءلون أين دور التعاطف، أين دور الشعور بالذنب في كل هذا. ستعرفون عندما تستيقظون، إن كنت تشعُر بالذنب في الوقت الزاهي، فكيف يمكنني بحق الرب أن أشرح لك ذلك؟ كيف سيتمكن من معرفة ماهية التعاطف؟ أتعرفون، في بعض الأحيان يرغب الناس في الاقتداء بالمسيح، إلا أنه في الواقع، عندما يعزف القرد على الساكسفون، فإن ذلك لا يجعله موسيقياً. لا يمكنك الاقتداء بالمسيح من خلال الاقتداء بسلوكه الخارجي وحده، بل يتوجب أن تكون المسيح. عندها ستعرف ما ينبغي عمله بالضبط في هذه الحالة أو تلك، وفقاً لمزاجك، لشخصيتك، ولمزاج وشخصية الشخص الذي تتعامل معه. لن يتوجب على أي كان أن يملأ عليك ما تفعله. ولكن، لعمل ذلك، ينبغي أن تكون ما كانه المسيح. لن يقدرك الاقتداء الخارجي إلى أي شيء. إن كنت تظن أن التعاطف يتضمن الضعف، فإنه ما من طريقة تمكنني من وصف التعاطف لك، ما من طريقة قطعاً، لأنه يمكن التعاطف أن يكون صعباً جداً. يمكن التعاطف أن يكون قاسياً جداً، يمكن التعاطف أن يربك، يمكن التعاطف أن يلطم أربطة ويعمل فيك أنت. التعاطف هو الأشياء كافة، ويمكنه أيضاً أن يكون في غاية العنومة، إلا أنه ما من طريقة لمعرفة ذلك. ستتوصل إلى معرفة ذلك فقط عندما تصبح الحب - بكلمات أخرى، عندما تسقط الأوهام والتعلقات.

كلما قلّ تماهيككم مع الـ «أنا»، كنتم أشدّ ارتباطاً مع كل الأشخاص وكل الأشياء. أتعرفون لماذا؟ لأنكم ما عدتم خائفين من أن تنم أدبنتكم أو عدم استلطافكم. ما عدتم راغبين في إثارة إعجاب أي كان. بإمكانكم تخيل مقدار الارتياح الذي نشعرون به عندما لا تضطرون إلى إثارة إعجاب أي كان بعد الآن. أو، ياله من ارتياح إنها السعادة أخيراً! ما عدتم تشعرون بالحاجة أو بالإكراه على تفسير الأشياء. لا بأس، ما الذي ينبغي تفسيره؟ وكذلك ما عدتم تشعرون بالحاجة أو بالإكراه على الاعتذار. أفضل بالحري سماعك تقول: «لقد صرّ وأعتب»، عن سماعك تقول: «أنا أسف». أفضل بالحري سماعك تقول: «لقد صرّ وأعتب منذ آخر لقاء لنا؛ لن يتكرر ما ارتكبته بحقك» ثانياً، عن سماعك تقول: «أنا أسف على ما ارتكبته بحقك». لم قد يطلب أي

كان اعتذاراً؟ هنالك ما يتوجب عليكم اكتشافه في ذلك. حتى ولو افترضنا أن أحدهم تصرف معك بلؤم، فلا مكان للاعتذار.

ما من أحدٍ كان لثيقاً بحقك. لقد كان لثيقاً بحق من كان يظنه أنت، وليس بحقك أنت. لا أحد على الإطلاق يرفضك أنت؛ إنهم يرفضون ما يظنونه أنت. إلا أن ذلك يصح في كلا الاتجاهين. فكذلك، ما من أحدٍ يقبلك أنت. إلى أن يستيقظ الناس، فإنهم ببساطة لا يقبلون أو يرفضون سوى صورهم عنك. لقد فضلوا صورةً عنك، هي ما يقبلون أو يرفضون. لاحظوا كم أن المضحٍ قدماً في ذلك فهو مدمر. إنه محرّر زيادةً عن اللزوم. ولكن ما أسهل حب الناس عندما تفهمون هذا! ما أسهل حب الجميع عندما لا تتماهون مع تصوّراتهم عنكم أو ما تتصوّرونه عنهم! يصبح من الأسهل أن نحبيهم، أن نحب الجميع.

الاحظ «نفسى»، بيد أني لا أفكر في «نفسى». لأن التفكير في «النفس» يتوافق كذلك مع كثير من التفكير السيئ. ولكن، عندما أراقب «نفسى»، فإنني أعني باستمرار أن هذا انعكاس في الواقع. لستم تفكرون حقيقة في الـ «أنا» والـ «نفسى». بل تشبهون شخصاً يقود سيارة؛ ولا يؤذ أن يفقد مطلقاً إدراكه للسيارة. لا بأس بقليل من أحلام اليقظة، من دون أن تفقدوا إدراككم محيطكم. ينبغي أن تكونوا متنبهين على الدوام. ذلك يشبه أمّا نائمة؛ قد لا تسمع الطائرة التي تهدر فوق المنزل، إلا أنها ستسمع بالتأكيد نسيج يصدر عن رضيعها. إنها متنبهة، حاشتها تلك واعية تماماً. لا يمكننا قول شيء عن حالة اليقظة. كما لا يمكننا قول شيء عن حالة السعادة. لا يمكن تعريف السعادة. ما يمكن تعريفه هو الشقاء. أسقطوا اللامسعادة وسوف تعرفون معنى السعادة. لا يمكن تعريف الحب، في حين يمكن تعريف اللاحب. أسقطوا اللاحب، أسقطوا الخوف، وستعرفون معنى الحب. فريد أن نكتشف ماهية الشخص المتيقظ. إلا أنكم لن تعرفوا ذلك إلا متى صرتم كذلك.

أثراني الفُح ضمناً إلى أنه لا ينبغي لنا أن نكون متطلبين من أبنائنا؟ ما قلته كان: «لا يحقّ لكم بأيّ متطلبات». عاجلاً أم آجلاً سيتخلص طفلكم منكم، بالتوافق مع وصية الرب. وسوف لن يكون لكم أيّ حقوق عليه بعد ذلك. في الواقع، إنه ليس بطفلكم، ولم يكن يوماً كذلك. بل إنه ينتمي إلى الحياة، لا إليكم. لا أحد ينتمي إليكم. ما تتكلمون عليه هو تربية الطفل. إن أردت تناول الغداء، فيحسن بك القدوم بين منتصف النهار والواحدة بعد الظهر، وإلا فإنك لن تحصل على الغداء. نقطة على السطر. هذه هي الطريقة التي تتم بها الأمور هنا. إن لم تأب في الوقت المحدد، فإنك لن تحصل على غداك. أنت حر، هذا حقيقي، إلا أنه ينبغي لك تحقّل النتائج.

عندما أتحدث عن عدم وضع التوقعات تجاه الآخرين، أو أن لا نكون متطلبين منهم، فإنني أعني التوقعات والمتطلبات المتعلقة بكياني الشخصي. من الواضح أنه يتوجب على رئيس البلاد، مثلاً، طرح متطلبات معينة من الشعب. وكذلك من الواضح أنه يتوجب على شرطي المرور طرح

متطلبات معينة من الناس. إلا أن هذه المتطلبات تتعلق بسلوك الناس: قوانين السير، التنظيم الحسن، السير السلس لأموال المجتمع. لا تهدف هذه المتطلبات إلى منح الرئيس أو شرطي المرور شعوراً جيداً.

الوصول بصمت

الكل يتساءل عما سيحصل له عندما يصل في النهاية. أهو مجرد فضول؟ نسأل دومًا كيف يمكن ذلك أن يتحقق والنظام، أو إن كان يعني شيئًا ضمن السياق الكلي للأمور، أو عن ماهية الشعور عندما نتوصل إلى تحقيق ذلك. يدؤوا فتعرفوا؛ لا يمكن وصف ذلك. يقال على نحو واسع في الشرق: «أولئك الذين يعرفون، لا يتكلمون؛ وأولئك الذين يتكلمون، لا يعرفون». لا يمكن وصف الوصول؛ يمكن وصف الحالة المضادة. لا يمكن المرشد «Guru» أن يمنحكم الحقيقة. لا يمكن صوغ الحقيقة بكلمات محددة، بصيغة معينة. لن تكون الحقيقة. لن تكون الواقع. لا يمكن صوغ الواقع بصيغة محددة. يمكن المرشد أن يشير إلى أخطائكم فقط. عندما تسقطون أخطاءكم، ستعرفون الحقيقة. لن تتمكنوا، حتى حينها، من الكلام. هذا تقليد شائع بين المتصوفين الكاثوليك العظماء. فتوما الأكويني العظيم، بذاته، توقف في نهاية حياته عن الكلام والكتابة؛ لقد رأى. كنت أعتقد، ولمدة طويلة، أنه احتفظ بصمته الشهير هذا ليضعة أشهر فقط، إلا أنه في الواقع امتد على سنوات طوال. لاحظ توما أنه حول نفسه إلى أضحوكة، وهو عثر عن ذلك بكل صراحة. يمكنني تشبيه ذلك بشخص لم يسبق له تذوق المانجا الخضراء ويسألني: «ما طعمها؟» سأقول له: «حامضة». ولكن، بإعطائه كلمة، أكون قد أخرجته عن السياق. حاولوا فهم ذلك. معظم الناس ليسوا بحكماء؛ إذ يتمسكون بالكلمة - بكلمات الكتاب المقدس على سبيل المثال - ويفهمونها بشكل خاطئ. أقول «حامضة»، فيسألني ثانية: «حامضة كالخل أم كالليمون؟»، وهنا أجيبه: «لست واثقًا من أنها حامضة كالليمون، بل حامضة كالمانجا». لكن، لم يسبق لي تذوق واحدة منها». هذا سببٌ جدًا! إلا أنه على الرغم من ذلك يمضي قدمًا ويكتب أطروحة دكتوراه عن المانجا، ما كان ليفعل ذلك لو أنه تذوقها. ما كان ليفعل ذلك حقًا. لربما كتب أطروحة دكتوراه عن أمور أخرى، وليس عن المانجا، وفي اليوم الذي يتذوق فيه ثمرة المانجا الخضراء، سيقول: «رباه، لقد جعلت نفسي أضحوكة. لم يكن ينبغي كتابة هذه الأطروحة». هذا بالضبط ما فعله توما الأكويني.

هنالك فيلسوف ولاهوتي ألماني عظيم ألف كتابًا خصّصه بكامله لصمت القديس توما الأكويني. لقد صفت بكل بساطة. لم يتكلم. هو الذي يقول في مقدمة كتابه الخلاصة اللاهوتية Summa Theologica والذي كان بمثابة الموجز لكل لاهوته: «في ما يتعلق بالله، فإنه لا يمكننا أن نقول من هو، بل ما ليس هو. وهكذا، فإنه لا يمكننا أن نتحدث عن ماهيته، بل عما ليس هو عليه».

كما يقول، في تعليقه الشهير على كتاب بويثيوس Boethius الثالث

المقدّس De Sancta Trinitate، بوجود ثلاث طرق لمعرفة الله: (١) من خلال الخليقة، (٢) ومن خلال عمل الله في التاريخ، (٣) ومن خلال أسمى أنواع المعرفة، معرفة الله باعتباره لا يُدرك. إن أسمى أشكال الكلام على الثالوث تكمن في معرفة أنه لا يمكن المرء أن يدركه. ما أقوله هنا ليس مجرد تهويلات أحد معلمي الزن الشرقيين، لا بل إنه كلام أحد قدّيسي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أمير اللاهوتيين لعدة قرون. معرفة الله باعتباره لا يُدرك، لا بل يقول القديس توما في مكان آخر: إنها أشياء غير مدركة؛ الواقع، الله، الألوهية، الحقيقة، الحب، كلها غير مدركة؛ يعني هذا أنه لا يمكن فهمها من خلال العقل المفكر. يمكن هذا المفهوم أن يفود إلى تهذئة العديد من الأسئلة التي تراود الناس بسبب عيشهم المستمر تحت وهم أننا نعرف، لسنا نعرف. لا يمكننا أن ندرك ما النصوص المقدّسة إذا؟ إنها تلميح، مفتاح، وليست وصفاً.

ينتسب تعضّب أحد المؤمنين الصادقين الذي يعتقد أنه يعرف، بشرّ أعظم من الجهود المتضافرة لمنثني وغد. إنه لمن الغريب رؤية ما يمكن المؤمنين الصادقين عمله نتيجة اعتقادهم أنهم يعرفون. أن يكون من الرائع حقاً العيش في عالم حيث يقول كل شخص: «لا نعرف»؟ سيسقط حاجز كبير، أن يكون ذلك رائعاً؟

كان ياتيني رجلٌ مولودٌ أعمى ليسأل: «ما هو ذلك الشيء المدعوى باللون الأخضر؟» كيف لأحد أن يصف اللون الأخضر لمن وُلد أعمى؟ أخال أنه بإمكان المرء استخدام التعابير المجازية. لذلك سأقول: «اللون الأخضر، إنه يشبه الموسيقى الناعمة». «أوه، الموسيقى الناعمة». فأؤكد: «نعم الموسيقى الناعمة واللطيفة». ثم ياتيني رجلٌ ثانٍ أعمى ليسأل: «ما هو اللون الأخضر؟». فأقول إنه يشبه الساتان الناعم، في غلبة النعومة ولطيف الملمس. وفي اليوم التالي لاحظ أعميين يتضاربان بالرجاجات على رأسيهما. يقول أحدهما: «إنه كالموسيقى الناعمة»؛ فيجيب الآخر: «لا بل إنه ناعم كالساتان». وهكذا يستمر الأمر. كلاهما لا يعرفان على ما يتكلمان، لأنهما لو عرفا لسكتا. إن الأمر على هذه الدرجة من السوء. لا بل أسوأ، إذ لنفترض أنك تمكّنت ذات يوم من إعادة البصر إلى الرجل الأعمى ذاك أجلسه في الحديقة، حيث أخذ يتأمل ما حوله، ثم قلت له: «حسناً، إنك تعرف الآن ما هو اللون الأخضر». فيجيب: «هذا صحيح. لقد سمعتُ شيئاً يشبه هذا الصباح!».

في الواقع، إنكم محاطون بالله من دون أن تتمكنوا من رؤيته، لأنكم «تعرفون» شيئاً عنه. الحاجز الأخير القابع أمام رؤيتكم الله هو مفهوم الله لديكم. تغفلون عن الله لأنكم تعتقدون أنكم تعرفون. هذا هو الأمر الفظيع في الدين. هذا ما نقوله لنا الأناجيل، بأن العتدينيين اليهود «عرفوا» فتخلصوا من يسوع. أسمى معرفة لله هي معرفة أنه لا يُدرك. يُقال كثيراً من الكلام عن الله؛ لقد سئم العالم ذلك. وفي المقابل، ليس هناك إلا القليل من الوعي، القليل من الحب، القليل من السعادة، ولكن دعونا نكف كذلك عن استخدام هذه

الكلمات. هناك القليل من التخلي عن الأوهام، من التخلي عن الأخطاء، من التخلي عن العلاقات والفسوة، القليل من الوعي. هذا ما يعاني منه العالم، وليس من نقص الدين. يفترض بالدين أن يكون حول نقص الوعي، عن الاستيقاظ. انظروا إلام نضجنا. تعالوا إلى بلدي وانظروا إلى الناس يقتل واحدهم الآخر بسبب الدين. ستجدون ذلك في كل مكان. «ذاك الذي يعرف لا يقول؛ وذاك الذي يقول لا يعرف». أنواع الوحي كافة، مهما كانت مؤلها، ليست أكثر من مجرد توجيه للإصبع نحو القمر. وكما نقول في الشرق، «عندما يشير الحكيم إلى القمر، فجل ما يراه الحمقى هو إصبعه».

يضيف جان غيتون، الكاتب الفرنسي الشديد التقوى والأرثوذكسية، تعليقاً مريعاً: «غالبًا ما نستخدم الإصبع لاقتلاع الأعين». أليس ذلك فظيلاً؟ الوعي، الوعي، الوعي! في الوعي الشفاء؛ في الوعي الحقيقة؛ في الوعي الخلاص؛ في الوعي الروحانية؛ في الوعي النمو؛ في الوعي الحب؛ في الوعي الاستيقاظ. الوعي.

أحتاج إلى أن أتكلم على الكلمات والمفاهيم، إذ ينبغي لي أن أشرح السبب الذي يجعلنا لا نبصر عندما ننظر إلى شجرة. نظراً أننا نبصر، إلا أننا لا نفعل. عندما ننظر إلى شخص، فإننا لا نبصر حقاً ذلك الشخص، مع أننا نظن أننا نفعل. ما نراه هو شيء شكلناه في مخيلتنا. يتولد لدينا انطباع ما ونتمسك بذلك الانطباع. وننظر ننظر إلى الشخص من خلال ذلك الانطباع. نفعل هذا مع كل شيء تقريباً. إن فهمنا ذلك، فسنفهمون جمال ورونق أن تكونوا وأعين لكل ما يحيط بكم. هناك يكمن الواقع: «الله»، أو مهما يكن، يكمن هناك كل شيء يكمن هناك. السمكة الصغيرة المسكنة في المحيط نقول: «معذرة، إني أبحث عن المحيط. أيمكنكم إخباري أين يمكنني إيجاد؟». إنه لأمر مشيراً للشفقة، أليس كذلك؟ لو أننا فتحنا أعيننا فقط لنبصر، لتمكنا ساعتها من الفهم.

خسارة سباق الجرذان

لنعد إلى الآية الرائعة تلك من الإنجيل عن خسارة الإنسان لنفسه ليتمكن من إيجادها. يمكننا إيجادها في معظم الأدبيات الدينية والروحية والتصوفية.

كيف يمكن المرء أن يخسر نفسه؟ هل سبق أن جرّبتُم خسارة شيء ما؟ ذلك صحيح، إذ كلما جرّبتُم ذلك، ازداد الأمرُ صعوبةً. تخسرون الأشياء فقط عندما لا تحاولون ذلك، تخسرون الشيء عندما لا تكونون واعين، حسناً، كيف يموت المرء عن نفسه؟ إننا نتكلم على الموت الآن، لا على الانتحار، لم يُطلب منا أن نقتل النفس، بل أن ندعها تموت. إذ يمكن أن يكون التسبب بالألم للنفس، التسبب بالمعاناة، نوعاً من هزيمة النفس، يمكنه أن يكون غير مثمر. لا تكونون يوماً ممثلين بأنفسكم، كحالكم يوم تكونون متألّمين. لا تكونون يوماً متمحورين حول أنفسكم، كحالكم يوم تكونون محبطين. لا تكونون يوماً في غاية الاستعداد لنسيان أنفسكم كحالكم يوم تكونون سعداء. تحرّركم السعادة من النفس، المعاناة والألم والبؤس والإحباط هي ما يقبّدكم بالنفس. راقبوا إلى أيّ مدى يبلغ وعيكم بأنسانكم عندما تعانون من ألم فيها. عندما لا يوجد ألم أسنان، فإنكم لا تهون حتى وجود أسنان لديكم، أو وجود رأس، عندما لا تعانون من الصداع. إلا أن الأمر يكون في غاية الاختلاف عندما تعانون من الصداع النصفى على سبيل المثال.

إنه إذا لأمر خاطئ للغاية، وغير صحيح بالمرّة، اعتقاد أن الطريق إلى إنكار النفس يمرّ بالتسبب بالألم لها، بالمضي في إنكار الذات، بالإماتات، كما كان الأمر يفهم تقليدياً، إذ إن إنكار النفس، الموت عنها، خسارة لها، هو في فهم طبيعتها الحقيقية، عندما تفعلون ذلك، سنحتفي؛ ستتلاشى، لنفترض أن أحدهم زارني ذات يوم، أقول له: «تفضل، يمكنك أن تعرّفني بنفسك؟»، فيجيب: «أنا نابوليون»، أقول: «لست نابوليون...»، فيجيب: «تماماً، أنا بونابرت، إمبراطور فرنسا»، أقول: «يا له من شرف»، مع أنني أفكر في ذاتي أنه ينبغي لي التعامل بحذر مع هذا الشاب.

وأقول ثانية: «تفضّلوا بالجلوس، جالستكم». فيتابع الشاب: «حسناً، لقد قيل لي بأن حضرتك مرشد روحي جيّد. لدي مشكلة روحية. أنا قلق، أجد صعوبة في الثقة بالله. إذ إن جيوشي في روسيا كما ترى، وأمضي الليالي الطوال أرقاً، متسائلاً عن مال الأمور في النهاية». فأقول حينها: «حسناً، جالستكم، يمكنني أن أصف لكم شيئاً محدداً بهذا الخصوص. ما أقترحه هو أن تقرؤوا الفصل السادس من إنجيل متى: «اعتبروا بزنايق الحقل كيف تنمو، فلا تجهد ولا تغزل»».

هنا أخذت اتساءل عمن هو أشدّ جنونًا، هذا الشاب أم أنا. إلا أنني تابعت مع ذلك المجنون. وهذا ما يفعله المرشد الحكيم مع كل واحد فيكم في البداية. سيسألك: ياخذ مشاكلك على محمل الجد. لا بل سيمسح لك دموعه أو اثنتين. أنت مجنون، إلا أنك لا تعرف ذلك بعد. وسرعان ما تأتي الساعة التي يسحب فيها البساط من تحت قدميك ليقول لك: «دعك من ذلك، لست نابوليون». في الحوارات الشهيرة تلك للقديسة كاترين من سيبيتا، يُشاع أن الله قال لها: «أنا هو الذي هو، وأنت هي التي لست هي». هل سبق لكم أن اختبرتم أن لا تكونوا أنتم؟ لدينا في الشرق الأقصى صورة عن ذلك. إنها صورة الراقص والرقصة. ينظر إلى الله بصفته الراقص وإلى المخلوقات بصفته رقصه الله. ليس الأمر كما لو أن الله هو الراقص الكبير وأنتم الراقصون الصغار. أوه لا لستم راقصين بالمرّة. بل تُرقصون. هل سبق أن اختبرتم ذلك؟ لذا، عندما يتمالك الرجل نفسه ويدرك أنه ليس نابوليون، فإنه لا يكف عن أن يكون. بل يستمر في أن يكون، إلا أنه يدرك أنه شيء ما مغاير لما اعتقده.

خسارة النفس هي أن تدرك فجأة أنك شيء مختلف عما ظننته. ظننت نفسك في المركز؟ والآن تختبر نفسك كقمر. ظننت نفسك راقصًا؛ الآن تختبر كونك الرقصة. إنها مجرد تعابير مجازيّة، صور، لا يمكننا أخذها بشكل حرفي. تعطيك مفتاحًا، تلميحًا؛ إنها مؤشرات فقط، لا تنسوا. لذلك لا يمكنكم الضغط عليها كثيرًا. لا تأخذوها بشكل حرفي للغاية.

القيمة الدائمة

بالانتقال إلى فكرة أخرى، فهناك قضية قيمة المرء الشخصية. فالقيمة الشخصية ليست القيمة الذاتية. كيف تكتسبون قيمتكم الذاتية؟ أمن النجاح في أعمالكم؟ أم من امتلاك مقدار كبير من الأموال؟ هل تكتسبونها من اجتذاب عدد كبير من الرجال (فيما لو كنتم نساء) أو العديد من النساء (فيما لو كنتم رجالاً)؟ لكم هو هش ذلك كله، ولكم هو زائل! عندما نتحدث عن القيمة الذاتية، أفلسنا نتكلم في الحقيقة على كيفية انعكاسنا في مرآيا أذهان الآخرين؟ ولكن أحتاج إلى الاعتماد على ذلك حقاً؟ يمكن المرء أن يفهم قيمته الشخصية عندما يتوقف عن التماهي أو عن تعريف نفسه من خلال الأشياء الزائلة هذه. لست جميلاً لأن الكل يقول بأنني جميل. في الحقيقة، لست جميلاً ولا قبيحاً. هذه أمور تأتي وتمضي. يمكنني أن أتحوّل في الغد فجأة إلى مخلوق في غاية القبح، إلا أنني سأظل «أنا». ثم لنقل إنني أجريت جراحة تجميلية وعدت جميلاً ثانية. هل تصبح «الأنا» جميلة حقاً؟ ينبغي أن تأخذوا وقتاً مطولاً للتأمل ملياً في هذه الأمور. لقد رميتها في وجهكم بتتابع سريع، ولكن إن أردتم أخذ بعض الوقت لتفهموا ما كنت أقوله، لتتمعنوا فيه، فستقعون على منجم من الذهب هناك. أقول ذلك لأنني أعلم وبشكل شخصي ماهية الكنز الذي اكتشفته عندما تعثرت بهذه الأشياء المرة الأولى.

تجعل الخبرات السارة الحياة مبهجة. ونقود الخبرات المؤلمة إلى النمو. تجعل الخبرات السارة الحياة مبهجة، إلا أنها لا تقود في حد ذاتها إلى النمو. ما يقود إلى النمو هو الخبرات المؤلمة. تشير المعاناة إلى منطقة لديك لم تنم بعد، وتحتاج إلى النمو والتحوّل والتغير. لو عرفت كيف تستخدم هذه المعاناة، أوه كم يمكنك ساعتها أن تنمو! لنحد أنفسنا في الوقت الراهن بالمعاناة النفسية، بكل المشاعر السلبية تلك التي نملكها. لا تضيع وقتك على إحداها. لقد سبق وأفصحت عما يمكن فعله بهذه المشاعر. راقب الإحباط الذي ينتابك عندما لا تسير الأمور على هواك! أنظر إلى ما يخبره عن حالك. افعل ذلك دونما إدانة (والأفانك ستقع في مطب كراهية الذات). راقبه كما لو أنك تراقبه لدى شخص آخر. أنظر إلى الإحباط، إلى الاكتئاب الذي تختبره عندما يتم انتقادك. ما الذي يقوله ذلك عنك؟

ألم تسمعوا بالزميل الذي قال: «من الذي يقول إن القلق لا يساعد؟ إنه يساعد بالتأكيد. فكلمنا قلقاً بشأن أمر ما، فإنه لا يحدث». حسناً. لقد ساعده ذلك بالتأكيد. أو الزميل الآخر الذي قال ساخراً: «العصاين هو ذلك الشخص الذي يقلق بشأن أمور لم تحدث في الماضي. إنه ليس مثلنا نحن الأشخاص العاديين الذين نقلق بشأن أمور لن تحدث في المستقبل». تلك هي القضية. ذلك القلق، وذلك الاضطراب، ما تراهما يكشفان عنك؟

المشاعر السلبية؛ إنَّ كلَّ شعور سلبيٍّ لهو أمرٌ مفيدٌ جدًّا في سبيل الوعي، في سبيل الفهم. إذ إنها تمنحكم فرصة الشعور بها، ومراقبتها من الخارج. سيظلُّ الأكتئاب حاضراً في البداية، إلا أنكم ستقطعون صلتكم به، وستفهمون بشكلٍ تدريجيٍّ ماهيةَ الاكتئاب، وفيما تفهمونه، سيظهر بشكلٍ أقلَّ تواتراً، وسيختفي كلاً في وقتٍ واحدٍ ربّما، ولكن ساعتها، لن يكون ذلك باله الأهميّة. كنثُ اكتب قبل الاستنارة، وبعد الاستنارة ما زلتُ اكتب. إلا أنكم تصلون بشكلٍ تدريجيٍّ، أو سريعٍ، أو مفاجئٍ، إلى حالة اليقظة. إنها الحالة التي تتخلون فيها عن الرغبات، لكن تذكروا ما عنيته بالرغبات والشهوات. عنيت بها أنني «أرفض أن أكون سعيداً، ما لم أحصل على ما أُرغب فيه». عنيتُ بها تلك الحالات التي تعتمد فيها السعادة على تحقيق الرغبة.

الرغبة، لا التفضيل

لا تقمعوا الرغبة، لأنكم تصيرون ساعتها من دون حياة، ستكونون من دون طاقة وهذا أمر فظيع. الرغبة بالمعنى الصحيح هي الطاقة. وكلما امتلكننا المزيد من الطاقة كان ذلك أفضل. لكن لا تقمعوا الرغبة، افهموها. افهموها. لا تبحثوا كثيراً عن تلبية الرغبة، بل عن فهمها. ولا تبحثوا لموضوعات رغبتكم، بل افهموها: تطلعوا إليها في ضوءها الحقيقي. تطلعوا إليها في قيمتها الحقيقية. لأنكم إن اكتفيتكم بقمع رغبتكم، وحاولتم التذكر لموضوعها، فغالباً ما ستنتقدون بها. في حين أنكم عندما تنظرون إليها وتدركون قيمتها الحقيقية، إن فهمتم الكيفية التي تهتدون بها خلفية البؤس والإحباط والاكتئاب، فستحول رغبتكم إلى ما أدعوه بالتفضيل.

عندما تمضون في الحياة مع تفضيلات معينة، من دون أن تدعوا سعادتكم تعتمد على أي منها، عندها تكونون مستيقظين. عندها تتحركون نحو البقطة. البقطة، السعادة - سقوها ما شئتم - هي حالة اللاوهم، تحققونها عندما ترون الأشياء لا كما تشتهونها أن تكون بل كما هي، إلى أقصى حد ممكن كأننا بشرًا أن يبلغه. نعم للتخلي عن الأوهام، نعم لرؤية الأشياء، نعم لرؤية الواقع. كل مرة لا تكونون فيها سعداء، تكونون قد أضفتم شيئاً إلى الواقع. هذه الإضافة هي ما يجعلكم غير سعداء. أكرز: تكونون قد أضفتم شيئاً ما... أضفتم رد فعل سلبيًا. الواقع يعطي الحافز، بينما تعطون أنتم رد الفعل. تكونون قد أضفتم شيئاً من خلال رد فعلكم. ولو تفحصتم ما قمتم بإضافته، فهناك على الدوام وهم ما، وثقة تطلب ما، توقع ما، توقي ما، دوماً. كثيرة هي الأمثلة عن الأوهام، ولكن ما أن تبدؤوا بالتحرك على هذه الطريق، حتى تكشفوها بأنفسكم.

حاليًا، فالوهم هو الخطأ الذي ترتكبونه باعتقادكم أنكم ستنتغيرون من خلال تغيير عالمكم الخارجي فقط. لا تتغيرون من خلال تغييركم عالمكم الخارجي فحسب، لن يغيرك حصولك على عمل جديد أو زوجة جديدة أو منزل جديد أو مرشد جديد أو روحانية جديدة. ذلك كمن يتخيل أنه سيحسن نوعية خطه ما أن يغير القلم الذي يكتب به، أو سيغير قدرته على التفكير بتغييره قبعته. هذا لا يغيركم حقاً، إلا أن معظم الناس ينفقون جل طاقتهم في محاولة إعادة ترتيب عالمهم الخارجي بما يوافق أذواقهم. ينجحون في ذلك أحياناً - لجوالي خمسي دقائق، متحصّلين على راحة قصيرة، إلا أنهم يظلون متوترين حتى أثناء تلك الراحة، لأن الحياة تتدهق باستمرار، الحياة تتغير باستمرار.

لذا، فإن أردتم أن تحيوا، ينبغي ألا يكون لكم مسكن دائم. لا ينبغي أن يكون

لك مكان تستند إليه رأسك. وكما يقول كوثفوشيبوس العظيم: «من يود أن يكون ثابتاً في السعادة، ينبغي له أن يكون كثير التغير». تدققوا. إلا أن الأمر هو أننا نطل نتطلع إلى الخلف، اليس كذلك؟ نتشبهت بأشياء من الماضي، ونتشبهت بأشياء في الحاضر. «ما من أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الخلف». أتودون الانضمام إلى لحن؟ أتودون الانضمام إلى سيمفونية؟ لا تتمسكوا إذا بوضع جمل موسيقية. لا تتمسكوا بنوتتين أو ثلاث. دعوها تمر، دعوها تدفق. يغمس سر الاستمتاع الكامل بالسيمفونية في سماحكم للثورات بالمرور. في حين أنكم لو استذوقتم لحناً معيناً وضحتم قائلين: «أعبدوه ثانية، أعبدوه ثانية»، فلن يكون ذلك سيمفونية. هل تعرفون قصص نصر الدين، الملاحجوز؟ إنه شخصية أسطورية يدعي اليونان، الأتراك والفرس على حد سواء، أنه من تراثهم. كان يلقي تعاليمه التصوفية على شكل قصص غالباً ما تكون طريفة، وبحيث يكون نصر الدين نفسه أضحوكة هذه القصص.

في أحد الأيام، كان نصر الدين يداعب أوتار قيثارته، مصدراً نغمة واحدة. بعد برهة، التأم جمع حوله (كان ذلك في سوق شعبي على ما يبدو)، وقال أحد الرجال الجالسين على الأرض: «إنها نغمة جميلة تلك التي تعزفها أيها الملاح، لكن، لم لا تنوع بعض الشيء كما يفعل الموسيقيون الآخرون؟». «أولئك المجاذيب»، قال نصر الدين، «إنهم يبحثون عن النغمة الصحيحة، في حين أنني وجدتتها».

التشبُّث بالوهم

عندما تتشبَّثون، تُدَمِّر الحياة؛ عندما تنتمسكون بأي شيء، فإنكم تتوقفون عن الحياة. تجدون ذلك مكتوبًا على امتداد صفحات الإنجيل. ولا تحصلون على ذلك إلا من خلال الفهم. إفهموا. كذلك، حبذا لو تفهمون وهذا آخر، وهو أن السعادة تختلف عن الإثارة، ليست التشويق. ذلك وهم آخر، اعتقادكم أن التشويق ينأتي من تلبية الرغبة. الرغبة تغذي اللهفة، إلا أنكم سرعان ما ستعانون من آثار الانسحاب. عندما تعانون بالقدر الكافي، تكونون مستعدين لرؤية ذلك، تغذون أنفسكم بالتشويق. ذلك كمن يقوم بإطعام حصان السباق طعامًا متزفًا كالحلويات والنبيد، هذا ليس بالغذاء المطلوب لأحصنة السباق. إنه كمن يغذي إنسانًا بالمخدرات. يحتاجون إلى طعام وشراب قويين، غذاء صلب، مغذ. يحتاجون إلى فهم كل ذلك بأنفسكم.

ثقة وهم آخر قائم على فكرة أنه بإمكان شخصي آخر أن يفعل لك ذلك، أنه يمكن أحدًا ذا خبرة، مرشدًا أو معلمًا ما القيام بذلك عنك. لا يسع أعظم المرشدين في العالم أن يقوم ولو بخطوة واحدة عنك، عليك أن تفعل ذلك بنفسك. لقد عبّر القديس أوغسطينس عن ذلك بشكل رائع للغاية حينما قال: «لم يكن في وسع يسوع المسيح ذاته القيام بشيء لكثير من مستمعيه». أو يمكنني أن أكرر على مسامعكم القول العربي المأثور ذلك: «طبيعة المظلم واحدة، إلا أنه بُنيت الأشواك في المستنقعات والورود في الحدائق». يتوجب عليك أنت القيام بذلك. ليس في وسع أحد مساعدتك. أنت من يتوجب عليه هضم الطعام، أنت من ينبغي له أن يفهم. ليس في وسع أحد أن يفهم منك. أنت من ينبغي له أن يبحث. ليس في وسع أحد أن يبحث عوضًا منك. وإن كان ما تبحث عنه هو الحقيقة، عندها يمكنك فعل هذا: أن لا تعتمد على أحد.

إلا أنه يبقى هناك وهم آخر مفاده أنه من المهم لنا أن نحظى بالاحترام، أن نكون محبوبين ومقدرين. يقول كثيرون بأنه لدينا حاجة طبيعية لأن نكون محبوبين، مقدرين ومتنمين. هذا خطأ. نخلو عن هذا الوهم وستجدون السعادة. لدينا حاجة طبيعية إلى أن نكون أحرارًا، حاجة طبيعية إلى أن نحب، لا إلى أن نكون محبوبين. أصادف في بعض الأحيان، في جلسات العلاج النفسي، مشكلة شائعة للغاية: لا أحد يبحثني؛ كيف يمكنني، والحال هذه، أن أكون سعيدًا؟ أشرح له أو لها: «أعني أنه ما من لحظة تمر عليك تنسى فيها أنك لست محبوبًا، وتتمكن من تجاهل ذلك والشعور بالسعادة؟». لا بد من وجود أوقات كهذه.

على سبيل المثال، المرأة المنهمكة في مشاهدة فيلم مضحك، والتي تهدر بالضحك، لقد نسيت في اللحظة المباركة تلك أن تذكر نفسها بأنه ما من أحد

يحدثها. إنها سعيدة! ثم تخرج من صالة السينما وتمضي صديقتها التي شاهدت الفيلم برفقتها مع حبيبها، تاركة تلك المرأة بمقرنها. فتبدأ بالتفكير: «كل صديقاتي أحيّة وليس لي أحد يحبني. كم أنا تعيسة! لا أحد يحبني!».

في الهند، أخذ عدد كبير من الفقراء يحصلون على راديو ترانزستور، وهو ما يعتبر رفاهية إلى حد ما. «الكل لديه راديو»، أتى، «لكنني لا أملك واحداً، فأنا في غاية التعاسة». إلى أن بدأ الجميع بالحصول على أجهزة الراديو هذه، كانوا يعيشون بسعادة من دونها. هذا ما يحصل معكم. فقبل أن يخبرك أحدهم بأنك لن تكون سعيداً إلا إن كنت محبوباً، كنت سعيداً تماماً. يمكن أحدهم أن يكون سعيداً وإن لم يكن محبوباً، أو مرغوباً أو جذاباً في عيني شخص آخر. تصيرون سعداء من خلال الاحتكاك بالواقع. هذا ما يجلب السعادة، الاحتكاك بالواقع لحظة بلحظة. هناك ستجدون الله؛ هناك ستجدون السعادة. غير أن غالبية الناس ليست مستعدة لسماع ذلك.

وهم آخر: أن للأحداث الخارجية القدرة على إيذاكم، أن للآخرين القدرة على إيذاكم. ليس لهم هذه القدرة. أنتم من يمنحهم إيّاها.

وهم آخر: أنكم كل تلك التسميات التي يضعها الآخرون لكم، أو التي تضعونها لأنفسكم. لستم كذلك، لستم كذلك! لذا، لا يتوجب عليكم التشبث بها. في اليوم الذي يقول لي أحدهم بأنني عبقرى وأخذ ذلك على محمل الجد، أكون في مشكلة. أيمكنكم فهم السبب؟ ذلك لأنني سأصاب بالتوتر من الآن فصاعداً. سيتوجب علي العيش وفقاً لذلك. سيتوجب علي الحفاظ على ذلك. سيتوجب علي أن أسأل بعد كل محاضرة: «هل أعجبتكم؟ أما زلتם تعتقدون أنني عبقرى؟» أتزون؟ لذا فما تحتاجون إلى عمله هو تحطيم التسمية! حطموها، وستكونون أحراراً! لا تتماهوا مع هذه التسميات. إنها ما يظنه الآخرون. إنها ما أحسه تجاهك في تلك اللحظة. هل أنت في الواقع عبقرى؟ هل أنت مخبول؟ هل أنت متصوّف؟ هل أنت مجنون؟ شريطة أن تظلوا واعين، أن تعيشوا الحياة لحظة بلحظة. لكم من الرائع وصف ذلك في كلمات الإنجيل هذه: «أنظروا إلى طيور السماء كيف لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء... إعتبروا بزنابق الحقل... لا تجهد ولا تغزل». هذا هو الكلام التصوّفي الحقيقي، كلام الرجل الواعي.

فما هو سبب قلقكم إذا؟ هل يمكنكم، بسبب كل القلق الذي لديكم، أن تضيفوا لحظة واحدة إلى حياتكم؟ لم الاهتمام بالقد؟ هل هناك حياة بعد الموت؟ هل سأحيا بعد الموت؟ لم الاهتمام بالقد؟ إندمجوا في اليوم الحاضر. قال أحدهم: «الحياة هي ما يحصل لنا فيما نكون منشغلين بعمل خطيئ أخرى». ذلك مثير للشفقة. عيشوا اللحظة الحاضرة. هذا أحد الأشياء التي ستنشئون إلى حدوتها فيما تصيرون واعين. ستجدون أنكم بئس تعيشون في الوقت الراهن. متذوّقين كل لحظة فيما تحيونها. علامة أخرى واضحة هي عندما تستمعون إلى السيمفونية نوتة تلو الأخرى، ولا تريدونها أن تتوقف.

الذكريات العالقة

يقودني ذلك إلى فكرة أخرى، موضوع آخر. إلا أن هذا الموضوع يرتبط بشكل أو بآخر بما كتبت أقوله وباقتراحي أن تكون واعين لكل ما نضيفه إلى الواقع. لذاخذ ذلك خطوة بخطوة.

أخبرني راهب يسوعي، ذلك اليوم، كيف أنه ألقى منذ بضع سنوات محاضرة في نيويورك، حيث كان البورتوريكيون غير محبوبين على الإطلاق في ذلك الوقت بسبب بضعة حوادث. كان الناس يثرثرون عليهم بكل ما يخطر ببالهم. لذلك فقد قال في محاضرتة: «دعوني أقرأ عليكم بضعة أشياء مما يقوله الناس في نيويورك عن المهاجرين». قرأ ما كان يقوله الناس بالضبط عن الإيرلنديين، عن الألمان، وعن كل موجة أخرى من المهاجرين الجدد أتت إلى نيويورك كل بضع سنوات. لقد أحسن الصياغة عندما قال: «لا يجلب هؤلاء الناس معهم الميل إلى الجنوب؛ يجتحمون فقط عندما يواجهون مواقف معينة هنا. ينبغي لنا فهمهم. إن أردتم علاج الموقف، فمن غير المفيد على الإطلاق التصرف انطلاقاً من الأحكام المسبقة. نحتاجون إلى التفهم، لا الإدانة». هكذا يتم التغيير فيكم، لا من خلال الإدانة، لا من خلال إطلاق النعوت على أنفسكم، بل من خلال فهم ما يجري. لا يحدث ذلك عندما تقولون إننا خطاة بغيضون. لا، لا، لا، لا!

للحصول على الوعي، ينبغي أن تبصروا، ولن يمكنكم القيام بذلك إن كنتم تطلقون أحكاماً مسبقة. ننظر إلى كل شيء، وإلى كل شخص تقريباً، انطلاقاً من أحكامنا المسبقة. ذلك كافٍ لإتباطؤ همة أي كان تقريباً.

يشبه ذلك لقائي بصديق قديم. فأقول له: «أهلاً توم، من الجميل رؤيتك». ثم أعانقه بحرارة. من الذي أعانقه هنا، توم، أم ذكرياتي عنه؟ إنساناً حياً أم جثة؟ إنني أفترض أنه لم يزل الشخص الساحر ذلك الذي ظننت أنه هو. أفترض أنه لا يزال متوافقاً والفكرة التي أملكها عنه، متوافقة وذكرياتي عنه وخواطري بشأنه. لذلك أعانقه. لاكتشف بعد خمس دقائق فقط أنه تغير وأنه لم يعد يُثير اهتمامي. لقد عانقت الشخص الخطأ.

إن أردتم أن تزوا إلى أي مدى ذلك صحيح، فاصفوا إلى هذا: ذهبت راهبة من الهند لأجل رياضة روحية. كانت كل راهبات جماعتها يقلن: «أوه، إننا نعلم، ذلك جزء من شخصيتها؛ نحضر ورش عمل ورياضات روحية باستمرار؛ لكن ما من شيء يغيرها». والآن، يحصل أن هذه الراهبة تتغير تحديداً في هذه الورشة أو مجموعة العلاج أو مهما كان ما شاركت فيه. لقد تغيرت؛ الكل يلاحظ الفرق. والكل يقول: «يا إلهي، لقد تبصرت حقاً، أليس كذلك؟». لقد

فعلت، وإمكاناتهم رؤية الفارق في سلوكها، في جسدها، في وجهها، دائماً
يمكنكم ملاحظة ذلك عندما يكون ثقة تغتر داخل. إنه يسجل على الدوام
في الوجه، في العين، في الجسد. حسن، تعود الراهبة إلى جماعتها، وبما أن
الجماعة لديها حكم مسبق، فكرة ثابتة عنها، فإنهن سيستمررن في النظر إليها
عبر عيون الأحكام المسبقة تلك. إنهن الوحيدات اللواتي لا يمكنهن ملاحظة
لن تغتر فيها. يقلن: «أوه حسناً، تبدو أشد حيوية بقليل، لكن انتظروا بعض
الوقت وستعود إلى اكتئابها». وفي غضون بضعة أسابيع تعود إلى اكتئابها، إذ
تتفاعل مع رد فعلهن. ويقلن جميعاً: «أرايتم، لقد قلنا لكم ذلك، لم تتغير». إلا
أن المسألة تكمن في أنها قد فعلت، غير أنهن لم يرين ذلك. للتوقعات المسبقة
نتائج مدمرة على مستوى الحب والعلاقات الإنسانية.

مهما كانت العلاقة، إلا أنها تستلزم من غير شك أمرين اثنين: وضوحاً في
الرؤيا (يا أكبر مقدار ممكن: قد يجادل بعضهم في مقدار وضوح الرؤيا الذي
بإمكاننا الحصول عليه، إلا أنني لا أشك في أن أمراً سيُجادل في جدوى
التوجه نحوها) ودقة الاستجابة. غالباً ما سنتمكنون من الاستجابة بدقة،
عندما تكون لديكم رؤيا واضحة. أما عندما تكون زاكم مشوشة فمن غير
المرجح أن تستجيبوا بدقة. كيف يُمكنك أن تحب شخصاً لا تتمكن حتى من
رؤيته؟ أتمكن حقيقة من رؤية شخص تنجذب إليه؟ أتمكن حقيقة من
رؤية شخص نخافه وبالتالي نكرهه؟ إننا نكره دوماً ما نخافه.

يقول لي الناس في بعض الأحيان: «رأيت الحكمة مخافة الله». لكن انتظروا
دقيقة. أمل أنهم يفهمون ما يقولون، إذ إننا نكره دوماً ما نخافه. نرغب في
تدمير ما نخافه والتخلص منه أو تجنبه. عندما نخاف شخصاً، فإنك نكرهه.
نكرهه بالمقدار الذي نخافه فيه. وكذلك فإنك لا تراه، لأن مشاعرك تقف حائلاً
دون ذلك. ويصبح ذلك أيضاً في حال انجذابك إلى شخص ما. عندما يكون
ثقة حب حقيقي، فإنك لا تستمر في حب أو كره الأشخاص بمعنى الكلمة
المعتاد، بل تراهم بوضوح وتستجيب بدقة. إلا أنه، وفي المستوي البشري
هذا، فإن محبتك، كراهيتك، تفضيلاتك وانجذاباتك، إلخ... تستمر في
اعتراض طريقك. لذا، يتوجب عليك أن تعي أحكامك المسبقة، ما تحب، ما
نكره، وما تنجذب إليه. جميعها حاضرة، وتأتي من ظروفك. كيف لك أن
تحب أشياء لا أحبها؟ لأن ثقافتك مختلفة عن ثقافتني. تنشئتك مختلفة عن
تنشئتي. لو أعطيتك لتأكل بعض الأشياء التي استذوقها، لربما تفرزت نفسك
منها.

ثقة أشخاص في أنحاء معينة من الهند يحبون لحم الكلاب. على الرغم من
أنه لو قيل لأخرين بأنهم يأكلون شرائح لحم الكلب، لأصيبوا بالغثيان. لم؟ إنه
يكيف مختلف، إنها برمجة مختلفة. لأصيب الهندوس بالغثيان فيما لو
أخبروا بأنهم كانوا يأكلون لحم البقر، فيما يستمتع به الأميركيون أيما
استمتاع. فتساءلون: «ولكن، لم لا يأكلون لحم البقر؟». للسبب ذاته الذي
يمنعكم من أكل لحم كلابكم المدللة، إنه السبب ذاته. إذ تمثل البقرة للفلاح

الهندي ما تمثله لكم كلابكم. لا يريد أن يأكلها. هنالك أحكام ثقافية مسبقة موجودة بشكل تلقائي، نحمي الحيوان المفيد في أعمال الزراعة، إلخ.

ما السبب الحقيقي، إذن، الذي يجعلني أقع في حب شخص ما؟ ما الذي يجعلني أقع في حب نوعية معينة من الأشخاص دوناً عن غيرها؟ يحدث ذلك لأنني مكيف على هذا الشكل. لدي صورة لاواعية، بأن هذا النوع من الأشخاص يروقني، يجذبني. وعندما التقى فتاة من هذا النوع أغرم بها بجنون. ولكن، هل تمكنت من رؤيتها؟ لا! سأراها فقط بعد أن أترؤجها! ساعتها تأتي اللحظة! وساعتها فقط لربما يبدأ الحب. إلا أنه لا علاقة للوقوع في الحب بالحب على الإطلاق. هذا ليس بحب، إنه رغبة، رغبة مشتعلة. تريد، من صميم قلبك، أن تقول لك تلك المعبودة، بأنك تفتنها. يمنحك ذلك شعوراً عظيماً. في الوقت عينه، يقول كل من سواك: «ما الذي يراه فيها بحق الجحيم؟». إلا أن ذلك يعود إلى التنكيف الخاضع له. - إنه لا يرى. يقال بأن الحب أعمى. صدقوني، لا شيء يُرى بصفاء كالحب الحقيقي. إنه الشيء الذي يرى بأكبر قدر ممكن من الوضوح في العالم. الإنسان أعمى، العلاقات عمياء. التشبث، التوق، والرغبة، كلها عمياء. لا الحب الحقيقي. لا تدعوا ذلك حباً. ولكن، لقد تم بالطبع تدنيس الكلمة في معظم اللغات الحديثة. يتحدث الناس عن ممارسة الحب والوقوع في الحب. كمثال الصبي الذي يقول للفتاة: «الم يسبق لك الوقوع في الحب؟». فتجيب: «لا، لقد سبق أن اختبرت الاستلطاف».

عم يتحدث الناس إذاً، عندما يقولون إنهم وقعوا في الحب؟ أول ما نحتاج إليه هو وضوح الرؤية. أحد أسباب عدم تمكننا من رؤية الناس جلي - إذ إن عواطفنا، تنكفئنا، ما نحب وما نكره، كل ذلك يعترض الطريق. يتوجب علينا التمسك بهذه الحقيقة. ولكن يجب التمسك أيضاً بأشياء أعمق جوهرًا - بأفكارنا، باستنتاجاتنا، بمفاهيمنا. سواء أصدقتم أم لا، فإن الأمر ينتهي بكل مفهوم أريد له مساعدتنا على الاتصال بالواقع. بأن يصبح عائقاً أمام اتصالنا بالواقع، لأننا ننسى، عاجلاً أم آجلاً، أن الكلمات ليست هي الموضوع. المفهوم والواقع ليسا الشيء ذاته. إنهما مختلفان. لهذا السبب تحديداً قلت لكم في وقت سابق بأن الحاجز الأخير أمام إيجادنا الله هو كلمة «الله» ذاتها، ومفهوم الله. سيترضض الطريق إن لم تعيدوا انتباهاً لذلك. لقد أريد له أن يكون عاملاً مساعداً؛ ويمكنه أن يكون كذلك، إلا أن بإمكانه أن يكون حاجزاً كذلك.

لنتكلم بشكلٍ ملموس

كلّ مرّة أمتلك فيها مفهوماً، فإنه يعني ذلك الشيء الذي بإمكانني تطبيقه على عددٍ من الأفراد. لسنا نتكلم في هذا على عن اسمٍ محدد ومستقلٍّ مثل ماري أو جون؛ لا يمتلك ذلك معنىً مفهوماً. إذ ينطبق المفهوم على أيّ عددٍ من الأفراد، أفراد لا يحضون. المفاهيم عالميّة. على سبيل المثال، يمكن كلمة «وريقة» أن تنطبق على كلّ ورقة في شجرة؛ الكلمة ذاتها تنطبق على كلّ الوريقات المستقلة تلك. علاوةً على ذلك، تنطبق الكلمة ذاتها على كلّ الوريقات في كلّ الأشجار، كبيرةً كانت أم صغيرة، طريةً أم جافة، صفراءً أم خضراء، أوراق الموز. فإن قلتُ لكم إذا إنني رأيتُ وريقة هذا الصباح، فإنكم لا تمتلكون في الواقع فكرةً عما رأيت. لنزّان كنتم تفهمون ذلك. لديكم فكرةً عما لم أراه. لم أَر حيواناً. لم أَر كلباً. لم أَر إنساناً. لم أَر حذاءً. لديكم نوعٌ من الفكرة العامة عما رأيت، من دون أن تكون محدّدة، من دون أن تكون ملموسة. لا تشير كلمة «إنسان» إلى الزجل البدائي ولا إلى الزجل المتحضّر؛ لا تشير إلى رجل ناضج ولا إلى طفل؛ لا تشير إلى ذكر ولا إلى أنثى؛ لا تشير إلى هذا السنّ أو ذلك؛ لا تشير إلى هذه الثقافة أو تلك، بل إلى المفهوم. الإنسان موجود بشكلٍ ملموس؛ لن تجدوا يوماً إنساناً شاملاً مطابقاً لمفهومكم الخاص. يشير مفهومكم إلى الاتجاه، لكنه لن يكون مصيباً بشكلٍ كاملٍ على الإطلاق؛ يفتقر إلى الفرادة، إلى التماسك. المفهوم شامل.

عندما أعطيتكم مفهوماً، فإنني أعطيتكم شيئاً، مع أنّه ضئيل. المفهوم قيم للغاية، في غاية الإفادة للعلم. على سبيل المثال، إن قلتُ بأنّ كل شخصٍ هنا هو حيوان، فسيكون ذلك في غاية الدقة من وجهة النظر العلميّة. إلّا أننا أكثر من مجرد حيوانات. إن قلتُ بأنّ ماري جالين حيوان، فهذا صحيح؛ ولكن، لكوني قد أغلقت شيئاً أساسياً متعلقاً بها، فذلك خاطئ؛ إنه يظلمها. عندما أسفّي شخصاً امرأة، فهذا صحيح؛ إلّا أنّ في ذلك الشخص العديد من الأشياء التي لا تتفق ومفهوم المرأة. إنّها على الدوام المرأة المحدّدة تلك، الملموسة، الفريدة، التي يمكن أن نختبرها، لا أن نؤطرها في مفهومٍ ما. ينبغي أن أرى الشخص الملموس بنفسه، أن أختبره بنفسه، أن أحسّه بنفسه. يمكن حَسّ الفرد لا تأطيره بمفهوم.

الشخص يفوق الفكرة الذهنيّة. قد يشعر كثيرون بينكم بالفخر لدى تسميتهم «أميركيتين»، كما قد يكون العديد من الهنود فخوريين بتسميتهم «هنوداً». ولكن ما هو الأميركي وما هو الهندي؟ إنه مصطلح، وليس جزءاً من طبيعتكم. كلّ ما حصلتم عليه هو تسمية. لسنتم حقيقةً على درايةً بالشخص، غالباً ما يهمل المفهوم أو يفعل شيئاً في غاية الأهميّة، شيئاً ثميناً لا يمكن إيجاده إلّا في الواقع، وهو الفرادة الملموسة. لقد عبّر كريشنا مورتّي العظيم

عن ذلك بشكل رائع عندما قال: «يوم تعلمون الطفل اسم العصفور، لن يعود بمقدوره رؤية ذلك العصفور ثانية». يا لصحة ذلك المرة الأولى التي يرى فيها الطفل ذلك الكائن الحي، المتحرك والمليء بالزغب، ويقول له أحدكم: «ذاك عصفورٌ دوري»، ففي المرة التالية التي يرى فيها الطفل كائنًا متحركًا ذا زغب، مشابهاً له، سيقول: «أوه، عصفورٌ دوري». رأيت الدوري من قبل. ولقد مللته، إن لم تنظروا إلى الأشياء من خلال مفاهيمكم، فلن تشعروا يوماً بالملل. تكون كل مرة فريدة من نوعها. لن يشبه أي دوري الآخر على الرغم من كل أوجه الشبه بينها. تقدم إلينا أوجه الشبه هذه مساعدة جقة، إذ تمكّتنا من إعطاء الأمثلة المجردة، بحيث يصبح لدينا مفهوم ما. إنها لمساعدة جقة، من وجهة نظر التواصل، التربية والعلم. لكن ذلك يؤدي أيضاً دوراً مضللاً ومعيّفاً أمام رؤية الفرد الملموس هذا. إن كان ما تختبرونه هو مجرد مفاهيم، فإنكم لا تختبرون الواقع، لأنّ الواقع ملموس. أما المفهوم فيساعدكم ويقودكم إلى الواقع، ولكن، عندما تصلون إليه، سيتوجب عليكم حذسه واختباره بشكل مباشر.

إحدى الصفات الأخرى للمفهوم أنه ساكن، فيما الواقع في تدفق مستمر. إننا نستخدم الاسم ذاته للدلالة على شلاكلات «نياجرا»، إلا أنّ ذلك الجسم من المياه متغيّر باستمرار. خذوا كلمة «نهر» مثلاً: إنّ مياهه تسيل باستمرار. لديكم كلمة واحدة للدلالة على «الجسم البشري»، إلا أنّ خلايا أجسامكم في حالة تجددٍ مستمر. لنفترض، على سبيل المثال، أنه ثمة رياح هائلة في الخارج وأريد للناس في بلدي أن يمتلكوا فكرة عن ماهية العاصفة أو الأعصار الأميركي. لذا فإنني أنقذ الرياح في علية سجاير وأخذها معي إلى بلدي لأقول: «أنظروا إلى هذا». من البديهي أنه حين يتمّ النقاط هذه الرياح، فإنها لا تظل عاصفة، أليس كذلك؟ أو لنقل يأتي أريد لكم أن تشعروا بمعنى جريان النهر فأجلبه لكم في دلو. في اللحظة التي أضع فيها المياه في الدلو، فإنها تنوقف عن الجريان. في اللحظة التي نضعون فيها الأشياء في مفاهيم، فإنها تنوقف عن الجريان: تصبح ساكنة، مبنية. الموجه المتجددة ليست بموجة. الموجه هي في الأساس حركة، نشاط؛ وعندما تجفدونها، لا تعود موجة. المفاهيم متجددة دوماً. والواقع مندفق. في النهاية، إن كنا نصدق المتصوفة (وذلك لا يتطلب جهداً كبيراً لفهمه، أو حتى لتصديقه، إلا أنه ليس بإمكان أحد رؤية ذلك دفعة واحدة)، فإنّ الواقع كل إجمالي، فيما تقوم الكلمات والمفاهيم بتجزئة الواقع. لهذا تكون الترجمة صعبة من لغة إلى أخرى، لأنّ كل لغة تجزئ الواقع بشكل مختلف. لا يمكن ترجمة كلمة Home الإنكليزية إلى الفرنسية أو الإسبانية. فكلمة Casa لا تعني Home تماماً؛ إذ تتضمن Home معاني فريدة في اللغة الإنكليزية. لكل لغة كلمات وتعابير غير قابلة للترجمة، لأننا نجزي الواقع ونضيف إليه شيئاً أو نطرح منه شيئاً آخر، ويبقى الاستعمال في حالة تغير مستمر. الواقع كل إجمالي، نقتطعه لصنع المفاهيم ونستعمل الكلمات للإشارة إلى أجزائه المختلفة. إن لم يسبق لكم، على سبيل المثال، رؤية حيوان في حياتكم، ووجدتم ذات يوم ذبلاً - مجرد ذيل - وقال أحدهم: «إنه ذيل»، فهل ستتكوّن لديكم فكرة عن ماهية الذيل إن لم يكن

لديكم أي فكرة عما يكونه الحيوان؟

في الواقع، تقوم الأفكار بتجزئة رؤيا، حديس ما، أو اختبار للواقع بصفته كلاً إجمالياً. هذا ما يحاول المتصوفة أن يخبرونا إياه على الدوام. لا يمكن الكلمات أن تمنحكم الواقع. يمكنها أن تشير فقط، ويمكنها أن تدل فقط. تستخدمونها مؤشرات للوصول إلى الواقع. ذات مرة، كان هناك كاهن هندوسي على خلاف مع فيلسوف ادعى أن الحاجز الأخير أمام الوصول إلى الله هو كلمة «الله»، مفهوم «الله». كان الكاهن مصدوماً للغاية بهذا، إلا أن الفيلسوف قال له: «ليس الحمار الذي تمتطيه - والذي تستخدمه للذهاب إلى منزل ما - سوى الوسيلة التي تدخل بها هذا المنزل. تستخدم المفهوم للوصول، ومن ثم تتبرجل وتمضي إلى أبعد من ذلك». لستم بحاجة إلى أن تكونوا أنفسكم متصوفة لتدركوا أن الواقع هو شيء لا يمكن أسره من خلال الكلمات أو المفاهيم. لتعرفوا الواقع ينبغي لكم معرفة ما وراء المعروف.

هل تفرع هذه الكلمات جرساً ما لديكم؟ أولئك الذين يلقون عبارة غيمة اللامعرفة من بينكم، سيكون في وسعهم التعرف على التعبير. يملك الشعراء، الرسامون، المتصوفة، والفلاسفة العظماء كلهم تلميحات ما عن حقيقتها. لنفترض أنني كنت ذات يوم أراقب شجرة ما. حتى اليوم، كنت كلما رأيت شجرة أقول: «حسن، إنها شجرة». إلا أنني اليوم عندما أنظر إلى الشجرة، فإنني لا أرى شجرة. أقله، لا أرى ما أنا معتاد رؤيته. أرى شيئاً بنضارة رؤية الطفل. لا أملك الكلمات للتعبير عن ذلك. أرى شيئاً فريداً، كلياً، متدفقاً، غير مجزأ. وأنا مرتاع. فلو أنكم سألتهموني: «ما الذي رأيته؟» فبم تنوّهون أن أجيب؟ ليس لدي الكلمات للتعبير عن ذلك. ما من كلمات للواقع. لأنني ما أن أضع كلمة له، فإننا نعود ثانية إلى المفاهيم.

وإن لم يكن بإمكانني التعبير عن هذا الواقع المرئي لحواسي، فكيف يمكن المرء أن يعبر عما لا يمكن رؤيته بالعين أو سماعه بالأذن؟ كيف للمرء أن يجد الكلمات المعبرة عن واقع الله؟ هل بدأت تفهمون ما كان توما الأكويني وأوغسطينس وكل الباقيين يقولونه، وما تعلمه الكنيسة باستمرار عندما تقول بأن الله سر، أنه غامض بالنسبة إلى العقل البشري؟

كتب العظيم كارل راهنر في واحدة من رسائله الأخيرة، إلى شاب ألماني مدمن على المخدرات يسأله المساعدة. كان المدمن قد قال: «تحدثون، أنتم اللاهوتيين عن الله، لكن كيف يمكن هذا الإله أن يكون ذا صلة بحياتي؟ كيف يمكنه أن ينتشلني من المخدرات؟». قال له راهنر: «ينبغي لي أن أعترف لك وبكل صدق بأن إله كان، في نظري، وسيظل على الدوام، سراً مطلقاً. لا أفهم ماهية الله؛ ما من أحد يمكنه ذلك. لدينا جميعاً تلميحات، ومضات؛ نقوم بمحاولات متكررة، غير وافية لوضع هذا السر في كلمات. لكن، ما من كلمة تفهيه حقه، ما من جملة تفهيه حقه». وفي حديث له مع مجموعة من اللاهوتيين في لندن، قال راهنر: «مهمة اللاهوتي هي تفسير كل شيء من

خلال الله، وتفسير الله بصفته غير قابل للتفسير». سرٌ غير قابل للتفسير. سرٌ لا يمكن أحداً معرفته؛ لا يمكن أحداً الإفصاح عنه. سرٌ يجعل واحدنا يقول: «آه... آه...».

الكلمات هي مؤشرات، وليست موصفات. للأسف الشديد، يقع الناس في فخ الوثنية، لأنهم يعتقدون أنه في ما يخص الله، الكلمات هي المهمة. كيف يمكنكم أن تكونوا على هذا القدر من الجنون؟ هل يمكنكم أن تَجثُوا أكثر من ذلك؟ حتى عندما يتعلق الأمر بالكائنات البشرية، بالأشجار والأوراق والحيوانات، فليست الكلمات ما يهم. يمكن سماعكم تقولون إنه في ما يتعلق بالله، ألا تكون الكلمة شيئاً واحداً؟ ما الذي تقولونه؟ قال لي دارس للنصوص المقدسة ذو شهرة عالمية، بعد أن حضر ندوة دراسية أقيمتها في سان فرانسيسكو: «يا إلهي، أدرك الآن، وبعد الاستماع إليك، أنني كنت أعبد الأصنام طوال حياتي!». لقد قال ذلك بشكل علني. «لم يسبق لي ملاحظة أنني كنت أعبد الأصنام. لم يكن صني مصنوفاً من المعدن أو الخشب؛ بل كان صنفاً فكرياً». هؤلاء هم عبدة الأصنام الأشد خطورة، يستخدمون مكوّناتاً مأكراً، وهو العقل، لإنتاج آلهتهم.

ما أود أن أوصلكم إليه هو التالي: وعي الواقع من حولكم. والوعي يعني ملاحظة. ومراقبة ما يحدث فيكم ومن حولكم. «إنه متحرك»: هذه العبارة في غاية الدقة. فالأشجار، العشب، الأزهار، الحيوانات، الصخور، الواقع كله متحرك. يتوجب عليكم ملاحظته، وعليكم مراقبته. لكم هو مهم للكائن البشري ألا يكتفي بمراقبة نفسه أو نفسها، بل أن يراقب الواقع بأكمله! هل أنتم أسرى مفاهيمكم؟ أتوتون الخروج من سجنكم؟ أنظروا! إذا راقبوا: أنفقوا ساعات في المراقبة. ماذا نلاحظ؟ أي شيء. وجوه الناس، أشكال الأشجار، عصفور إبان تحليقه، كومة من الحجارة، راقبوا العشب ينمو. كونوا على اتصال بالأشياء، انظروا إليها، على أمل أن تتمكنوا في النهاية من الخروج من الأنماط القاسية هذه التي طوّرها كل منا، الخروج مما فرضته علينا أفكارنا وكلماتنا. على أمل أن نرى ما الذي سنراه؟ هذا الشيء الذي نختار أن ندعوه الواقع، مهما كان فإنه أكبر من المفاهيم والكلمات. ذلك تمرين روحي - مرتبط بالروحانية - مرتبط بالخروج من أقفاصكم، خارج سجن المفاهيم والكلمات.

لكم من المحزن أن نجتاز الحياة من غير أن نتمكن يوماً من رؤيتها بأعين الطفل. هذا لا يعني أنه يتوجب عليكم إسقاط مفاهيمكم كلية؛ إنها ثمينه جداً. على الرغم من أننا نبدأ من دونها، إلا أن لها وظيفة ثمينة للغاية. فبفضلها نطوّر ذكاءنا. لسنا مدعوّين إلى أن نصير أطفالاً، بل إلى أن نصير مثل الأطفال. يتوجب علينا السقوط من مرحلة البراءة ليتم طردنا من الفردوس؛ يتوجب علينا أن نطوّر «الأنا» و«الذات» من خلال هذه المفاهيم. وعندما سيوجب علينا العودة إلى الفردوس، نحتاج إلى التحرر ثانية. نحتاج إلى أن ننزع عنا الرجل القديم، الطبيعة القديمة، الذات المكيفة، وأن نعود إلى حالة

الطفل لكن من دون أن نكون أطفالاً. عندما تبدأ الحياة ثانية، فإننا ننظر إلى الواقع بتعجب، لكنه ليس تعجب المتصوفين الذكي؛ بل هو تعجب الأطفال عديم الشكل. من ثم يموت التعجب ليستبدل به الشك، بما أننا نطور لغة وكلمات ومفاهيم. من ثم نأمل، فيما لو كنا محظوظين، أن نعود إلى التعجب.

الخسارة من أجل الكلمات

يُعبّر داغ هيرغشولد، الأمين العامّ الأسبق للأمم المتحدة، عن ذلك بشكل جميل قائلاً: «لا يموت الله يوم تكف عن الإيمان بالآلوهة الشخصية. إلا أننا نموت يوم تكف حياتنا عن الاستدارة بإشعاع التعجب الثابت والمتجدد بشكل يومي». ذلك الذي ينبع من مصدرٍ يفوق أيّ منطق. لا ينبغي لنا الجدل بشأن كلمة، لأن «الله» هو مجرد كلمة، مجرد مفهوم. لا يجادل أحدنا بشأن الواقع؛ نتجادل فقط حول الآراء، حول المفاهيم، حول الأحكام. أسقطوا مفاهيمكم، أسقطوا آراءكم، أسقطوا أحكامكم المسبقة، وسترون ذلك.

«بما أننا لا نستطيع أن نعلم ماهية الله بل ما ليس هو الله، فإنه لا يمكننا أن نتحدث عن ماهيته، بل عما ليس هو عليه». هذه هي مقدمة القديس توما الأكويني في كتابه الخلاصة اللاهوتية. لقد سبق لي أن ذكرت تعليق توما الأكويني على كتاب بويثيوس الثالث المقدّس - De Sancta Trinitate - الذي يقول فيه بأنّ أسامي درجات معرفة الله هي معرفة الله بصفته لا بدرك. وفي كتابه Questio Disputatae de Potentia Dei - سؤال مثير للجدل حول قدرة الله، يقول: «هذا هو الجوهر في المعرفة البشرية لله - أن نعرف أننا لا نعرف الله». يُعتبر هذا السيد أمير اللاهوتيين. كان متصوّفاً، وهو اليوم قديس في الكنيسة. إننا لواقفون على أرضية جميلة جداً.

لدينا في الهند سنسكريتياً يقول في هذا الخصوص: Neti, neti. وهذا يعني: «ليس ذلك، ليس ذلك». يُشار إلى المنهجية الخاصة بتوما الأكويني بعبارة *Via negativa*، أي الأسلوب التنزيهي. كتب س.س. لويس يومياته الشخصية عندما كانت زوجته تُحتضر. سمّى تلك اليوميات «حزنٌ ملحوظ». كان قد تزوّج سيّدة أميركية أحبها بشدة. وهو قال لأصدقائه: «لقد منحني الله في ستينيات عمري ما حجه عني في عشريناته». كان بالكاد قد تزوّجها عندما ماتت ميتة مؤلمة بالسرطان. قال لويس بأنّ إيمانه قوَّض بأكمله، كبيتٍ من ورق اللعب. في ذلك الوقت، كان من أعظم الكتاب المدافعين عن المسيحية، ولكن عندما ضربت الكارثة بينه، ساءل نفسه: «هل الله أب محب، أم يؤتي دور المشرّح الأعظم؟». هنالك أدلة كافية على كلا الأمرين! أتذكر أنه عندما أصيبت أمي بالسرطان، قالت لي أختي يومها: «توني، لم سمح الله بحدوث ذلك لأمتنا؟». قلتُ لها: «عزيزتي، لقد توفي العام الماضي مليون من الناس في الصين بسبب المجاعة الناجمة عن الجفاف، ولم تطرحي يوماً هذا السؤال». في بعض الأحيان، أفضل ما يمكن أن يحدث لنا هو أن نستهبط على الواقع، عندما يضربنا البؤس، نتوجّه إلى الإيمان، كما فعل سي.س. لويس. قال بأن الشكوك لم تعثره يوماً من قبل تجاه الناس الذين يتجاوزون محنة الموت، ولكن عندما توفيت زوجته، لم يقد يهتلك ذلك اليقين. لماذا؟

لأن كونها على قيد الحياة كان أمراً في غاية الأهمية لديه. بعدد لويس، كما يعرفون، استاذ المقارنات والمجازات. يقول: «ذلك يشبه الحبل». يقول لك أحدهم: أتراد بحتمل وزناً قدره سيعون كبلوغراماً؟ فتجيب بنعم. يقول لك عندها: «حسن، سنربط أعز أصدقائك بهذا الحبل وندليه به». تقول عندها: «انتظروا لحظة، دعوني أختبر ذلك الحبل ثانية». «لم تعد واثقاً من ذلك الآن». يقول لويس في مذكراته أيضاً بأنه لا يمكننا معرفة أي شيء عن الله، لا بل إن تساؤلنا عنه سخيفة. لم؟ لأنها تبدو كما لو أن المولود أعشى يسأل: «هل اللون الأخضر حار أم بارد؟» Neti, neti ليس هذا. «أهو طويل أم قصير؟» ليس هذا. «أهو حلو أم حامض؟» ليس هذا. «أهو مستدير، بيضاوي، أم مربع؟». ليس هذا، ليس هذا. ليس لدى الأعشى أي كلمات، أي مفاهيم، عن لون لا يملك عنه أدنى فكرة، أي حدس، أو أي خبرة. بإمكانك أن تكلمه من خلال القياس فقط. مهما سأل، قلن يمكنك إلا أن تقول «ليس هذا». يقول س. س. لويس في مكان ما بأن ذلك يشبه التساؤل عن عدد الدقائق في اللون الأصفر. يمكن الجميع أن يأخذوا السؤال بمنتهى الجدية، أن يتناقشوا ويتقاتلوا حوله. قد يقترح أحدهم وجود خمسين وعشرين قطعة جزر في اللون الأصفر، فيجيب آخر: «لا، بل سبع عشرة قطعة بطاطس». ويتقاتلون فجأة. ليس هذا، ليس هذا!

هذا هو الجوهر في معرفتنا البشرية عن الله، معرفة أننا لا نعرف. مأساتنا الكبرى أننا نعرف أكثر مما ينبغي. نعتقد أننا نعرف، وهذه هي مأساتنا؛ فلا نكتشف أبداً. في الواقع، لقد كثر ثوما الأكويني (وهو ليس مجرد لاهوتي، بل فيلسوف عظيم كذلك) القول بأنه «لا يمكن كل جهود العقل البشري أن تستنزف جوهر ذبابة واحدة».

التكيف الثقافي

هاكم شيئاً آخر عن الكلمات. قلت لكم سابقاً بأن الكلمات محدودة. لديّ المزيد لأضيفه في هذا الصدد. ثقة كلمات لا تقابل شيئاً. أنا هنديّ على سبيل المثال، ولنفترض أنّي أسير حربي في باكستان، ويقولون لي: «حسناً، سنأخذك اليوم إلى الحدود، لتلقي نظرة على بلدك». فيصحبونني إلى الحدود، وأنظر عبرها قائلاً: «آه يا بلدي، يا بلدي الجميل. ها إني أرى قرى وأشجاراً وتلالاً. هي نبي ارضي!». بعد هنيهة يقول لي أحد الحراس: «معذرة، لقد ارتكبنا خطأ ما. ينبغي أن نقطع عشرة أميال أخرى». ما الذي كنتُ أتفاعل معه؟ لا شيء. لقد احتفظت بتركيبي على كلمة معينة: الهند. لكن الأشجار ليست الهند؛ الأشجار هي الأشجار. في الواقع، ما من حدود أو خط حدودي. لقد وضعها العقل البشري؛ وهي قد وضعت في الأغلب من قبل سياسيين أغبياء وجشعين. كان بلدي، في ما مضى، بلداً واحداً؛ وها هو أربعة اليوم. وإن لم ننتبه فقد يصير ستة. عندها سيكون لدينا ستة أعلام، ستة جيوش. لهذا السبب بالذات لن تزوني يوماً أحبي علقاً. إني أمقت كل الأعلام الوطنية لأنها أصدام. ما الذي نحياه؟ ساحتي الإنسانية لا علقاً مع جيش من حوله.

الأعلام هي في رؤوس الناس، وعلى أي حال، ثقة آلاف الكلمات في مفرداتنا لا ترتبط بالواقع على الإطلاق. إلا أنها تقدح فينا المشاعرة لذلك نبداً برؤية أشياء غير موجودة. نرى في الواقع جبالاً هندية عندما لا تكون موجودة، ونرى كذلك أناساً من الهند غير موجودين. تكيفكم الأميركي موجود، وكذلك هي حال تكيفي الهندي. إلا أن هذا ليس بالشيء السار. كثيراً ما نتكلم في هذه الأيام، في بلدان العالم الثالث، على «الانثقاف»؟ ولكن ما هو ذلك الشيء المدعو ثقافة؟ لست سعيداً بهذه الكلمة. أيعني ذلك أنك ستودّ عمل شيء أنت مكيف على عمله؟ بأنك ستودّ أن تشعر بشيء لأنك مكيف على الشعور به؟ اليس ذلك بالشيء الآلي؟ تخيلوا رضيعاً أميركياً تم تبنيه من قبل زوج روسي، وأخذ إلى روسيا. ليس لديه فكرة عن كونه قد وُلد أميركياً. لقد تربى وهو يتكلم الروسية؛ سوف يعيش ويحيا من أجل بلده روسيا؛ سيكره الأميركيين. الطفل مطبوع بثقافته الخاصة؛ يخطو نحو أدبها الخاص. ينظر إلى العالم من خلال أعين ثقافته. الآن، إن أردتم ارتداء ثقافتكم بالطريقة عينها التي ترتدون بها ثيابكم، فهذا حسن. سترتدي المرأة الهندية الساري وسترتدي المرأة الأميركية شيئاً آخر، أمّا المرأة اليابانية فسترتدي الكيمونو الخاص بها. لكن ما من شخص يماهي نفسه مع ملبسه. إلا أنكم تودّون ارتداء ثقافتكم بشكل أشدّ تصميماً. تصبحون فخوريين بثقافتكم. يعلمونكم أن تكونوا فخوريين بها. دعوني أعبر عن ذلك بأقوى شكل ممكن. ثقة صديق يسوعي قال لي ذات مرة: «لا يمكنني، عند رؤية مسئول أو شخص فقير، ألا أعطيه صدقة. لقد أخذت ذلك عن أمي». كانت أمّه تقدم وجبة إلى كل فقير

عابر. قلت له: «جو، انتبه فهذا ليس بفضيلة؛ إنه عامل قهري، إنه جيد من وجهة نظر المتسؤل، لكنه ليس سوى عامل قهري». أذكر يسوعيًا آخر قال لنا ذات مرة في اجتماع خاصي بيسوعيني إقليمتنا هي بومباي: «أبلغ الثمانين من العمر؛ وأنا يسوعي منذ ست وخمسين سنة. ولم يسبق أن فوتت ساعة التأمل - ولا حتى مرة واحدة». يمكن ذلك أن يكون موضع تقدير كبير، لكن يمكنه أن يكون كذلك عاملاً قهرياً. ما من جدارة فيه إن كان يتم بشكل آلي. لا تكمن روعة تصرف ما هي أنه قد أصبح عادة لدينا، بل هي حساسيته، في الوعي به، في وضوح الرؤيا ودقة الاستجابة. يمكنني أن أقول نعم لمتسؤل وأن أصد آخر. لا أخضع لأي تكيف أو برمجة من خبراتي الماضية أو من ثقافتي. لم يطبع أحد أي شيء في، وإن كانوا قد فعلوا، فإني لم أعد أتصرف بناءً على ذلك. إن كانت لديكم خبرة سيئة مع أميركي، أو عضكم كلب أو كان لديكم خبرة سيئة مع نوعية معينة من الطعام، فستبقون متأثرين بقوة حياتكم بتلك الخبرة. وهذا سيئ! أنتم بحاجة إلى أن تتحذروا من ذلك. لا تحملوا معكم خبرات الماضي. في الواقع، لا تحملوا كذلك خبرات الماضي الجيدة. تعلموا معنى أن تختبروا شيئاً ما بكلية، ثم ارموه وانتقلوا إلى اللحظة التالية، غير متأثرين بسابقتها. ستسافرون عندها بقليل من المتاع بحيث تتمكنون من المرور من حرم الإبرة. لا تعرفون ما تعنيه الحياة الأبدية. لأن الحياة الأبدية هي الآن. في الآن السرمدي. هكذا فقط يستدخلون في الحياة الأبدية. لكن كم من الأشياء نحملها معنا! لا نتفرغ مطلقاً لمهمة تحرير أنفسنا، رمي المتاع، أن نكون أنفسنا. آسف للقول إنني حينما أذهب أرى مسلمين يستعملون دينهم، عبادتهم، وقرآنهم لإلهاء أنفسهم عن هذه المهمة. والشيء ذاته ينطبق على المسيحيين والهندوس.

أيمكنكم تخيل كائن بشري لم يعد متأثراً بالكلمات؟ يمكنكم إعطاؤه مقدار ما تريدون من الكلمات وسيظل قادراً على منحكم صفقة عادلة. يمكنكم أن تقولوا: «أنا كاردينال، أنا رئيس أساقفة وهلم جرا». إلا أنه سيظل قادراً على منحكم صفقة عادلة؛ سيراكم كما أنتم. إنه غير متأثر بالتسميات.

الواقع المُفلتر

أرغب في إضافة أمر آخر في ما يتعلق بإدراكنا الواقع. ودعوني أعتبر عن ذلك بشكل مجازي. يتوجب على رئيس الولايات المتحدة الأميركية تلقي تعليقات المواطنين. كما يتوجب على البابا في روما تلقي تعليقات الكنيسة بأكملها. هناك حرفيًا ملايين الأشياء التي يمكن التعليق عليها، إلا أنهم يتمكنون بالكاد من أخذها كلها، والقليل منها فقط يتم استيعابه. لذلك لديهم أناس موضع ثقة مكلفون القيام بتلخيص الأشياء ومراقبتها وفلترتها؛ وفي النهاية يصل بعضٌ منها فقط إلى مكاتبهم. والآن، هذا هو ما يحصل لنا. نتلقى تعليقات على الواقع من كل مسام أجسامنا وخلاياها وحواسها. إلا أننا نقوم بعملية فلتر مستمرة للأشياء. من يقوم بالفلتر؟ كيفنا؟ ثقافتنا؟ برمجتنا؟ الطريقة التي تعلمنا وفقها رؤية الأشياء واختبارها؟ يمكن لغثنا أيضًا أن تقوم بهذه الفلتر. ثقة الكثير من الفلتر التي تتم بحيث لا يتمكنون في بعض الأحيان من رؤية أشياء موجودة. يكفي النظر إلى شخص مصاب بالذهان ويشعر على الدوام بأنه مهدد من قبل شيء غير موجود، يترجم الواقع من خلال خبرات معينة من الماضي أو تكيفات معينة سبق له التعرض لها.

إلا أن هناك أيضًا شيطانًا آخر يقوم بالفلتر، يُدعى التعلق، الرغبة، التوق. جذر الأسى هو التوق. يشوّه التوق الإدراك ويدمره. تلاحقنا المخاوف والرغبات. يقول صمويل جونسون: «إن معرفة المرء بأنه سيترجح على سقالة طوال أسبوع، تكثف قدراته الذهنية بشكل رائع». تقوم بمحو كل شيء آخر، وتركز فقط على الخوف، أو الرغبة، أو التوق. لقد تم، وبطرق عديدة، تخديرنا عندما كنا صغارًا. لقد لقنا أن نحتاج إلى الآخرين. من أجل أي شيء؟ من أجل القبول، الاستحسان، التقدير، الإطراء - من أجل ما يدعونه النجاح. هذه كلمات لا تتوافق مع الواقع. إنها قناعات، أشياء مُختزعة. ما هو النجاح؟ إنها ما تقرّ مجموعة ما من الأشخاص بأنها أمور جيدة. قد تقرّ مجموعة أخرى أن الأمر ذاته سيئ. قد يُنظر إلى ما هو جيد في واشنطن على أنه أمر سيئ في دبر للكرتوزيين. قد يُعتبر النجاح في المحيط السياسي فشلًا في محيط آخر. إنها قناعات. إلا أننا نتعامل معها باعتبارها وقائم. السنا نفعل ذلك؟ لقد تمّت برمجتنا عندما كنا صغارًا على اللامعة. لقد لقنا أننا نحتاج إلى النقود لنكون سعداء، نحتاج إلى النجاح، شريك حياة جميل أو وسيم، عمل جيد، صداقة، روحانية، الله - سفوا هذه الأشياء بأنفسكم. قيل لنا: لن نكونوا سعداء ما لم تحصلوا على هذه الأشياء. والآن، فإن هذا ما أدعوه بالتعلق. التعلق هو الإيمان بأننا من غير شيء معين لن نكون سعداء. ما أن تقتنعوا بذلك - ويتسلل إلى اللاوعي، وينطبع في جذور كيائنا - حتى نكونوا قد اختهيتهم. تقولون «كيف لي أن أكون سعيدًا من دون أن أتمتع بصحة جيدة؟». دعوني أقول لكم: لقد التقيت بأشخاص يُحتضرون بسبب

السرطان لكنهم سعداء. لكن، كيف يمكنهم أن يكونوا سعداء إن كانوا يعرفون أنهم يموتون؟ لقد كانوا سعداء بالفعل. «كيف لي أن أكون سعيداً إن لم أمتلك المال؟». أحد الأشخاص لديه مليون دولار في حسابه المصرفي، إلا أنه يشعر بعدم الأمان؛ وآخر ليس لديه فعلياً أي أموال، ولا يبدو عليه الشعور بأي نوع من عدم الأمان. لقد تفت برمجته بشكل مختلف. هذه هي حقيقة الأمر. من غير المفيد إسداء النصيحة للشخص الأول عما يتوجب فعله؛ إنه يحتاج إلى التفهم. لا تقدم النصائح مساعدة كبيرة. نحتاجون إلى أن تفهموا أنه قد تفت برمجتكم؛ إنه إيمان زائف. تعرفوا إليه بصفته زائفاً، تعرفوا إليه بصفته خيالاً. ما الذي يفعله الناس طوال حياتهم؟ إنهم مشغولون في القتال؛ قتال، قتال، قتال. وهذا ما يسقونه البقاء. عندما يقول الأميركي من الطبقة المتوسطة بأنه يكسب عيشه، فليس العيش هو ما يكسبه، أوة لا لديه أكثر مما يحتاج إليه للعيش. تعالوا إلى بلدي وسترون ذلك. لا تحتاجون إلى كل تلك السيارات لتعيشوا. لا تحتاجون إلى مجموعة تلفزيونية لتعيشوا. لا تحتاجون إلى الماكياج لتعيشوا. لا تحتاجون إلى كل تلك الملابس لتعيشوا. لكن حاولوا أن تفنعوا الأميركي من الطبقة المتوسطة بذلك. لقد تم غسل أدمغتهم؛ لقد تفت برمجتهم. إنهم يفعلون وبكافحون ليحصلوا على الأغراض المرغوبة والتي ستجعلهم سعداء. أصفوا إلى القصة المثيرة للشفقة هذه - قضتكم، وقضتي، وقضة كل واحد فينا: «ما لم أحصل على هذا الشيء (مال، صداقة، أي شيء) فإنني لن أكون سعيداً؛ ينبغي علي أن أكافح للحصول عليه ومن ثم، ما أن أحصل عليه، حتى يتوجب علي الكفاح للمحافظة عليه. أحصل على إثارة مؤقتة، أه أنا في غاية الإثارة، لقد حصلت عليه!». ولكن، كم من الزمن يستمر ذلك؟ بضع دقائق، بضعة أيام على الأغلب. عندما تحصلون على سيارة جديدة، فكم من الزمن يمكن الإثارة أن تستمر؟ إلى أن يُثار تعلقكم التالي!

إن حقيقة الإثارة هي أنني أملها بعد برهة. قالوا لي بأن الصلاة كانت الشيء الكبير؛ قالوا لي بأن الله كان الشيء الكبير؛ قالوا لي بأن الصداقة كانت الشيء الكبير. من دون أن يعرفوا حقيقة الصلاة، أو من دون أن يعرفوا حقيقة الله، من دون أن يعرفوا حقيقة الصداقة، يعلقون الكثير على هذه الأشياء. إلا أننا نملها بعد برهة - نمل الصلاة، الله، الصداقة. أليس ذلك بهشيرة للشفقة؟ وما من مخرج، ببساطة ما من مخرج. إنه النموذج الوحيد الذي أعطيته لتكون سعداء. لم يتم إعطاؤنا أي نموذج آخر. حضارتنا، مجتمعنا، وأسف للقول بأن ديننا حتى لم يعطينا أي نموذج آخر. تم تعيينك كاردينالاً. باله من شرف عظيم! شرف؟ هل قلت شرف؟ لقد استخدمت الكلمة الخاطئة. الآن سيتطلع آخرون إلى هذا المركز. لقد أنزلت إلى ما يدعو الإنجيل به «العالم» وسوف تخسر روحك. العالم، السلطة، المقام، الربح، النجاح، الشرف، إلخ. هي أشياء لا وجود لها. تزيحون العالم إلا أنكم تخسرون أرواحكم. لقد كانت حياتكم بأكملها عائلية ومجردة من الروح. ما من شيء فيها. ثقة مخرج واحد وهو أن تنزع عنكم البرمجة. لا يمكنكم التغيير بجهد إرادي؛ لا يمكنكم التغيير من خلال المثاليات؛ لا يمكنكم التغيير من خلال اكتساب عادات جديدة. قد يتغير

سلوككم، إلا أنكم لا تتفكرون، تتفكرون من خلال الوعي والفهم فقط. عندما تزون الصخرة على أنها مجرد صخرة، وقضاصة الورق على أنها قضاصة ورق، لا تعتقدون بعد الآن أن الصخرة هي ماسة ثمينة ولا تعتقدون بعد الآن أن قضاصة الورق هي شيك بليون دولار. عندما تزون هذا، تتفكرون. لا عنف بعد الآن في محاولاكم لتغيير أنفسكم. وإلا لكان ما تسقونه التغيير هو مجرد تغيير لأماكن قطع الآثار، لا تغيير أنفسكم.

نَزْعُ التَّعَلُّقِ

الطريق الوحيد للتغيير هو بتغيير فهمكم. ولكن ما الذي يعنيه الفهم؟ كيف نمضي في ذلك؟ تبصروا في كيفية استعبادكم من قبل تعلقات مختلفة؛ إننا نكافح لإعادة ترتيب العالم بحيث نتمكن من الحفاظ على هذه التعلقات، لأن العالم ما هو إلا تهديد مستمر لها. أخشى أن يتوقف صديقي عن حتي؛ قد يتحول أو يتحول إلى أحد آخر. يتوجب علي العمل على أن أظل جذابة لأنه علي الحصول على الشخص الآخر هذا. غسل أحدهم دماغي لأعتقد أنني أحتاج إلى حبه أو حبها. لكنني في الواقع لا أحتاج إلى ذلك. لا أحتاج إلى حب أي شخص كان؛ أحتاج إلى أن أكون على اتصال بالواقع فقط. أحتاج إلى الخروج من سجنى هذا، من برمجتي، من تكيفي، من معتقداتي الزائفة، من خيالاتي؛ أحتاج الخروج إلى الواقع. الواقع جميل؛ إنه بهجة مطلقة. الحياة الأبدية هي الآن. إننا محاطون بها، كالسمكة في المحيط، إلا أنه ما من فكرة لدينا عنها على الإطلاق. إننا منشغلون أكثر من الإلزام بهذا التعلق. يعيد العالم ترتيب نفسه بشكل مؤقت بحيث يتلاءم مع تعلقنا، بحيث نقول: «أوه عظيم! لقد فاز فريقنا!». لكن انتظروا قليلاً: سيتغير الأمر؛ سثحبون في الغد. لم نستمز في فعل ذلك؟

قوموا بهذا التمرين الصغير لبضع دقائق: فكروا في شيء أو شخص تتعلقون به؛ بكلمات أخرى، شيء أو شخص تظنون أنكم لن تكونوا سعداء من دونه. قد يكون عملاً، مهنة، حرفة، صديقاً، مالا، مهما يكن. وقلوا لهذا الشيء أو لذلك الشخص: «لا أحتاج إليك حقاً لأكون سعيداً. أهدع نفسي فقط حينما أظن أنني لن أكون سعيداً من دونك. لكنني لا أحتاج إليك حقاً من أجل سعادتي، لست فرحي». إن كان موضوع تعلقكم شخصاً، فإنه لن يكون سعيداً لسماعكم تقولون ذلك، لكن امضوا في ذلك على الرغم من كل شيء. يمكنكم أن تقولوه في سز قلوبكم. وفي كل الأحوال، ستصبحون على اتصال بالحقيقة؛ ستسحقون خيالا. السعادة هي حالة من اللاوهم، من التخلي عن الوهم.

أو بإمكانكم تجربة تمرين آخر: فكروا في وقت كنتم فيه محطمي القلوب بحيث اعتقدتم أنكم لن تسعدوا ثانية (مات زوجك، ماتت زوجتك، خذلك صديقك الحميم، فقدت أموالك). ما الذي حصل؟ لقد مضت الأيام، وإن نجحتم في التقاط تعلق جديد أو تمكنتهم من إيجاد شخص آخر يجذبكم أو شيئاً آخر يجذبكم، فما الذي يحصل للتعلق القديم؟ لم تكونوا بحاجة إليه حقاً لتكونوا سعداء. أليس كذلك؟ كان يجدر بذلك أن يعلمكم، إلا أننا لا نتعلم مطلقاً. إننا مبرمجون؛ إننا مكيفون، لكم من المحرر ألا نعتمد عاطفياً على أي شيء! إن تمكنتهم من اختبار ذلك لثانية واحدة، تكونون قد ابتدأتم الخروج

من سجنكم والحصول على نظرة خاطفة للسماء. ولربما تفتكثون يوماً ما من الطيران.

كنت خائفاً من قول هذا، إلا أنني تحدثت مع الله وأخبرته بأنني لا أحتاج إليه. كان رد فعلي الأولي: «أوه هذا يتناقض تماماً مع كل ما نشأت عليه». سيؤد بعض الناس القيام باستثناء في ما يتصل بتعلقهم بالله. يقولون: «إن كان الله هو الله الذي أطلق أنه يفترض به أن يكونه، فإنه لن يكون سعيداً إن تخلت عن تعلقي به». حسناً، إن كنتم تعتقدون أنه ما لم تحصلوا على الله فلن تكونوا سعداء، عندها يمكنني أن أقول بأن هذا «الله» الذي تؤمنون به لا علاقة له بالله الحقيقي. إنكم تؤمنون بحالة حلم؛ بمفهومكم. في بعض الأوقات يتعين عليكم التخلص من «الله» لإيجاد الله. يخبرنا العديد من المتصوفين بذلك. لقد كنا مبهوتين بكل شيء بحيث لم نكتشف الحقيقة الأساسية وهي أن التعلقات تؤدي العلاقات أكثر مما تفيدها. أذكر كم كنت مذعوراً عندما قلت لأحد أصدقائي الحميين: «لست بحاجة حقاً. يمكنني أن أكون في غاية السعادة من دونك. وعندما أقول لك هذا أجد أنه بإمكانني الاستمتاع بصحبتك بشكل كلي - لا مزيد من القلق، لا مزيد من الغيرة، لا مزيد من التملك، لا مزيد من التشبث. إنه لمن المبهج أن أكون معك عندما استمتع بصحبتك على أساس من اللا تشبث. أنت حر، وكذلك أنا». ولكن أنا متأكد أنني أبدو للكثيرين فيكم كمن يتكلم بلغة أجنبية غريبة. لقد استغرقني الأمر العديد، العديد من الشهور لأفهم هذا بشكل كامل، وتذكروا أنني يسوعي، تنمحور رياضاته الروحية بأسرها على هذه النقطة بالتحديد، بالرغم من أنني لم أنتبه لذلك لأن ثقافتي ومجتمعي بالعموم قد لقناني أن أنظر إلى الناس من منطلق تعلقاتي. ما يسليني حقاً في بعض الأحيان هو رؤية من يبدو أناساً موضوعيين مثل المعالجين النفسيين والمرشدين الروحيين، يقولون عن شخص ما: «إنه شخص عظيم، شخص عظيم، إنه بروقني حقاً». لاكتشف لاحقاً أنني معجب به بسبب إعجابه بي. أنظر إلى نفسي وأجد الشيء نفسه يتكرر بين الفينة والأخرى: إن كنت متعلقاً بالتقدير والإطراء، فسترى الناس من منطلق تهديدهم أو تشجيعهم لتعلقك. إن كنت سياسياً وتود أن يتم انتخابك، فكيف نظرت أنك ستنظر إلى الناس؟ كيف سيترجم اهتمامك بالناس؟ ستكون مهتماً بالشخص الذي سيمنحك صوته. إن كان ما بهيك هو الجنس، فكيف تعتقد أنك ستنظر إلى الرجال والنساء؟ إن كنت متعلقاً بالسلطة، فإن ذلك يلون نظرتك إلى البشر. يدور التعلق قدرتك على الحب. ما الحب؟ الحب هو رهافة الحس، الحب هو الوعي. لا أعطكم مثلاً، فلنفترض أنني أستمع إلى سيمفونية ما، ولكن إن كان جل ما أسمعه هو صوت الطبول، فإنني لا أكون ساعتها أستمع إلى السيمفونية. ما القلب المحب؟ القلب المحب هو القلب مرهف الحس تجاه الحياة بأكملها، تجاه الأشخاص كافة؛ القلب المحب لا يقسي ذاته تجاه أي شخص أو أي شيء. ولكن في اللحظة التي تصبحون فيها متعلقين، وفق المعنى الذي أعطية للكلمة، فإنكم تغلقون الباب أمام العديد من الأشياء الأخرى. ستكون عيونكم مخصصة لغرض تعلقكم؛ ستكون أذانكم مخصصة لغرض تعلقكم؛ لقد تقسى القلب، أكثر من

ذلك، لقد أصيب بالعمى، لأنه لم يعد يرى غرض تعلّقه بشكل موضوعي.
يتطلب الحب وضوح الرؤية، الموضوعية؛ ما من شيء يرى بوضوح أكثر من
الحب.

الحبّ الإدماني

في الحبّ، يبقى القلب ناعماً ومرهف الحسّ، ولكن عندما تكونون في غلبة التصميم للحصول على هذا الشيء أو ذاك فإنكم تصبحون عديمي الشفقة، قساة، وعديمي الإحساس. كيف لكم أن تحبّوا الناس عندما تحتاجون إليهم؟ يمكنكم أن تستخدموهم فقط. إن كنت تحتاج إليك لتجعلني سعيداً، ينبغي لي أن أستعملك، ينبغي لي أن أتلاعب بك، ينبغي لي إيجاد الطرق والوسائل للفوز بك. لا يمكنني أن أترك حزناً. يمكنني أن أحب الناس فقط عندما أفرغ حياتي من الناس. عندما أموت عن احتياج الناس. ساعتها، أكون في الصحراء تماماً. تشعرون بأن ذلك مربع في البداية، تشعرون بالوحدة، ولكن إن تمكنتم من احتمال ذلك لبرهة، فإنكم ستكتشفون فجأة أن ذلك ليس بوحدة على الإطلاق. إنها عزلة، إنها انفراد. وتبدأ الصحراء بالإزهار عندها، وأخيراً، ستتمكنون من معرفة ماهية الحبّ، ماهية الله، ماهية الواقع. لكن، يمكن أن يكون إعطاء الدواء صعباً في البداية. إلا إن امتلكتم تفهماً قاطعاً، أو كنتم قد عانيت بما يكفي. إنه لمن الرائع أن تكونوا قد عانيت. عندها فقط يمكن أن تساموا من ذلك. يمكنكم الاستفادة من المعاناة لإنهاء المعاناة. ببساطة يستمرّ معظم الناس في معاناتهم. ذلك يفسّر الصراع الذي يغشاني في بعض الأحيان ما بين دور المرشد الروحي ودور المعالج النفسي. يقول المعالج: «لتخفيف الألم». فيما يقول المرشد الروحي: «دعها تتألم، ستسام من ذلك الأسلوب في الارتباط بالناس وستقرّر في النهاية الخروج من سجن الاتكال العاطفي على الآخرين». هل أعطي مسكناً أم أزع السرطان؟ ليس من السهل اتخاذ القرار.

يضرب شخصي بقرف على الطاولة بكتاب. دعوه يضرب بالطاولة. لا تنزعوا منه الكتاب وتخبروه بأن كلّ شيء على خير ما يرام. الروحانية هي الوعي، الوعي، الوعي، الوعي، الوعي. عندما تفضب منك أمك، فإنها لا تقول لك بأن ثقة خطباً فيها هي، بل تقول لك بأن ثقة خطباً فيك أنت؛ وإلا لما كانت غضبي. حسن، لقد قممت بالاكشفاف العظيم بأنك لو كنت غاضبة يا أمّاه، فذاك يعني أن ثقة خطباً ما فيك أنت. لذا فمن الأفضل لك أن تتغلّبي على غضبك. إن بق معه وتغلّبي عليه. لا علاقة لي به. وسواء كان هنالك شيء على غير ما يرام بي أم لا، فإنني سأنتفضه بشكل مستقل عن غضبك. لن أتأثر بغضبك. الشيء المضحك أنه ما أن أتمكن من القيام بذلك من دون أن أشعر بالسلبية تجاه الآخرين، حتّى يمكنني أن أكون في غلبة الموضوعية تجاه نفسي أيضاً. وحده الشخص الواعي هو من يمكنه رفض النقاط شعور الذنب والغضب. ويمكنه أن يقول: «أنت في نوبة غضب، هذا مؤسف، لست أشعر بأدنى رغبة في إنقاذك بعد الآن. وأرفض الشعور بالذنب». لن أكره نفسي بسبب شيء قممت به. هذه هي ماهية الذنب. لن أشعر بالسوء وأجلد نفسي

بسبب امر فعلته، سواء اكان جتدًا أم سببًا. أنا على استعداد لتحليله
لمراقبته، وللقول: «حسن، إن أخطأت، فقد كان ذلك في حالة اللاوعي». لا
أحد يخطأ في حالة الوعي. لهذا نخبرنا الالهوتيون بشكل جميل أن يسوع لا
يمكنه أن يتصرف بشكل خاطئ. أرى ذلك معقولاً نوعاً ما، لأنه لا يمكن
الشخص المستنير القيام بما هو خاطئ. الشخص المستنير هو شخص حر.
يسوع كان حرًا، ولأنه كان حرًا، لم يكن في وسعه القيام بما هو خاطئ. وبما
أنكم تقومون بما هو خاطئ، فهذا يعني أنكم لستم أحراراً بعد.

كلمات أخرى

لقد أحسن مارك توين التعبير عن ذلك بقوله: «كان الجو من البرودة بمكان، بحيث لو كان الترمومتر أطول بمقدار إنش واحد فقط، لكنا تجفدنا حتى الموت». نتجفد حتى الموت من خلال الكلمات. ليس البرد في الخارج مهماً، بل الترمومتر. الواقع ليس مهماً، بل ما تقوله لنفسك عنه. حكيت لي قصة جميلة عن مزارع في فنلندا. عندما كانوا يقومون بترسيم الحدود الروسية - الفنلندية، توجب على المزارع أن يقرر ما إن كان يود أن يكون في روسيا أم في فنلندا. بعد وقت طويل من التفكير قال بأنه يود أن يكون في فنلندا. لكنه لم يرغب في الإساءة إلى المسؤولين الروس. أتى هؤلاء إليه وأرادوا أن يعرفوا سبب اختياره هذا. فأجاب المزارع: «لطالما أردت أن أعيش في روسيا الأم، إلا أن شخصاً في مثل سني لن يتمكن من اجتياز شتاء روسي آخر». روسيا وفنلندا مجزأة كلمات، مفاهيم، ولكنها ليست كذلك بالنسبة إلى البشر، ليست كذلك للبشر المجانين. غالباً ما لا ننظر إلى الواقع على الإطلاق. حاول مرشد ذات مرة أن يشرح لجمع من الناس كيفية استجابة الناس للكلمات، يتغذون على الكلمات، يحنون على الكلمات، عوضاً من الواقع. وقف أحد الرجال معترضاً وقال: «لا أوافق على أن الكلمات كل هذا التأثير فينا». قال المرشد: «إجلس يا ابن الزانية». شخب وجه الرجل من الغضب وقال: «تدعو نفسك شخصاً مستنيراً، مرشداً، معلماً، فيما يتوجب أن تخجل من نفسك». قال المرشد عندها: «إعذرني يا سيدي، لقد تماديت؟ أستمحك عذراً؛ لقد كانت زلة لسان؛ أنا آسف». هذا الرجل في نهاية المطاف. عندها قال المرشد: «لم يستغرق الأمر مني أكثر من بضع كلمات لأخرجك عن طورك؛ وكذلك استغرقني ذلك بضع كلمات أخرى لإعادتك إلى هدوئك، اليس كذلك؟». الكلمات، الكلمات، الكلمات، الكلمات، كم يمكنها أن تسجننا إن لم نستخدم في السياق الصحيح!

أجندات خفية

ثقة فارق ما بين المعرفة والوعي، ما بين المعلومات والوعي. لقد أخبرتكم للتو أنه لا يمكن المرء أن يرتكب الشر في حالة الوعي. لكن المرء بإمكانه أن يرتكب الشر في حالة المعرفة أو امتلاك المعلومات، عندما تعرفون أن هذا الفعل هو أمر سيئ. «إغفر لهم يا أبت لأنهم لا يدرون ما يفعلون». كنت لأترجم هذه الآية على الشكل التالي: «إنهم لا يغيثون ما يفعلون». يقول القديس بولس عن نفسه بأنه أعظم الخطاة لأنه اضطهد كنيسة المسيح. إلا أنه يضيف أنه فعل ذلك في حالة اللاوعي. ولأنه كانوا واعين إلى حقيقة أنهم يصلبون سيد المجد كما فعلوا ذلك. «سيأتي اليوم الذي يضطهدونكم فيه، طائفتان منهم ينفذون مشيئة الله». إنهم غير واعين، بل محتجزون في المعلومات والمعارف. لقد أحسن توما الأكويني التعبير عن ذلك حينما قال: «كل مرة يخطئ أحدهم، فإنه يخطئ تحت هيئة الخير». يعمون أنفسهم؛ يعتبرون الشيء جيدًا على الرغم من علمهم بأنه أمر سيئ؛ يبررون لأنهم يبحثون عن شيء ما تحت ذريعة الخير.

أطلعتني إحداهن على حالتين تقول إن من الصعب عليها أن تكون واعية فيهما: الأولى كانت حيث تعمل في صناعة خدماتية، يصطف فيها الناس بطوابير، وثقة الكثير من الهواتف ترن في المكان، كانت وحيدة وباتي الكثير من التشبث من أناس متراضين وغاضبين. وجدت الحفاظ على الطمأنينة والهدوء أمرًا في غاية الصعوبة. أما الحالة الثانية فكانت أثناء قيادتها السيارة في الزحام، حيث تصدح أبواب السيارات، ويصرخ الناس بكلمات بذينة. سألتني فيما لو كان هذا التوتّر سيؤثر يومًا ما بحيث تتمكن من الاحتفاظ بالسلام.

أمكنكم تلقى التعليق هنا؟ السلام. تعلّقها هو بالسلام والهدوء. كآتي بها تقول: «إن لم أحظ بالهدوء، فلن أكون سعيدة». أسبق وفكرتم أنكم قد تكونون سعداء في التوتّر؟ قبل الاستنارة، كنت معتادًا على الاكتئاب؛ بعد الاستنارة، ما زلت مكتئبًا. لستم تحقّقون أهدافكم بالاسترخاء والحساسية. أسبق لكم أن سمعتم بأناس يتوتّرون في محاولتهم للاسترخاء؟ إن كان أحدهم متوتّرًا، فإنه يمكنه ببساطة أن يلاحظ تأثيره هذا. لن تتمكنوا مطلقًا من فهم أنفسكم إن حاولتم تغييرها. كلما أصريتم على تغيير ذلك، ازداد الأمر سوءًا. أنتم مدعوون من خلال ذلك لتكونوا واعين. خذوا شعور الهاتف الصاحب ذلك؛ خذوا شعور الأعصاب المضطربة تلك؛ خذوا إحساس عجلة القيادة في السيارة. بكلمات أخرى، تعالوا إلى الواقع، ودعوا التوتّر أو الهدوء يعتنيان بنفسيهما. في الواقع، سيتوجب عليكم أن تدعوهما بهتقان بنفسيهما لأنكم ستكونون منشغلين في مسألة التواصل مع الواقع. خطوة بخطوة.

دعوا مهما كان يحصل. سيأتي التعبير الحقيقي عندما يحين وقته، ليس من خلال كبرياتكم، بل من خلال الواقع. يحزر الوعي الواقع ليفتخركم.

تتغيرون في حالة الوعي، لكن سيتوجب عليكم اختبار ذلك بأنفسكم. تكتفون في هذه اللحظة بكلماتي. بل ربما أصبح لديكم خطة للوعي. يحاول كبرياتكم، بطريقة اليارعة، أن يدفعكم باتجاه الوعي. راقبوا ذلك! ستلقون مقاومة: ستصادفون مشاكل. عندما يقلق أحدكم طوال الوقت بشأن كونه واعيًا، يمكنه الإشارة إلى القلق المعتدل. يريدون أن يستيقظوا، ليزوا إن كانوا حقًا مستيقظين أم لا. هذا جزء من التشفير لا الوعي. يبدو ذلك غريبًا في ثقافة دزينا فيها على تحقيق الأهداف، على الوصول إلى مكان ما، إلا أنه، في الواقع، ليس ثقة مكان نصل إليه لأنكم موجودون فيه بشكل مسبق. لدى اليابانيين طريقة لطيفة للتعبير عن ذلك: «في اليوم الذي تكف فيه عن السفر، تكون قد وصلت». ينبغي أن يكون موقفك هو التالي: «أريد أن أكون واعيًا، أريد أن أكون على تواصل مع الواقع مهما يكن، وأن أدع ما يحصل يحصل؛ فإن كنت يقطا، فهذا جيد، وإن كنت نائقا، فذلك جيد أيضًا». في اللحظة التي تجعل فيها ذلك هدفًا لك وتسعى للوصول إليه، فإنك تسعى لتمجيد كبرياتك، ترقية كبرياتك. تريد الشعور الجيد الذي صنعه بنفسك. عندما «تصنعه»، فإنك لن تعلم. لن تعلم يدك اليسرى بما تفعله اليمنى. «رب، متى فعلنا ذلك؟ لم نكن واعين له». لا يكون لفعل الخير الأثر المحبب ذلك إلا عندما يفقد المرء إدراكه أنه يقوم بفعل الخير. «أتعني حقًا أنني ساعدتك؟ كنت أسلي نفسي. كنت أرقص رقصتي فقط. لقد ساعدك ذلك، هذا رائع. مبارك لك. ولا فضل لي».

عندما تصلون، عندما تصبحون واعين، فإنكم وبشكل متزايد، لن تبالوا بالتسميات من قبيل «يقظ» و«نائم». إحدى الصعوبات التي أواجهها هنا هي في إثارة الفضول الروحي لديكم لا الطمع الروحي. لتستيقظ، سيكون ذلك رائعًا. بعد هنيهة، لا يعود ذلك مهمًا؛ المرء واع لأنه حي. الحياة غير الواعية لا تستحق أن تعاش. وستدعون للأمر مهمة الاعتناء بنفسه.

التسليم

كلما جهدتم في محاولة التغيير، ازداد الأمر سوءاً. هل يعني ذلك أنه لا بأس في درجة معينة من السلبية؟ نعم، كلما ازدادت مقاومتكم شيئاً ما، منحنموه قوة أكبر. هذه هي، على ما أعتقد، معنى كلمات يسوع: «إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن، أدركه الأيسر». غالباً ما تقوون الشياطين التي تحاربونها. ذلك قيم للغاية. ولكن إن مضيت مع العدو، تنقلب عليه. كيف يتأقلم الواحد منا مع الشر؟ ليس من خلال محاربته، بل من خلال فهمه. من خلال فهمه، فإنه يخف. كيف يتأقلم واحدنا مع الكآبة؟ ليس من خلال قيامه بالاحتفال. لا يمكنك أن تطرد الظلمة من الغرفة من خلال الإيقاع، بل من خلال إشعال الضوء. كلما حاربت الكآبة، تغلغل فيك بشكل جدي، وأرهقت نفسك. ولكن عندما تضيء نور الوعي، فإنها تذوب. لنقل بأن قصاصة الورق هذه هي شيك بليون دولار. آه، ينبغي لي أن أتذكر لها، كما يقول الإنجيل، ينبغي لي أن أهبها إن كنت أبغي الحياة الأبدية. هل تريد أن تستبدل طمعاً بطمع آخر - الطمع الروحي -؟ قبلاً، كان لديك غرور العالم والآن بات لديك غرور روحي، إلا أنك في كل الأحوال تمتلك غروراً ما، غروراً ذا نوعية أشد تهدياً إن صخ القول، وأشد صعوبة في التأقلم معه. عندما تتذكر شيء ما، فإنك ترتبط به. ولكن إن قمت عوضاً من التذكر له، بالنظر إليه والقول: «هيه، هذا ليس شيكاً بليون دولار، بل قصاصة ورقية»، عندها لن يكون هناك ما تحاربه، لن يكون هناك ما تتذكر له.

ألفام متناسقة

يكبر كثير من الرجال في بلدي معنقدين أن النساء هنّ ماشية. يقولون «لقد تزوّجتها». «إنها ملكي». هل يمكن لوم هؤلاء؟ جهّزوا أنفسكم لتلقّي الصدمة: لا! لا يمكن لومهم. تمامًا كما لا يمكن لوم العديد من الأميركيين على الطريقة التي ينظرون بها إلى الروس. لقد تفتّ صباغة نظاراتهم أو إدراكهم بلون معين. وها هم أولاء: ذلك هو اللون الذي يزّون العالم من خلاله. ما الذي يتطلبه الأمر لنجعلهم حقيقيين، لنجعلهم يعون حقيقة أنهم يزّون العالم من خلال نظارات ملوّنة؟ ما من خلاص إلى أن يتمكنوا من رؤية أحكامهم المسبقة الأساسية.

ما أن تنظروا إلى العالم من خلال أيديولوجيا معيّنة حتى تكونوا قد انتهيتما من واقع يتطابق وأيديولوجيا معيّنة. الحياة أبعد من ذلك. هذا هو السبب في أن الناس يبحثون على الدوام عن معنى للحياة. إلا أن الحياة لا معنى لها؛ لا يمكن أن يكون لها معنى لأن المعنى هو صيغة؛ المعنى هو شيء يفهمه العقل. كل مرة تجعلون الواقع شيئًا مفهوميًا، فسرعان ما تتخبطون في شيء يدمّر المفهوم الذي صنعتموه. يمكن إيجاد المعنى فقط عندما تذهبون إلى ما هو أبعد من المعنى. يمكن فهم الحياة عندما تدركون أنها لغز لا يمكن فهمه من خلال العقل المدرك.

لا أقول بأن العبادة ليست بالشيء المهم، بل أقول إن الشك أهم وبشكل غير محدود من العبادة. في كل مكان، ثقة ناس يبحثون عن أشياء ليعبدوها، إلا أنني لا أجد أناسًا على درجة كافية من اليقظة في مواقفهم وقناعاتهم. كم كنا لنكون سعداء فيما لو كان الإرهابيون يعبدون أيديولوجياهم بدرجة أقل وينسألون بدرجة أكبر. في كل الأحوال فإنه لا يروقنا أن نطبق ذلك على أنفسنا؛ نعتقد أننا على خير ما يرام وأن الإرهابيين على خطأ. إلا أن من نعتبره إرهابيًا ما هو إلا شهيد على الطرف المقابل.

الوحدة هي شعورك بافتقاد الآخرين، أما التوحد فهو عندما تمتّع نفسك. تذكروا المرحّة الشهيرة تلك لجورج برناردشو. كان في واحدة من حفلات الكوكيتيل المربعة تلك، حيث لا يقال أي شيء. وسأله أحدهم فيما لو كان يمتّع نفسه. فأجاب: «نفسه هي الشيء الوحيد الذي استمتع به هنا». لن تستمتع مطلقًا بصحبة الآخرين عندما تكون مستعبدًا من قبلهم. لا يتشكل المجتمع من مجموعة من العبيد، من أناس يطلبون من الآخرين أن يجعلوهم سعداء. يتشكل المجتمع من أباطرة وأميرات. أنت إمبراطور لا متسؤل؛ أنت أميرة لا متسؤلة. ما من قصعة للمسؤل في المجتمع الحقيقي. ما من تشبّث، ما من قلق، ما من خوف، ما من عوارض انسحاب، لا تملك، لا طلبات. الناس

الأحرار هم من يشكّلون المجتمع، لا العبيد. إنها حقيقة بسيطة، إلا أنّه تمّ التخلص منها من خلال ثقافة كاملة، بما فيها الثقافة الدينية. يمكن الثقافة الدينية أن تكون في غاية التلاعب إن لم تأخذوا حذرکم.

يرى بعض الناس الوعي قفّة، هضبة، أبعد من اختبار كلّ لحظة بلحظتها. هذا يعني أننا نجعل الوعي هدفاً لنا. إلا أنّه مع الوعي الحقيقي، فليس ثقة مكان نمضي إليه، ليس ثقة ما نحققه. كيف نصل إلى هذا الوعي؟ من خلال الوعي. عندما يقول الناس إنهم يؤثرون حقيقة اختبار كلّ لحظة، فإنهم يتكلمون ساعتها على الوعي من دون أن يدركوا، في ما عدا القسم المتعلق بـ «الإرادة» ذلك. لا يمكنك أن «تريد» اختبار الوعي، ذلك أنك إما أن تختبره أو لا تختبره.

ذهب صديق لي إلى إيرلندا للتوّ. وقد أخبرني بأنّه وعلى الرغم من كونه مواطناً أميركياً فإنّه بحق له الحصول على جواز سفر إيرلندي، وبأنّه حصل على واحد لأنّه كان خائفاً من السفر إلى الخارج بجواز سفر أميركي. فإن تعرّض له الإرهابيون قائلين: «دعنا نرى جواز سفرك»، فإنّه يريد أن يكون قادراً على القول: «أنا إيرلندي». ولكن، عندما يجلس الناس بقربه على الطائرة، فإنّهم لا يريدون أن يزوا تسميات: بل يريدون تذوّق هذا الشخص واختباره، كما هو حقيقة. كم من شخص يمضي حياته من غير أن يأكل الطعام بل القائمة؟ قائمة الطعام تؤثّر إلى شيء متوافر. ستعجب أن تأكل شريحة اللحم، لا الكلمات.

موت الأنا

هل يمكن أحدنا أن يكون إنساناً حقاً من غير أن يختبر المأساة؟ المأساة الوحيدة الموجودة في العالم هي الجهل؛ كل الشرور تنأت من المأساة. الوحيدة الموجودة في العالم هي الفظلة واللاوعي. منهما ينتج الخوف، ومن الخوف ينتج كل شيء آخر، أما الموت فهو ليس بالمأساة على الإطلاق. أن أموتَ لأمرٌ رائع، هو مريع فقط لأولئك الذين لم يفهموا الحياة قط. تخشى الموت فقط عندما تكون خائفاً من الحياة. الأموات فقط هم من يخشون الموت. أما الأحياء فليس لديهم خشية الموت. عبّر أحد المؤلفين الأميركيين عن ذلك بشكل جيد حينما قال: إنَّ اليقظة هي موت إيمانك بالظلم والمأساة. إنَّ نهاية العالم بالنسبة إلى شرقية ما هي إلا فراشة للصانع. الموت هو قيامة. لا نتحدث هنا عن قيامة سوف تحدث بل عن واحدة تحدث الآن. إن كنت على استعداد لأن تموت عن الماضي، إن كنت على استعداد لأن تموت عن كل دقيقة، ستكون عندها الشخص الحي ذلك بشكل كامل، لأنَّ الشخص الحي بشكل كامل هو ذلك الشخص المقتل بالموت. نموت دوماً عن أشياء معينة لتكون أحياء بشكل كامل ولنعاد القيامة في كل لحظة. المتصوفون، القديسون، وآخرون يقومون بجهود جبار كي يوقفوا الناس. إن لم يقوموا بإيقاظ الناس، فسيكون لديهم على الدوام أمراض أخرى صغيرة كالجوع، الحروب، والعنف. الشر الأعظم هو أناس نائمون، أناس جاهلون.

كتب يسوع ذات يوم ملاحظة إلى رئيسه العام، الأب أرويه، ليسأله عن العلاقة النسبية بين الشيوعية، الاشتراكية، والرأسمالية. فأعطاه الأب أرويه إجابة محبة. فقال: «النظام هو سئى أو جيد بالمقدار الذي يكون عليه الناس الذين يستخدمونه». سيجعل الناس ذوي القلوب الذهبية الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية تعمل بشكل رائع. لا تطلبوا من العالم أن يتغير. تغيروا أنتم أولاً. عندها ستستمتعون بنظرة إلى العالم جيدة إلى الدرجة التي تمكنكم من تغيير كل ما تعتقدون أنه ينبغي له أن يتغير. إنزعوا الإعاقة من أعينكم أولاً. إن لم تفعلوا، فستفقدون الحق في تغيير أحد أو أي شيء. إلى أن تهوا أنفسكم، فإنكم لا تملكون الحق في التدخل في حياة أي شخص آخر أو حتى في العالم. الآن، يكمن الخطر في محاولتكم تغيير الآخرين أو تغيير العالم عندما تكونون أنفسكم غير واعين، وهو أنكم قد تكونون تحاولون تغيير الأشياء وفق قناعاتكم ومعتقداتكم، أو مجرد التخفيف من مشاعركم السلبية. لدي مشاعر سلبية، لذا من الأفضل لك أن تتغير بالشكل الذي يجعلني أشعر بالتحسن. تأقلم أولاً مع مشاعرك السلبية بحيث عندما تنتقل إلى محاولة تغيير الآخرين، لا يكون ذلك نابقاً من الكراهية أو السلبية بل من الحب. قد يبدو من الغريب أيضاً أن الناس يمكنهم أن يكونوا في غاية القسوة على الآخرين ويظلون في غاية الحب أيضاً. يمكن الجراح أن يكون قاسياً

على المريض ومحبة في أي. في الواقع، يمكن الحب أن يكون في غابة
الفسوة.

التبصر والتفهم

ولكن، ما الذي يتطلبه التغيير الذاتي؟ لقد سبق لي أن عبّرت عن ذلك مرارًا وتكرارًا، في كلمات كثيرة، إلا أنني سأقوم الآن بتقسيمه إلى قطع صغيرة. يتطلب منا أولاً التبصر، لا المجهود، لا تربية العادات، ولا امتلاك مثاليات. تؤدي المثاليات إلى كثير من الأذى. تركز طوال الوقت على ما يجب أن يكون عوضاً عن التركيز عما هو. لذلك، فإنك تقوم بفرض ما يجب أن يكون على الواقع الراهن، من دون أن تتمكن مطلقاً من فهم ماهية الواقع الراهن. دعوني أعطيك مثالاً عن التبصر من واقع خبرتي الشخصية في الاستشارات النفسية. أذني كاهن يشنكي من كونه كسولاً؛ يريد أن يكون أكثر إنتاجاً، أشد نشاطاً، إلا أنه كسول. فسألته: «ما الذي تعنيه بكلمة كسول؟». كنت في ما مضى لأقول له: «لنر، لم لا تحاول وضع قائمة بالأشياء التي تؤد عملها كل يوم، ثم تقوم بتفقدتها كل ليلة، وسيمنحك ذلك شعوراً جيداً؛ ثم تلك العادة لديك». أو لربما كنت لأقول: «من هو مثالك، من هو شفيحك؟». فإن أجاب القديس فرنسيس كسفاريوس، كنت لأجبه: «أترى كيف كان القديس كسفاريوس يعمل، ينبغي لك أن تتأمله قليلاً وسيعطيك ذلك الحافز لتحركك». إنها إحدى الطرق التي يمكن بها مقارنة المشكلة، لكن، يؤسفني القول: بأنها طريقة سطحية. إن جعله يستخدم قوة إرادته، أو مجهوده، هو أمر لا يمكنه الاستمرار طويلاً. قد يتغير سلوكه، أما هو فلا. لذلك فإنني أنحو الآن في الاتجاه المقابل. قلت: «كسول، ما هذا؟ ثقة مليون نوع من الكسل. دعنا نسمع ماهية الكسل الذي تعاني منه، صف ما تعنيه بالكسل». فأجاب: «حسناً، لا أتمكن من إنجاز أي شيء على الإطلاق، لا أشعر بأي أقوم بأي شيء». أسأل: «أتعني أنك تشعر بالكسل منذ لحظة استيقاظك صباحاً؟». يجيب: «نعم، أستيقظ في الصباح وما من شيء يستحق النهوض من أجله». فأسأل: «أنت مكتئب إذن؟». يمكنك أن تسقيه اكتئاباً إن شئت». يجيبني: «لدي نوع من الانعزال». فأسأله: «أكنت دوماً على هذه الشاكلة؟». «حسناً، ليس على الدوام. عندما كنت أصغر، كنت أشد نشاطاً. عندما كنت في الإكليريكية، كنت مهتماً بالحياة». «متى ابتداء ذلك إذا؟». «يمكنك القول منذ ثلاث سنوات أو أربع مضت». سألته إن كان أي شيء قد حدث وقتها. فكر لبرهة من الزمن. فقلت: «إن كان يتوجب عليك التفكير بعمق، فهذا يعني أنه ما من شيء مهم مميز يمكن أن يكون قد حدث منذ أربع سنوات، ماذا عن السنة التي قبلها؟». فيقول: «حسن، لقد تمت سيامتي في تلك السنة». أسأل: «هل حدث أي شيء سنة سيامتك؟». «ثمة أمر بسيط، فقد رسبت في الامتحان الأخير باللاهوت. لقد شكّل ذلك نوعاً من الإحباط عندي، إلا أنني تجاوزت الأمر. كان الأسقف يخطط لإرسالني إلى روما لأدرس في الإكليريكية. كانت الفكرة تروفتني، لكن، وبما أنني فشلت في الامتحان، فقد

غير رايه وأرسلني إلى هذه الرعية. في الواقع كان ذلك على شيء من الظلم، لأن... الآن بدأنا نصل؛ ثقة غضب لم يتمكن من تجاوزه بعد. يتوجب عليه أن يعمل من خلال هذا الإحباط. من غير المفيد إلقاء عظة عليه، من غير المفيد إعطاؤه فكرة ما. يتوجب علينا مساعدته على مواجهة غضبه وإحباطه والحصول على بعض التبصر وسط ذلك كله. عندما يتمكن من العمل من خلال ذلك، سيهود إلى الحياة. لو أنني أعطيته نصيحة ما وأخبرته كم يعمل إخوته وأخواته المتزوجون بحد، فإن ذلك سينجح بالكاد في جعله يشعر بالذنب. لا يمتلك التبصر الذاتي الذي سيقوم بشفاؤه. هذا هو الشيء الأول إذا.

هناك مهمة أخرى عظيمة، وهي الفهم. هل اعتقدت حقاً أن ذلك سيجعلك سعيداً؟ لقد افترضت ذلك وحسب. لم أردت التدريس في الإكليريكية؟ لأنك أردت أن تكون سعيداً. هل اعتقدت أن منصب الأستاذ سيمنحك وضعية ما ومقاماً معيناً، سيجعلك سعيداً؟ أيمنه حقاً أن يجعلك سعيداً؟ ينبغي استدعاء الفهم هنا.

إن القيام بالتمييز بين «الأنا» و«النفس» هو أداة فعالة لتعريف ما يجري. دعوني أعطيكم مثالاً عن هذا النوع من الأشياء. أتى كاهن يسوعي شاب لرؤيتي؛ إنه رجل لطيف، رائع، موهوب، ساحر، محبوب. إلا أن لديه عقدة من نوع غريب. كان بشكل رائعاً مطلقاً للموظفين. لا بل عُرف بالاعتداء عليهم، إلى الدرجة التي كانت تتسبب بتدخل الشرطة. ما أن يتم تعييبه في موضع المسؤولية على الأراضي، على المدرسة، أو على أي شيء كان، حتى تعاود تلك المشاكل الظهور. قام برياضة الثلاثين يوماً فيما ندعوه نحن اليسوعيين السنة الثالثة، حيث تأمل يوماً بعد الآخر في صبر يسوع وحيه أولئك القدامى، إلخ. لكنني علمت بأنه لن يكون لذلك تأثير. في كل الأحوال، فقد عاد إلى ديره حيث كان على حال أفضل لما يقارب الثلاثة شهور أو الأربعة. (قال أحدهم عن معظم الرياضات بأننا نبتدئها باسم الأب والابن والروح القدس، وننتهيها كما كان في البدء وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين آمين)، غير أنه عاد بعد ذلك إلى نقطة الصفر. لذا فقد أتى لرؤيتي. كنت في غاية الانشغال وقتها. وعلى الرغم من أنه كان قد أتى من مدينة أخرى في الهند، فإنني لم أتمكن من رؤيته. لذلك قلت له: «أنا خارج من أجل تمشييتي المسائية المعتادة؛ فإن أردت القدوم معي فأهلاً وسهلاً بك، إلا أنني لا أملك أي وقت آخر». لذا فقد خرجنا للتنمشي. كنت قد عرفت قبلاً، وفيما كنا نتمشي ونتحدث تملكني إحساس غريب. وعادة عندما يملكني مثل هذا النوع من الأحاسيس الغريبة فإنني أتأكد منها من الشخص المعني. لذلك فقد قلت: «لدي إحساس غريب بأنك تخفي عني شيئاً ما. أتواني محق؟». صار ساخطاً. فقال: «ما الذي تعنيه بأنني أخفي شيئاً؟ هل تظن أنني كنت لأقوم بهذه الرحلة الطويلة لأتي وأطلب مساعدتك لكي أخفي شيئاً ما؟». فقلت: «حسن، إنه شعور طريف ذاك الذي يتناوبني، هذا كل شيء؛ ظننت أنه يتوجب التأكد منه». تابعنا بعدها سيرنا. كان ثقة بحيرة غير بعيدة عن مكان سكنتي. أتذكر

المشهد بوضوح. قال: «أيمكننا الجلوس في مكان ما؟». قلت: «نعم». فجلستنا على حائط منخفض يحيط بالبحيرة. قال: «أنت محق». ما زلت أخفي عنك شيئاً ما». ومع تلك العبارة اندفعت دموعه. قال: «سأطلعك على أمر لم أخبره لأي كان منذ أن أصبحت يسوعياً. توفي أبي عندما كنت صغيراً جداً فصارت أمي خادمة. كان عملها يقتضي تنظيف المقاسل والمراحيض والحمامات، وفي بعض الأحيان كان يتوجب عليها العمل ست عشرة ساعة في اليوم للحصول على المال الكافي لإطعامنا. إني في غاية الخجل من كوني أخفيت ذلك عن الجميع، ومن كوني استمر في الانتقام بشكل غير عقلاني، منها ومن كل طبقة الخدم». تحول الشعور. لم يكن بإمكان أي كان أن يفهم السبب الذي يجعل الشخص الساحر هذا ينصرف على تلك الشاكلة، إلا أنه في اللحظة التي رأى فيها ذلك، لم يفد يعاني من أي مشكلة على الإطلاق. أصبح على ما يرام.

عدم التسرع

إنَّ التأمل في سلوك يسوع ومحاولة الاقتداء به خارجيًا لا يقدم الكثير من المساعدة. إذ ليست المسألة بالاقتراد بالمسيح، بل هي مسألة أن تصبح ما كانه المسيح. إنها مسألة أن تصبح المسيح، أن تصبح واعين، أن يفهم كل واحد ما يجري في داخله. يمكن مقارنة كل المنهجيات الأخرى التي نستخدمها للتغيير الذاتي بدفع سيارة. دعونا نفترض أنه يتوجب عليكم السفر إلى مدينة بعيدة. وتتعطل بكم السيارة على الطريق. حسن، إنه أمر سيئ جدًا أن تتعطل السيارة. لذلك نشقر عن سواعدها ونبدأ بدفع السيارة. ندفع وندفع وندفع وندفع، حتى نصل إلى المدينة البعيدة. نقول: «حسن، لقد فعلناها». ثم نقوم بدفع السيارة طوال الطريق إلى مدينة أخرى! نقولون: «لقد وصلنا، اليس كذلك؟». ولكن أتعلمون هذه حياة؟ أتعلمون ما تحتاجون إليه؟ تحتاجون إلى خبير، تحتاجون إلى ميكانيكي يرفع غطاء المحرك ويغير وصلة الماس. أديروا المفتاح وتتحرك السيارة. تحتاجون إلى الخبير - تحتاجون إلى الفهم، إلى التبصر، إلى الوعي - لا تحتاجون إلى الدفع. لا تحتاجون إلى المجهود. ذلك هو سبب كون الناس في غابة الإرهاق، في غاية القلق. أنت وأنا تم تدريبنا على أن نكون غير راضين عن أنفسنا. نفسيًا، هذا هو المكان الذي يأتي منه الشر. نحن غير راضين على الدوام، نحن مستأوون على الدوام، نحن ندفع على الدوام. إمض، أبذل مزيدًا من الجهد، مزيدًا ومزيدًا من الجهد. إلا أنَّ الصراع الداخلي ذلك يظل موجودًا على الدوام؛ هنالك القليل جدًا من الفهم.

أن نصبح صادقين

إنَّ أحدَ أيامِ حياتي التي لا تُنسى كان في الهند. كان يومًا رائعًا، حقيقةً، اليوم الذي تلا سيامتي الكهنوتية. جلستُ في كرسي الاعتراف. كان لدينا في رعيّتنا كاهنٌ يسوعي قديس، إسباني، كنتُ قد عرفتهُ حتّى قبل دخولي في دير الابتداء اليسوعي. ففي اليوم الذي سبق توجّهي إلى الابتداء فكّرتُ أنّه من الأفضل لي أن أقصّ عن كلّ مكثونات صدي، بحيث أصل إلى الابتداء نظيفًا ومرتبًا، وبحيث لا أضطرّ إلى إطلاع معلم الابتداء على أيّ شيء. كان ليكون لدى الكاهن الإسباني العجوز هذا جمهرة من الناس المصطفّين أمام كرسي الاعتراف القابع فيه: كان لديه وشاح زهري اللون يغطّي به عيونه، يتمتّع بشيء ما ويعطيك كفارة معيّنة لتقوم بها قبل أن يصرّك. سبق له أن قابلني مرّتين، لكنّه كان يدعوني أنتوني. لذا وقفت في الصف، وعندما أرفّ دوري، حاولت وأنا أتلو اعترافي أن أغيّز من صوتي. استمع لي بصبر، أعطاني كفارتي، وأعطاني الحل، ثم قال: «أنتوني متى ستذهب إلى الابتداء؟».

حسن، في كلّ الأحوال، فقد ذهبتُ إلى تلك الرعية في اليوم التالي لسيامتي. فقال لي الكاهن العجوز: «أتريد سماع الاعترافات؟». قلتُ: «حسن». قال: «إذهب واجلس في كرسي الاعتراف الذي اعتدت الجلوس فيه». فكّرتُ: «يا إلهي، أنا رجلٌ قديس. سأجلس في كرسي الاعتراف الذي يخضّه». سمعت الاعترافات ثلاث ساعات. كان أحد الشعابين (السعف) وكان جمهور الفصح قادمًا. خرجتُ محبطًا، ليس ممّا سمعته، لأنّه تمّ توجيهي لقبول ذلك، ومع امتلاك بعض التلميح لما يجري في قلبي أنا، فقد ضمت من لا شيء. أتعرّفون ما الذي أحبطني؟ إدراكي أنّي أعطيتهم الملاحظات التقوية تلك: «صل للأُم المباركة، إنّها تحبك». و«تذكّر أنّ الله في صفك». أتقدّم الملاحظات التقوية هذه علاجًا للسرطان؟ والسرطان الذي أتعامل معه هنا هو نقص الوعي والحقيقة. لذلك أقسمت قسّمًا معظّمًا لأنفسني ذلك اليوم: «سأتعلم، سأتعلم، بحيث لا تخرج تلك الكلمات منّي عندما يكون قد فات الأوان، بحيث لا يقول لي أحدهم: أبنت ما قلته لي هو صحيح بالتأكيد، لكنّه غير مفيد على الإطلاق».

الوعي والتبصّر. عندما تُصبح خبيرًا (وستصبح خبيرًا عمّا قريب)، لا تحتاج إلى اتباع دورة في علم النفس. ما أن تبدأ بملاحظة نفسك، بمراقبة نفسك، بالنقاط المشاعر السلبية تلك، حتّى تجد طريقتك الخاصة لتفسيرها. وستلاحظ التغيير. لكن سيتوجّب عليك ساعتها التعامل مع النذل الكبير، وذلك النذل هو إدانة الذات، كراهية الذات، عدم الرضى بالذات.

الصور المنسقة

دعونا نتكلم أكثر على اللامجهود في التغيير. فُكِّرت في صورة جميلة لذلك، المركب الشراعي. عندما تعصف ريح هائلة في شراع المركب الشراعي، فإنه ينزلق دونما أي جهد يُذكر بحيث لا يتوجب على البحار فعل شيء ما عدا التوجيه. لا يبذل أي جهد؛ لا يدفع القارب. إنها صورة لما يحدث عندما يحصل التغيير من خلال الوعي، من خلال الفهم.

كنت أمتز على بعض ملاحظاتي ووجدت بعض الاقتباسات التي تتواءم مع ما كنت أقوله. أصفوا لهذه: «ما من شيء بقسوة الطبيعة. ما من مهرب منها في الكون بأسره، وعلى الرغم من ذلك فليست الطبيعة ما يجرح. بل قلب الإنسان ذاته». أيعني لكم ذلك شيئاً؟ ليست الطبيعة ما يجرح. بل قلب الإنسان ذاته. هناك قصة بادي الذي سقط من على السقالة وتلقى صدمة قلبية. سألوه: «هل أذاك السقوط يا بادي؟» فقال: «لا، ما أذاني هو التوقف لا السقوط». عندما تقطع المياه، فإن المياه لا تتألم؛ أما عندما تقطع جسماً صلباً، فإنه ينكسر. لديكم مواقف صلبة في داخلكم؛ لديكم أوهام صلبة في داخلكم؛ هذا ما يصطدم والطبيعة. من هنا تتألمون؛ من هنا يأتي الألم.

وهذا اقتباس جميل آخر: إنه من حكمة شرقية، على الرغم من أنني لا أذكر أنها بالضبط. نعاماً كما لا نتوقف كثيراً على اسم كاتب الإنجيل. قما قيل هو المهم. «إن لم تُحجب العين، فإنها تُنتج رؤية؛ إن لم تُسد الأذن، فإنها تُنتج سمعاً؛ إن لم يُسد الأنف، فإنه يُنتج حاسة الشم؛ إن لم يُغلق الفم، فإن النتيجة هي حاسة الذوق؛ إن لم يُغلق الذهن، فإن النتيجة هي الحكمة».

تتأني الحكمة من إسقاط الحواجز التي أقمتوها من خلال مفاهيمكم وتكيفاتكم. ليست الحكمة شيئاً مكتسباً؛ ليست الحكمة خبرة؛ ليست الحكمة تطبيق أوهام الأمس على مشاكل اليوم. وكما قال لي أحدهم فيما كنت أدرس من أجل شهادتي في علم النفس بشيكاغو منذ عدة سنوات قلت: «في حياة الكاهن، كثيراً ما تكون خبرة خمسين سنة مكافئة لخبرة سنة واحدة مكزرة خمسين مرة». تحصل على الحلول ذاتها لتسقط عليها المشاكل التي تواجهك: هذه طريقة التعامل مع مدمن الكحول؛ هذه طريقة التعامل مع الكهنة؛ هذه طريقة التعامل مع الرأهيات؛ هذه طريقة التعامل مع المطلقين. إلا أن هذا ليس بحكمة. الحكمة هي أن تكون مرهفي الحس تجاه هذه الحالة، تجاه هذا الشخص، غير متأثرين بأي أحمال من الماضي، من غير أي مخلفات من تجارب الماضي. وهذا يخالف إلى حد بعيد طريقة التفكير التي اعتادها معظم الناس. سأود أن أضيف عبارة أخرى إلى تلك التي قرأتها: «إن لم تتم إعاقة القلب، فإنه يُنتج حياة». كنت أشدد على أهمية الحب طوال

الأيام الماضية، مع أنني قلت لكم بأنه ما من شيء يمكن قوله حقيقة عن الحب، يمكننا أن نتكلم على اللاحب، يمكننا التكلم فقط على التعلق، أما عن الحب بحد ذاته فما من شيء يمكنه أن يقال على نحو بئس.

لا شيء يُقال عن الحب

كيف لي أن أصف الحب؟ قرّرت أن أعطيكم إحدى التأملات التي أضفها في كتاب جديدي لي. سوف أقرأه عليكم ببطء؛ وفي هذه الأثناء عليكم أن تتأملوا فيه، لأنني كتبته بعبارة قصيرة بحيث يمكننا إتمامه في ثلاث دقائق أو أربع؛ وإلا فسوف يستغرقني الأمر نصف ساعة. إنه تعليق على آية في الإنجيل: «كنث أفكر في تأمل آخر، لأفلاطون: «لا يمكن أحداً أن يستعبد الإنسان الحر، لأن الإنسان الحر حرّ حتى في السجن». إنه يشبه آية من الإنجيل: «ومن سخرك أن تمشي معه ميلاً فامشي معه ميلين». قد تظنّ أنك استعبدتني عندما وضعت الحمل على ظهري، إلا أنك لم تفعل. إن كان ثقة شخص يحاول تغيير الواقع الخارجي من خلال محاولة الخروج من السجن ليكون حراً، فإنه يكون سجيناً بالفعل. لا تكمن الحرّية في الظروف الخارجية، بل تكمن في القلب. عندما تحصل على الحكمة، فمن باستطاعته استعبادك؟ في كل الأحوال، أصغوا إلى الآية الإنجيليّة التي عبرت بخاطري في وقت سابق: «ولمّا صرفهم صعد الجبل ليصلي في العزلة. وكان في القساء وحده هناك». هذا هو الحب. أسبق أن أخطر ببالكم أن بإمكانكم أن تحبوا فقط عندما تكونون وحدكم؟ ما معنى أن نحب؟ ذلك يعني أن نرى شخصاً، موقفاً، شيئاً على حقيقته، لا كما نتخيّله، وأن نعطيه الإجابة التي يستحقّها. لا يمكنك أن تحب ما لم تتمكّن حتى من رؤيته. وما الذي يمنعنا من الرؤية؟ فكيفاً، مفاهيمنا، فئاتنا، أحكامنا المسبقة، إسقاطاتنا، التسميات التي استخرجناها من ثقافتنا وتجاربنا الماضية. الرؤية هي أقصى ما يمكن الكائن البشري أن يتولاه، لأنها تتطلب ذهنًا منضبطًا ومنقّداً. إلا أن معظم الناس سيفضلون بالحرّي الانزلاق إلى كسل عقلي عن بذل الجهد لرؤية كل شخص، كل شيء في لحظة نضارته الحاضرة.

فقدان السيطرة

إن أردتم فهم السيطرة، فكثروا في طفل صغير أعطي ولغا بالمخدرات. ما أن تخترق المخدرات جسده الصغير، حتى يصبح مدمناً؛ يبكي كيانه بأسره طلباً للمخدرات. أن يحرم من المخدرات عذاب لا يمكن احتماله بحيث يبدو من الأفضل له أن يموت. فكثروا في تلك الصورة - لقد أدمن الجسد المخدر. والآن فإن ذلك هو بالضبط ما يفعله بكم مجتمعكم عندما تولدون. لم يكن من المسموح لكم أن تستمتعوا بغذاء الحياة الصلب، والمغذي - أي العمل، اللعب، التسلية، الضحك، صحة الناس، مسرات الحواس والعقل. وإنما أعطيتهم ولغا بمخدر يدعى الاستحسان، التقدير، الاهتمام.

سأقتبس هنا من رجل عظيم أس. نيل (A. S. Neill). إنه مؤلف سمرهيل Summerhill. يقول نيل بأن أفضل مؤشر على طفل مريض هو كونه يحوم دومًا حول والدته؛ إنه مهتم بأشخاص. إذ إن الطفل المعافى لا يهتم بالأشخاص، بل بالأشياء. عندما يكون الطفل متأكدًا من حب أمه، ينسى أمه؛ يمضي خارجًا لاستكشاف العالم؛ إنه فضولي. يبحث عن ضفدع ليضعه في فمه - يقوم بهذا النوع من الأشياء. أما عندما يحوم الطفل حول أمه فإن ذلك مؤشر سيئ؛ على أنه لا يشعر بالأمان. لربما كانت أمه تحاول امتصاص الحب منه، من غير أن تعطيه الحزبة والضمان الذي يريد. لربما تهدده أمه بتركه باستمرار، وبمختلف الطرق الخبيثة.

لذا، فقد أعطينا ولغا بأنواع مختلفة من إدمان المخدرات: الاستحسان، الانتباه، النجاح، الوصول إلى القمة، المقام، ظهور أسمائنا في الجرائد، السلطة، أن نكون رؤساء. ثم إعطاؤنا ولغا بأشياء من قبيل أن أكون كابتن الفريق، قائد الفرقة الموسيقية، إلخ. من خلال امتلاكنا الولع بهذه المخدرات، فإننا نصبح مدمنين ونفزع من فقدانها. تذكروا فقدان السيطرة الذي شعرت به، الرعب من مشهد الفشل أو ارتكاب الأخطاء. من مشهد انتقاد الآخرين. لذا فإنكم تصبحون معتمدين، وبخبين، على الآخرين وتخسرون حريتكم. وقد أصبح الآخرون يمتلكون الآن القدرة على جعلكم سعداء أو تعساء. تتوقون إلى مخدراتكم، ولكن، بمقدار ما تكرهون المعاناة التي يتسببها كل ذلك، تجدون أنفسكم عاجزين بشكل كامل. ما من حقيقة لا تكونون فيها، سواء بشكل واع أو غير واع، مدركين لردود أفعال الآخرين، سائرين وفقًا لإيقاع ضربات طبولهم. يمكن إعطاء تعريف جيد للشخص البقظ: إنه ذاك الشخص الذي لم يعد يمشي وفقًا لقرع طبول المجتمع، شخص يرقص وفقًا للحن الموسيقى المنبثقة من داخله. عندما ينم تجاهلكم أو استهجانكم، فإنكم تختبرون وحدة قاسية لا يمكن تحملها، بحيث ترحفون إلى الناس ثانية لتجدوا المخدر المريح والمدعو الدعم والتشجيع، إعادة التوكيد. إن العيش

مع الناس في مثل هذه الحالة يتضمن توتراً لا نهاية له. قال سارتر: «الجهيم هو الآخر». لكم ذلك صحيحاً عندما تكونون في مثل هذه الحالة من الكآبة، يتوجب أن يكون سلوككم دوماً على أفضل حال ممكن؛ لا يمكنكم أبداً أن تدعوا شعركم مبهتراً؛ يتوجب عليكم العيش وفقاً للتوقعات. أن تكون مع الناس يعني أن تعيش بتوتر. وأن تكون من غيرهم فذلك يجلب كرب الوحدة. لأنكم تفتقدونهم. فقد تم قدرتكم على رؤيتهم على حقيقتهم وعلى الاستجابة لهم بدقة. لأن إدراككم لهم مشوب بالحاجة إلى مخدّراتكم. تروّاهم حتى الآن وسيلة الحصول على مخدّركم أو تهديداً بانتزاع هذا المخدّر منكم. تنظرون إلى الناس دوماً، سواء بشكل واع أو غير واع، من خلال هذه الأعين. هل ساحصل على ما أريد منهم، أم لن أتمكن من الحصول على ما أريده منهم؟ وإن لم يكن بمقدورهم توفير مخدّري أو حتى تهديده، فلست مهتماً بهم. إنه شيء فظيع ليُقال، إلا أنني أتساءل فيما لو كان ثقة من هو حاضر هنا من غير أن يقال ذلك عنه.

الإصغاء إلى الحياة

والآن، فإنكم تحتاجون إلى الوعي وإلى التغذية. تحتاجون إلى تغذية جيدة وصحية. تعلموا الاستمتاع بغذاء الحياة المتين. الغذاء الجيد، الخمر الجيد، الماء الجيد. تذوقوا ذلك. تجزروا من عقلكم وأتجهوا إلى حواسكم. ذلك هو الغذاء الجيد، الصحي والمغذي. ملذات الحواس وملذات العقل. القراءة الجيدة، عندما تستمتعون بكتاب جيد، بنقاش حقيقي أو تفكير جيد. إنه مدهش. للأسف، فقد جُنَّ الناس، وهم يصبحون مدمنين أكثر فأكثر لأنهم لا يدرون كيف يستمتعون بتفاصيل الحياة الحلوة. لذلك يلجأون إلى منبهات صناعية أقوى.

في السبعينيات، ناشد الرئيس كارتر الأميركيين بالرجوع إلى التقشف. فُكرت شخصيًا في إنه لم يكن يتوجب عليه مطالبتهم بالتقشف، كان يتوجب عليه مناشدتهم حقًا بالتمتع بالأشياء. معظمهم فقد قدرته على التمتع. اعتقد صادقًا أن معظم الناس في البلدان المزدهرة فقدوا تلك القدرة. يتوجب عليهم الحصول على المزيد والمزيد من الأدوات المكلفة؛ لا يمكنهم التمتع بالأشياء البسيطة في الحياة. ثم أذهب إلى أماكن تمتلك جميع أنواع الموسيقى المدهشة، حيث يمكنك الحصول على تلك التسجيلات بتخفيضات، إنها مقدسة، لكن ما من أحد يستمع إليها - ما من وقت، ما من وقت، ما من وقت. إنهم مذبذبون، ما من وقت للاستمتاع بالحياة. يُفرضون في العمل. إمضي، إمضي، إمضي. إن استمتعتم حقًا بالحياة، وبملذات الحواس البسيطة، فسوف تذهلون. سوف تطوّرون الانضباط المذهل ذلك الموجود لدى الحيوانات. إذ لا يقرط الحيوان بالأكل على الإطلاق. إن ترك في محيطه الطبيعي، فإنه لن يُصاب يومًا بزيادة في الوزن. لن يأكل أو يشرب ما هو غير مناسب لصحته. لن تجدوا يومًا حيوانًا مدخنًا. وهو يمارس من التمارين المقدار الذي يحتاج إليه - راقبوا قطعتكم بعد تناولها الفطون، انظروا كيف تسترخي. وانظروا كيف تشب إلى النشاط. انظروا طراوة أطرافها وحيوية جسدها. لقد فقدنا ذلك. نحن ضالعون في أذهاننا، في أفكارنا ومثالياتنا وهلم جرا، والأمر دومًا على هذه الشاكلة: إمضي، إمضي، إمضي. وبالنتيجة يتولد لدينا صراع ذاتي داخلي لا يوجد لدى الحيوانات. وندين أنفسنا باستمرار ونشعر بالذنب باستمرار. نعرفون ما الذي أنكلم عليه. كان يمكنني أن أقول عن نفسي ما سبق وقاله لي أحد أصدقائي اليسوعيين منذ بضع سنوات خلت: أبعث طبق الحلويات ذاك، لأنني أمام طبق من الحلويات أو الشوكولا أفقد حزيتي. ذلك صحيح بالنسبة إلي أيضًا؛ فقد خسرت حزيتي أمام أنواع الأشياء كافة، لكن لا أكثر! أنا قانع بالقليل وأستمتع به بشكل مكثف. عندما تستمتعون بشيء ما بشكل مكثف فإنكم لا تحتاجون إلا إلى القليل. يشبه الأمر أولئك المشغولين بالتخطيط لمطلتهم؛ يُمضون شهرًا في التخطيط لها.

وعندما يصلون إلى المكان، يكونون قلقين بشأن حجوزات العودة. إلا أنهم يلتقطون الصور، وسيعرضون عليك لاحقاً صوراً في اليوم، لأماكن لم يزوها مطلقاً بل اكتفوا بتصويرها. إنه رمز للحياة العصرية. لا يمكنك أن تحذرهم بالشكل الكافي حيال هذا النوع من التفتش. أبطنوا قليلاً وتوقفوا واشتقوا واسمعوا، ودعوا حواسكم تعود إلى الحياة. إن أردتم طريقاً ملكياً للتصوف، اجلسوا يهدوء واصفوا إلى كل الأصوات المحيطة بكم. لا تركزوا على أي صوت محدد؛ حاولوا سماعها كلها. أوه، سترون المعجزات تحدث لكم عندما تعتق حواسكم. ذلك مهم إلى أقصى حد في عملية التغيير.

نهاية التحليل

أريدكم أن تتذوقوا الفرق بين التحليل والوعي، أو بين المعلومات من جهة والتبصر على الجهة المقابلة. المعلومات ليست تبصراً، والتحليل ليس وعياً، المعرفة ليست وعياً. تخيلوا أنني دخلت القاعة مع أفقي تتسلق ذراعي، قائلاً لكم: «أترون الأفقي التي تتسلق ذراعي؟ لقد تأكدت من إحدى الموسوعات قبل قدومي إلى هذه الجلسة ووجدت أن هذه الأفقي تنتمي إلى فصيلة من الأفاعي السامة تدعى راسل. إن عطيتني، فسأمويت في مهلة لا تتجاوز نصف الدقيقة. أيمكنكم أن تقترحوا وسيلة أو طريقة تمكّني من التخلص من هذا المخلوق الذي يتسلق ذراعي؟». من يتكلم بهذا الشكل؟ لدي معلومات، إلا أنني لا أملك الوعي.

أو لنقل بأنني أدمر نفسي من خلال إدماني على الكحول. «من فضلكم، انصحوني بطرق أو وسائل تمكّني من التخلص من هذا الإدمان». الشخص الذي قد يقول ذلك لا يملك أي وعي، يعرف بأنه يدمر نفسه، إلا أنه لا يعني ذلك. إن كان يعني ذلك، فإن الإدمان سيتوقف في تلك اللحظة. لو كنت أعني ماهية الأفقي، ما كنت لأدعها تفتري ذراعي؛ كآلة لتعبير من خلالي. هذا ما أتكلم عليه، ذلك هو التغيير الذي أنكم عليه. لا تغير نفسك، ليس الأمر أن نفسي ستغير نفسي. التغيير يحدث من خلالك، وفيك. إنها الطريقة الأمثل التي تمكّني من التعبير عن المقصود بشكل وافي. نرى التغيير يحدث فيك، من خلالك؛ يحدث في وعيك. لا تقوم به. عندما تقوم به، فتلك إشارة سيئة؛ لأنه لن يستمر طويلاً. وإن استمر طويلاً، كان الله في عون الناس الذين تعيش معهم، لأنك ستكون صارماً جداً. من المستحيل العيش مع الأشخاص الذين يتغيرون على أساس كره الذات وعدم الرضى عن الذات. قال أحدهم: «إن أردت أن تكون شهيداً، فتزوج من قديسة». أمّا في الوعي فتحتفظ بروحك، بملفك، بدمائتك، بانفتاحك، بفرونتك، ولا تدفع، ويحدث التغيير.

أذكر كاهناً في شيكاغو أخبرني فيما كنت أدرس علم النفس هناك: «أتعرف، امتلكت كل المعلومات التي احتجت إليها؛ عرفت أن الكحول كان يقتلني، وصدقني، لا شيء يغير مدمن الكحول - حتى حب زوجته وأطفاله. يحبهم، لكن ذلك لا يغيره. إلا أنني اكتشفت شيئاً واحداً غيّرني. كنت مهتماً في مزاب ذات يوم تحت رذاذ من المطر الخفيف. فتحت عيني ورأيت أن ذلك يقتلني. رأيت ذلك ولم يعد لدي بعدها أدنى رغبة في لمس قطرة من الشراب. في الواقع، لقد شربت قليلاً منذ ذلك الوقت ولكن ليس بالقدر الذي يضرني. لم أتمكن من فعل ذلك وما زلت غير قادر على فعله». هذا ما أتحدث عنه: الوعي، ليست المعلومات، بل الوعي.

قال لي أحد الأصدقاء والذي كان مستسلماً للتدخين المفرط: «أتعلم، هنالك كل أنواع النكات عن التدخين، يقولون لنا بأن التبغ يقتل الناس، ولكن انظر إلى المصريين القدماء؛ كلهم أموات وما من أحد منهم كان مدخنًا». بالطبع في أحد الأيام كان يعاني من مشاكل في رقبته، فذهب إلى مركزنا لأبحاث السرطان في بومباي. قال له الطبيب: «أبت، لديك رقعتان في رقتيك. يمكن ذلك أن يكون سرطانًا، لذا سيتوجب عليك العودة في الشهر القادم». بعد ذلك، لم يلمس سيجارة أخرى. من قبل، علم بأنها قد تفتله؛ أما الآن فقد وعى أنها قد تفتله. هذا هو الفرق.

للقدّيس إغناطيوس، مؤسس جماعة الرهبانية، تعبير لطيف بهذا الصدد. إنّه يدعو ذلك تذوّق الحقيقة والإحساس بها - ليس معرفتها، بل تذوّقها والإحساس بها، الحصول على إحساس يتعلّق بها. عندما تحصل على الإحساس بها فإنك تتغيّر. عندما تعرفها في رأسك فإنك لا تتغيّر.

ميت قدمًا

لطالما قلت للناس بأن الطريق لنحيا حقيقة هو في أن نموت. جواز السفر لنحيا هو أن تتخيل نفسك في قبرك. تخيل أنك ممدد في تابوتك. في الحالة التي تعجبك. في الهند نضعهم متشابكي الأرجل. وفي بعض الأحيان يتم حملهم بهذه الطريقة إلى المدفن. إلا أنه وفي بعض الأحيان، يتم تمديدهم بشكل مستوي. لذا تخيل أنك ممدد بشكل مستوي وأنت ميت. والآن انظر إلى مشاكلك من وجهة النظر هذه. ذلك يغيّر كل شيء، أليس كذلك؟

يا له من تأمل لطيف. قوموا به كل يوم إن كان لديكم وقت. شيء لا يصدق، إلا أنكم ستعودون منه أحياء. لدي تأمل عن ذلك في كتاب لي بعنوان «الينابيع». سترزون الجسد يتحلل، ومن ثم العظام، ومن ثم القبار. كل مرة أتحدث عن هذا التأمل، يقول لي الناس: «يا للعرفاء». ولكن ما المقصود إلى هذا الحد فيه؟ إنه الواقع بحق السماء. إلا أن كثيرًا منكم لا يود رؤية الواقع. لا يؤذون التفكير في الموت. الناس لا يحيون، معظمكم، لا يحيون، إنكم بالكاد تحافظون على الجسد حيًا. وهذا ليس بحياة. إلى أن تصلوا إلى المرحلة التي لا تبالون فيها البتة في ما إن عشتُم أو مِتُم. فأنتم لا تحيون. عند تلك النقطة فإنكم تحيون. عندما تكون على استعداد لخسارة حياتك، فإنك تحياها. ولكن، إن كنت تصون حياتك، فأنت ميت. إن كنت تجلس هناك في العلية وعندما أقول لك: «انزل هاهنا» تجيب: «أوه لا، فقد قرأت عن الناس الذين ينزلون السلالم. إنهم ينزلون ويكسرون رقابهم؛ ذلك خطر للغاية». أو أن لا تتمكن من جعلك تعبر الشارع لأنك تقول: «أعلم كم من الناس يتم ضدهم فيما يحاولون عبور الشارع؟» إن لم يكن بإمكانك دفعك لعبور شارع، فكيف تتمكن من جعلك تعبر قارة؟ وإن لم يكن بإمكانك دفعك للخروج من معتقداتك وقناعاتك الضيقة لتنظر إلى عالم آخر، فإنك ميت، ميت بالكامل! الحياة قد اجتازتك. إنك تجلس في سجنك الصغير، مذعورًا؛ سوف تخسر إلهك، دينك، أصدقاؤك كل الأشياء. الحياة هي للمقامرين من الناس. إنها كذلك حقًا. هذا ما كان يقوله لنا يسوع. فهل أنت على استعداد للمخاطرة بها؟ هل تعلم متى تكون على استعداد للمخاطرة بها؟ عندما تكتشف أنك بظن تعلم بأن ذلك الشيء الذي يدعو الناس حياة، ليس بحياة على الإطلاق. يظن الناس مخطئين أن الحياة هي إبقاء الجسد حيًا. لا! أحبوا فكرة الموت، أحبوا. عودوا إليها مرارًا وتكرارًا. فكروا في فتنة تلك الجنة، الهيكل العظيم ذاك في تلك العظام التي تنفتحت بحيث لا يبقى منها سوى ملء قبضة من التراب. من الآن فصاعدًا، يا لها من راحة، يا لها من راحة! لربما لا يعلم بعضكم ما أنكم عليه في هذه المرحلة؛ إنكم مذعورون بالشكل الذي لا يسمح لكم بالتفكير فيه. ولكن، عندما تتمكنون من تفحص الحياة من هذا المنظور، فإن ذلك يجلب لكم راحة كبيرة.

أو لربما تقومون بزيارة مقبرة. إنها خبرة مطهرة وجميلة بشكل لا يُعقل. تنظر إلى هذا الاسم وتقول: «غبي، لقد عاش منذ مدة طويلة، منذ قرنين من الزمن؛ لا بد من أنه عاني من كل المشاكل التي أعاني منها، ولا بد من أنه عاني من العديد من ليالي الأرق. يا للجنون، إننا نعيش لمدة قصيرة جداً». قال شاعر إيطالي، «نعيش في ومضة من الضوء؛ يأتي المساء ثم الليل إلى الأبد». حياتنا هي مجرد ومضة ومع ذلك نبذلها. نبذلها بتلفها، بقلقنا، بهمومنا، بأعبائنا. والآن، وفيما تقومون بهذا التأمل، يمكنكم أن تنهوه بمعلومات؛ أو بالوعي. وفي لحظة الوعي تلك، تكونون أشخاصاً جددًا. طالما استمر ذلك على الأقل، عندها ستدركون الفارق بين المعلومات والوعي.

صديق فلكن كان يطلعتني مؤخرًا على بعض الأساسيات في علم الفلك؟ لم أكن أعرفه، إلى أن أخبرني، أنك عندما ترى الشمس، فإنك تراها في المكان الذي كانت فيه منذ ثمانين دقائق ونصف. لا في مكان تواجدنا الحالي. لأن شعاع الشمس يستغرق ثمانين دقائق ونصف ليصل إلينا. لذا فأنت لا تراها حيث هي الآن؛ إذ تكون في مكان آخر. والنجوم بدورها ترسل إلينا النور منذ مئات آلاف السنين. لذا فعندما ننظر إليها، فقد لا تكون موجودة حيث نراها؛ قد تكون في مكان آخر. قال بآينا إن تخيلنا مجرة، عالمًا كاملاً، أرضنا التي نعيش عليها قد تتلاشى مقارنةً بذيل درب التبانة؛ لا بمركزه، وأن كل نجم هو شمس، وبعض الشموس هي من الكبر بحيث يمكنها احتواء الشمس والأرض معًا والمسافة الفاصلة بينهما. ويتقدير متحفظ، فثمة مئة مليون مجرة! يتوسع الكون، كما نعرفه، بمعدل مليوني ميل في الثانية. كنت مسحورًا وأنا أصغي إلى كل ذلك، وعندما خرجت من المطعم الذي كنا نأكل فيه، نظرت إلى الأعلى بشعور مختلف، منظور مختلف للحياة؟ هذا هو الوعي. يمكنكم النقاط كل ما سبق كحقائق مجردة (وهذا ما أدعوه بالمعلومات)، أو تنحصلون فجأة على منظور مختلف للحياة - ماهيتنا، ماهية الكون، ماهية الحياة البشرية. عندما يملككم هذا الشعور، فهذا هو بالضبط ما أعنيه عندما أتكلم على الوعي.

أرض الحب

إن أسقطنا الأوهام فعلاً بكل ما يمكنها أن تمنحنا إياه أو تحرمنا منه، فسنكون متنبهين. إن نتيجة عدم فعل ذلك مرعبة ولا مفر منها. إذ نفقد قدرتنا على الحب. إن أردت أن تحب، ينبغي لك أن تتعلم الرؤية ثانية. وإن أردت أن ترى، فينبغي لك أن تتعلم التخلي عن مخدراتك. الأمر بهذه البساطة. تخل عن تبعيتك. مرق مجسات المجتمع التي أحاطت بكيانك وحنقته. ينبغي لك إسقاطها. خارجيًا، سيمضي كل شيء كما في السابق، وعلى الرغم من أنك ستستمر في العيش في العالم، إلا أنك لن تكون منه بعد الآن. ستكون حرًا في قلبك أخيرًا، وإن أمكن القول وحيدًا بشكل مطلق. ستموت تبعيتك لمخدراتك. لا يتوجب عليك الذهاب إلى الصحراء؛ أنت وسط الناس؛ وتستمتع بهم بشكل مركز. إلا أنهم لم يعودوا يمتلكون القدرة على جعلك سعيدًا أو تعسا. هذا ما تعنيه الوحدة.

يموت انكالك في هذه العزلة. تولد القدرة على الحب. لا يعود المرء يرى في الآخرين وسائل لإرضاء إدمانه. الأشخاص الذين جربوا ذلك هم فقط الذين يعلمون مقدار الرعب الذي تنضفته العملية. ذلك يشبه أن تقوم بدعوة نفسك للموت. ذلك يشبه مطالبة مدمن المخدرات المسكين بالتخلي عن السعادة الوحيدة التي اختبرها يومًا. كيف يمكن استبدالها بمذاق الخبز والفاكهة، بالمذاق النظيف لنسيم الصباح العليل، بحلاوة الماء في جدول جبلي؟ وفيما يصارع أعراض الانسحاب والفراغ الذي يختبره في داخله بعد أن اختفى المخدر، لا شيء فيما عدا مخدّره بإمكانه ملء الفراغ. يمكنك تخيل حياة ترفض فيها التمتع أو التمتع بكلمة تقدير واحدة، أو أن لا تلقي رأسك على كتف أحد بانتظار الدعم؟ فكر في حياة لا تعتمد فيها على أحد على الصعيد العاطفي، بحيث لا يتمتع أحد بعد الآن بسلطة جعلك سعيدًا أو تعسا. ترفض أن تحتاج إلى شخص معين أو أن تكون مميزًا لأي كان أو أن تقول عن أي كان إنه ملكك. سيكون لطبور السماء أعشاشها والذباب أوجارها، أما أنت فلن يكون لك مكان تلقي عليه رأسك في رحلتك بالحياة. إن وصلت يومًا إلى هذه الحالة، ستعرف على الأقل ما يعنيه التمتع برؤية صافية وغير مشوبة بالخوف أو الرغبة. كل كلمة هنا مقياسة. التمتع على الأقل برؤية صافية وغير مشوبة بالخوف أو الرغبة. ستعرف ما معنى أن تحب. ولكن لتصل إلى أرض الحب، ينبغي لك العبور بالأم الموت، لأن حب شخص ما يعني أن تموت عن الحاجة إلى الأشخاص، وأن تكون وحيدًا بالمطلق.

كيف لك أن تصل إلى هذه المرحلة؟ من خلال الوعي المستمر، من خلال الصبر اللامحدود والتعاطف اللذين تملكهما تجاه مدمن على المخدرات. من خلال تطوير ذوق للأشياء الجيدة في الحياة لمواجهة التوق إلى مخدراتك.

لبي أشياء جيدة؟ حب العمل الذي تحب القيام به من أجل الحب بحد ذاته؛ حب الضحك والحميمية مع الأشخاص الذين لا تشبث بهم والذين لا تعتمد عليهم على الصعيد العاطفي بل تستمتع بصحبتهم. سيفيدك أيضاً أمر القيام بنشاطات يمكنك القيام بها من خلال كيانك بأسره، نشاطات تحب القيام بها لدرجة أنك أثناء القيام بها، لا تعود أشياء مثل التجاح، الاستحسان، والتقدير تعني لك شيئاً. سيفيدك أيضاً أن تعود إلى الطبيعة؛ إصرف الجموع، اصعد إلى الجبال، واتحد بصمت مع الأشجار والأزهار والحيوانات والعصافير، مع البحر والغيوم والنجوم. أخبركم عن نوع الرياضة الروحية التي يشكها النظر إلى الأشياء، وعي الأشياء المحيطة بكم. على أمل أن تسقط الكلمات، أن تسقط المفاهيم، وسوف نرى، سوف نتصل بالواقع. هذا هو علاج الوحدة. عادة ما نسهى لعلاج وحدتنا من خلال التبعية العاطفية للناس، من خلال العثرة والضجيج. هذا ليس بعلاج. غد إلى الأشياء، غد إلى الطبيعة، اصعد الجبل. عندها ستعلم بأن قلبك قد قادك إلى صحراء العزلة الواسعة، حيث ما من أحد إلى جانبك هناك، لا أحد بالتأكيد.

في البداية سيبدو ذلك لا يطاق. إلا أن ذلك يعود فقط إلى عدم اعتيادك على الانفراد. إن تمكنت من البقاء هناك لبرهة، ستزهر الصحراء بالحب فجأة. سينفجر قلبك مغنياً. وسيكون الربيع إلى الأبد؛ سيخرج المخدر؛ ستكون حراً. ومن ثم ستفهم ماهية الحرية، ماهية الحب، ماهية السعادة، ماهية الواقع، ماهية الحقيقة، ماهية الله. ستري، ستعرف بما يتجاوز المفاهيم والتكيفات، الإدمان والتعلق. أيعني ذلك شيئاً؟

دعوني أنهي هذا بقصة لطيفة. كان هناك رجل اخترع فن صناعة النار. أخذ عدته واتجه إلى قبيلة في الشمال، حيث كان البرد شديداً. علم الناس هناك كيفية إشعال النار. كان الناس مهتمين للغاية. أراهم الاستخدامات المختلفة للنار - بإمكانهم الطبخ، تدفئة أنفسهم، إلخ. كانوا ممتنين للغاية بحيث تعلموا فن صناعة النار. ولكن قبل أن يتمكنوا من التعبير عن امتنانهم للرجل، اختفى. لم يكن مهتماً بالحصول على اعترافهم بفضل أو على امتنانهم؛ بل كان مهتماً بتحسين حالهم. مضى إلى قبيلة أخرى، حيث ابتداءً ثانية يعرض قيمة اكتشافه لهم. هناك أيضاً كان الناس مهتمين، إلا أنهم كانوا مهتمين بشكل زائد بعض الشيء براحة بال كهنتهم الذين بدؤوا بملاحظة أن ذلك الرجل يقوم باجتماع الحشود وأنهم أخذوا يفقدون شعبيتهم. لذلك فقد قرروا إبعاده. سقموه، صلبوه، تخيلوا ذلك بالشكل الذي تريدونه. إلا أنهم خافوا من أن ينقلب الشعب عليهم. لذلك فقد كانوا في غاية الحكمة، بل حتى مخادعين. اتعلمون ما فعلوا؟ لقد صنعوا «بور تريه» للرجل ووضعوها على المذبح الرئيسي في المعبد. كما وضعت أدوات صنع النار أمام الصورة، ولقن الناس أن يخلعوا الصورة ويقدموا احترامهم إلى أدوات النار، الأمر الذي فعلوه مطيعين لعدة قرون. مضت العبادة والتبجيل قدماً، إلا أنه لم يكن هناك نار.

أين النار؟ أين الحب؟ أين المخدر المجتث من أجسادكم؟ أين الحرية؟ هذا

هو جوهر الروحانية؟ وبشكل تراجمي، فإن لدينا ميلاً لثلاثي هذا، ليس كذلك؟ هذا هو جوهر رسالة المسيح، إلا أننا نبالغ في التوكيد «يا رب، يا رب»، ليس كذلك؟ أين النار؟ وإن لم تقدنا الديانة إلى النار، إن لم تقدنا العبادة إلى الحب، إن لم تقدنا الليتارجيا إلى إدراك أوضح للواقع، إن لم بقدنا الله إلى الحياة، فما الفائدة من الدين سوى خلق المزيد من الانقسام، المزيد من التطرف، المزيد من التناقض؟ لا يعاني العالم بسبب النقص في الدين بالمعنى المعتاد، بل من النقص في الحب، النقص في الوعي، والحب يتولد من خلال الوعي لا من خلال أي وسيلة أخرى، ما من وسيلة أخرى، إلهموا العوائق التي تضعونها في طريق الحب، الحزينة والسعادة، وسوف تسقط، أشعلوا ضوء الوعي وستختفي الظلمة، ليست السعادة شيئاً تحصلون عليه؛ ليس الحب شيئاً تنتجونه؛ ليس الحب شيئاً تمتلكونه؛ الحب هو شيء يمتلككم، لا تملكون الرياح، النجوم والمطر، لا تملكون هذه الأشياء؛ بل تستسلمون لها، ويحدث هذا الاستسلام عندما تكونون واعين لأوهامكم، عندما تكونون واعين لإدما نكم، عندما تكونون واعين لرغباتكم ومخاوفكم، وكما أخبركم من قبل، فإن التبصر النفسي أولاً، لا التحليل، هو ما يشكل مساعدة كبرى في هذا الصدد؛ التحليل هو شلل، والتبصر ليس بالضرورة تحليلاً، ولقد عبر أحد أعظم المعالجين الأميركيين عن ذلك بشكل جميل للغاية: «إنها خبرة الـ «أها» المهمة هنا». لا يقدم التحليل ببساطة أي مساعدة؛ بل يقدم المعلومات فقط، ولكن إن تمكنت من إنتاج خبرة الـ «أها»، فهذا هو التبصر، هذا هو التغيير، ثانياً، فهم إدما نكم مهم جداً، تحتاجون إلى الوقت، واحسرقاه إذ يتم صرف الكثير من الوقت في العبادة والتسبيح وإنشاد الأغاني، من الممكن استخدامه بشكل مثمر في عملية فهم الذات، لا يتم إنتاج المجتمع من خلال الاحتفالات الليتارجية المشتركة، تعرفون في أعماق قلوبكم، وكذلك أنا، بأن مثل هذه الاحتفالات لا تقيد إلا في الكتابة عن الاختلافات، يتم خلق المجتمع من خلال فهم العقبات التي نضعها في طريق المجتمع، من خلال فهم الصراعات التي تبرز من مخاوفنا ورغباتنا، عند تلك النقطة تنهض المجتمعات، علينا أولاً أن نحرض على عدم تحويل العبادات إلى مجرد إلهاء عن العمل الأهم وهو فعل الحياة، ولكي أحبا فهذا لا يعني أن أعمل لدى الحكومة، أو أن أكون رجل أعمال كبيراً، أو أن أقوم بأفعال إحسان عظيمة، هذا ليس بفعل الحياة، فعل الحياة هو إسقاط العوائق كافة والعيش بنضارة في اللحظة الحاضرة، «عصافير السماء... لا تنسج ولا تغزل» - هذا هو فعل الحياة، بدأت بقولي إن الناس نيام، مائتون، الناس المائتون يديرون الحكومات، الناس المائتون يديرون الأعمال الكبيرة، الناس المائتون يعلمون الآخرين؛ عودوا إلى الحياة، على العبادة أن تساعدكم على تحقيق ذلك، وإلا فلا فائدة منها، نخسر الشبيبة في كل مكان وبشكل مضطرب - تعرفون ذلك وأعرف ذلك، باتوا يكرهوننا؛ ما عادوا مهتمون بالحصول على مزيد من المخاوف ومزيد من الذنوب لثقل على كاهلهم، ما عادوا مهتمين بالحصول على مزيد من العظات والنصائح، إلا أنهم مهتمون بتعلم المزيد عن الحب، كيف بإمكانني أن أكون سعيداً؟ كيف بإمكانني أن أحيا؟ كيف يمكنني تذوق الأشياء الرائعة هذه التي يتحدث عنها المتصوفون؟ هذا هو الشيء الثاني

إذا - الفهم. أما الثالث فهو أن لا تنماهي. سألتني أحدهم اليوم فيما كنت متجهاً إلى هذا المكان: «لا تشعر يوماً بالضعة؟» يا صديقي، أشعر بالضعة بين الفينة والأخرى. لديّ نوباتي. إلا أنها لا تدوم، لا تستمر حقاً. ما الذي أفعله؟ الخطوة الأولى: لا تنماهي. يأتي شعور الضعة ذاك وعوض أن أتوتر بسببه، عوض أن أحتاج بسببه. أفهم أنّي أشعر بالإحباط، بخيبة الأمل، أو مهما يكن الأمر. الخطوة الثانية: اعترف بأنّ الشعور هو فيّ أنا، لا في الشخص الآخر. على سبيل المثال، الشخص الذي لم يكتب لي رسالة، لا يقع في العالم الخارجي، بل يقع فيّ أنا. وما دمت أظنّ أنّه يقع خارجاً عنيّ، فساأشعر بأنّ التمسك بهذه المشاعر هو أمر مبرّر. لا أدعي أن الجميع سيشفرون بذلك؛ في الواقع، سيشفرون به المفضلون فقط، النيام فقط. الخطوة الثالثة: لا تنماهي مع الشعور. «أنا» ليست ذلك الشعور. «أنا» لست وحيداً، «أنا» لست محبطاً، «أنا» لست خائب الأمل. خيبة الأمل موجودة، ويمكن المرء مراقبتها. وستدهشون من السرعة التي تنزلق بها مبتعدة. يتغيّر كل ما تعونه باستمرار؛ تتحرّك الفيوم باستمرار. ما دمتتم تمارسون هذه العملية، فستحصلون في الوقت نفسه على مختلف أنواع التبصر حول السبب الذي جعل الفيوم تأتي في المقام الأول.

لديّ اقتنياس لطيف هنا، بضع جمل ساوّد كتابتها بالذهب. إقتبسها من كتاب س. نيل سمرهيل. يتوجّب أن أعطيكم فكرة عن الخلفية. لوئما كنتم تعرفون أنّ نيل عمل في حقل التربية أربعين عاماً، وقد طوّر نوعاً من المدرسة الخارجة عن المألوف. كان يجلب الصبيان والبنات إلى مدرسته ويتركهم على حرّيتهم. إن أردتم تعلّم القراءة والكتابة فهذا حسن؛ إن لم تريدوا تعلّم القراءة والكتابة، فهذا حسن. يمكنكم أن تفعلوا بحياتكم ما تريدون، شريطة ألاّ يتعارض ذلك مع حرّية شخص آخر. لا تتعارضوا مع حرّية شخص آخر، وفيما عدا ذلك فأنتم أحرار. يقول إنّ أسوأ الطلاب هم أولئك الذين أتوه من مدارس الرهبانيات. كان ذلك في الماضي بالطبع. كان الأمر يستغرق منهم سنة أشهر ريثما يتخلّصون من كل الغضب والامتناع اللذين كبتوهما. كانوا ينمردون لسنة أشهر، يحاربون النظام. أسوأهم كانت فتاة اعتادت عليّ أخذ الدراجة والتجول في البلدة، منجّبة الدروس، متجنّبة المدرسة، متجنّبة كلّ شيء. ولكن حين كانوا يتجاوزون مرحلة التمرد تلك، فإنهم كانوا يريدون التعلّم؛ لا بل أنّهم يبدؤون بالاعتراض: «لمّ ليس لدينا دروس اليوم؟». إلا أنّهم كانوا يحضرون فقط الصفوف التي تشبر اهتمامهم. كانوا يتحوّلون. في البداية كان الأهل متخوّفين من إرسال أبنائهم إلى هذه المدرسة؛ كانوا يحتجّون، «كيف لك أن تربّيهم إن لم تؤدّبهم؟ ينبغي لك أن تعلمهم، أن ترشدهم». ما كان سرّ نجاح نيل؟ لقد حصل عليّ أسوأ أنواع الأطفال، النوع الذي تحلّي عنه الآخرون جميعاً، وفي سنة أشهر كانوا جميعاً يتحوّلون. أصفوا إلى ما قاله - إنّها كلمات استثنائية، كلمات مقدّسة. «ثقة إله داخل كل طفل، وإنّ محاولاتنا لتشكيل هذا الطفل تحوّل الإله إلى شيطان. يأتي الأطفال إلى مدرستي شباطين صغاراً، كارهين للعالم، هدامين، غليظين، كاذبين، سارقين، سيّئ الطبع. وفي سنة أشهر يصبحون أطفالاً

سعداء، أصحاء، لا يفترقون الأذى». إنها كلمات رائعة تأتي من رجل كانت مدرسته في بريطانيا تخضع للتفتيش المنتظم من قبل مدراء أو مديرات وزارة التربية، من أي أحد كان يبالي بالقدر الكافي للذهاب. هذا مدهل. لقد كانت تلك الكاريزما الخاصة به. لا تقوم بمثل هذه الأشياء انطلاقاً من مخطط ما؛ يتوجب أن تكون من طينة خاصة من الرجال. وفي إحدى محاضراته للمدراء والمديرات قال: «تعالوا إلى سمرهيل وسترون أن كل أشجار الفاكهة محفلة بالثمار؛ ومع ذلك فلا أحد يطفف الثمار من أشجارها؛ ما من رغبة في التهجم على السلطة؛ يتم إطعامهم بشكل جيد وما من استياء أو غضب. تعالوا إلى سمرهيل ولن تجدوا طفلاً معوقاً وقد أعطي القاباً للسخرية منه (تعلمون مدى قسوة الأطفال تجاه شخص يتأني). لن تجدوا من يستحث مصاباً بالتأناة على الإطلاق. ما من عنف لدى هؤلاء الأطفال، لأن لا أحد يمارس العنف عليهم». أضفوا إلى كلمات الوحي هذه، كلمات مقدسة. ثقة في العالم أناس على هذه الشاكلة. مهما كان ما يخبركم به الدارسون، الكهنة أو اللاهوتيون، فإنه يوجد وقد وجد أناس لم يكن لديهم منازعات، ولا حتى غيرة، أو صراعات، أو حروب، أو عداوات، لا شيء منها! إنهم موجودون في بلدي، أو يمكن القول بكل أسف إنهم وجدوا مؤخراً نسبياً. كان لدى أصدقاء يسوعيون يخرجون ليعيشوا أو يعملوا بين الناس، ممن أكدوا لي أنهم غير قادرين على السرقة أو الكذب. قالت لي إحدى الراهبات ممن يذهبن إلى شمال شرق الهند للعمل بين بعض القبائل، إن الناس هناك كانوا لا يقطلون على شيء. ولم يسبق أن سرق لهم أي شيء. كما لم يسبق لهم أن كذبوا يوماً. إلى أن ظهرت الحكومة الهندية والمرسلين.

ثقة إله داخل كل طفل؛ وستقوم محاولتنا لتشكيل الطفل بتحويل الإله في داخله إلى شيطان.

ثقة فيلم إيطالي جميل أخرجه فيديريكو فيليني، اسمه «ثمانية ونصف». وفي أحد المشاهد نصادف راهباً مسيحياً يذهب في رحلة أو نزهة مع مجموعة من الصبيان تتراوح أعمارهم ما بين الثماني إلى عشر سنوات. كانوا على الشاطئ، يمضون قدماً، عندما تخلف الراهب في المؤخرة مع ثلاثة صبيان أو أربعة حوله. مَرَّوا بامرأة كانت على ما يبدو مومساً، فقالوا لها: «مرحباً». فأجابت: «مرحباً». سألوها: «من أنت؟». فقالت: «أنا عاهرة». لم يعرفوا معنى ذلك إلا أنهم ادَّعوا أنهم عرفوا. غير أن أحد الصبيان، وكان يبدو عليه أنه أكثر اطلاعاً من الباقين، قال: «العاهرة هي امرأة تقوم بأشياء معينة مقابل المال». فسألوا: «ألعها تقوم بتلك الأشياء إن دفعنا لها؟». أكتهم الإجابة: «لم لا؟». لذلك قاموا بجمع بعض النقود، وأعطوها إياها قائلين: «أيمكنك القيام بأشياء محددة بما أننا قد أعطيناك النقود؟». فأجابت: «بالتأكيد أيها الأطفال. ما الذي تريدون مني القيام به؟». الشيء الوحيد الذي خطر ببال الصبية هو أن تقوم بخلع ملابسها. لذا فقد قامت بذلك. حسناً، نظروا إليها؛ إذ لم يسبق لأحدهم رؤية امرأة عارية من قبل. لم يعرفوا ما يفعلون سوى ذلك، لذا فقد قالوا لها: «أيمكنك أن ترقصي؟». قالت: «بالتأكيد». لذا فقد اجتمعوا

حولها يفتنون ويصفقون؛ فيما كانت المومسي تحرك مؤخرتها وكانوا يستمتعون بشكل هائل. رأى الأخ كل هذا، فركض الشاطئ صائحا في المرأة، مما اضطرها إلى أن تعيد ارتداء ثيابها، ويقول الراوي: «في تلك اللحظة فسد الأولاد؛ حتى ذلك الوقت كانوا بريئين، جميلين».

ليست هذه بالمشكلة غير المعتادة. أعرف مرسلا في الهند يمكن وصفه بالمحافظ؛ إنه يسوعي. أتى إلى إحدى ورش العمل التي أنظمها. وكان يعاني طوال الوقت الذي كنت أعالج فيه هذه النقطة. أتاني في الليلة الثانية قائلا: «توني لا يمكنك أن أصف لك مقدار معاناتي وأنا أصغي إليك». قلت: «لم يا ستان؟». فأجاب: «إنك تعيد إحياء سؤال كينته في نفسي منذ خمس وعشرين سنة، سؤال رهيب. سألت نفسي مرارا وتكرارا: ألم أفسد شعبي بجعلهم مسيحيين؟». لم يكن هذا اليسوعي واحداً من أولئك ذوي الآراء المتحيزة والذين تعرفونهم هنا، بل كان رجلاً قويم العقيدة، تقياً، ومحافظاً. إلا أنه شعر على الرغم من ذلك بأنه قد أفسد شعباً سعيداً، بسيطاً، ساذجاً، عندما جعله مسيحياً.

كان المرسلون الأميركيون الذين ذهبوا إلى جزر بحر الجنوب بصحبة زوجاتهم، يصابون بالهلع لدى رؤيتهم نساء الجزر يأتين إلى الكنيسة عاريات الصدر. كانت الزوجات يصررن على وجوب أن ترتدي النساء ثياب أكثر حشمة. لذا فقد وزع المرسلون عليهن قمصاناً ليرتدينها. في يوم الأحد التالي قدمت النساء إلى الكنيسة وهن يرتدين قمصانهن الجديدة ولكن مع ثقبين كبيرين لمزيد من الراحة والتهوية. كنا على حق فيما كان المرسلون مخطئين.

والآن... بالعودة إلى نيل، فإنه يقول: «لست عبقرياً؛ ما أنا سوى رجل يرفض أن يقود خطي الأولاد». ولكن ما حال الخطيئة الأصلية إذن؟ يقول نيل كما رأينا إن ثقة إلهنا داخل كل طفل، وإن محاولتنا لتشكيل هذا الطفل تحول إله فيه إلى شيطان. لذلك فهو يدع الأطفال يشكّلون قيمهم الخاصة، وهذه القيم هي بشكل ثابت جيدة واجتماعية. أيمن تصديق ذلك؟ عندما يشعر الطفل بأنه محبوب (وهذا يعني: عندما يشعر الطفل بأنك في طريقك)، فإنه يكون على خير ما يرام. لا يخشع الطفل العنق بعد ذلك. لا خوف، إذا لا عنف. كما يبدأ الطفل بمعاملة الآخرين بالطريقة التي تمت معاملته بها. ينبغي عليكم قراءة ذلك الكتاب. إنه كتاب مقدس، حقيقة أنه كذلك. إقرأوه؛ لقد أحدث انقلاباً في حياتي وفي تعاملاتي مع الناس. بدأت أرى المعجزات. بدأت أرى عدم الرضى الذاتي الذي كان مزروعاً في، المناهضة، المقارنات، إلخ. «هذا ليس جيداً بما يكفي». إلخ. قد تعترضون بأنه لو لم يتم دفعي، لما أصبحت ما أنا عليه. هل أحتجت حقاً إلى كل ذلك الدفع؟ وفي كل الأحوال، من قد يرغب في أن يكون ما أنا عليه؟ أريد أن أكون سعيداً، أريد أن أكون مقدساً، أريد أن أكون محبوباً، أريد أن أكون في سلام، أريد أن أكون حراً، أريد أن أكون إنساناً.

اتعرفون من أين تأتي الحروب؟ تأتي من إسقاط الصراعات الداخلية التي نعيشها على العالم الخارجي. أروني فرداً لا يوجد لديه صراع ذاتي داخلي وسار بكم فرداً لا يوجد عنده عنف. سيكون عنده عمل فقط، بل ربما فائز في بعض الأحيان، ولكن من غير ضغينة. عندما يعمل، فإنه يعمل كالجزّاح؛ عندما يعمل، فإنه يعمل كالاستاذ المحب مع الأطفال المتخلفين عقلياً. لا تلومهم، بل تفهمهم؛ إلا أنك تميل إلى العمل. بالإضافة، فإنك عندما تميل إلى العمل مع ضغينتك وعنفك غير الموجهين، فإنك تضاعف من الخطأ. تكون كمن يحاول إطفاء النار بمزيد من النار. تكون كمن يحاول التعامل مع الفيضان بإضافة المزيد من المياه. أكرر هنا ما قاله نيل: «ثمة إله داخل كل طفل، وإن محاولتنا لتشكيل هذا الطفل تحوّل الإله إلى شيطان. يأتي الأطفال إلى مدرستي، شياطين صفراء، كارهين للعالم، هدامين، غليظين، كاذبين، سارقين، سيئي الطبع. وفي ستة أشهر يصبحون أطفالاً سعداء، أصحاء، لا يقترفون الأذى. لست عبثياً؛ ما أنا سوى رجل يرفض أن يهود خطي الأولاد. ادعهم يكونون قيمهم الخاصة، وهذه القيم هي بشكل ثابت جيدة واجتماعية. الدين الذي يجعل الناس جيّدين يجعلهم أيضاً سيئين، أما الدين الذي يُعرف كحرية فإنه يجعل كل الناس جيّدين، لأنه يدمّر الصراع الداخلي (أضفت كلمة داخلي) الذي يجعل الناس شياطين».

يقول نيل أيضاً: «أول ما عمله عندما يأتي طفل إلى سمرهيل هو تدمير ضميره». افترض أنكم تعرفون علامة ينكلّم، لأنني أعلم علامة يتكلّم. لا تحتاجون إلى الضمير عندما يكون لديكم رهافة الحس. لن تكون عتيفاً؛ لن تكون خائفاً. لربّما تظنون أن هذه مثاليات لا يمكن تحقيقها. حسناً، اقرؤوا ذلك الكتاب. لقد وقعت على أفراد، هنا وهناك، ممن تعثروا فجأة بهذه الحقيقة: إن جذر الشر هو في داخلك. ما أن تبدأ بفهم هذا، حتى تتوقف عن مطالبة نفسك، تتوقف عن القيام بالتوقعات من نفسك، تتوقف عن دفع نفسك وتفهم. غد نفسك بغذاء صحي، غذاء صحي جيّد. لست أتكلم على الغذاء الفعلي هنا، بل أتكلم على الغروب، على الطبيعة، على فيلم جيّد، على كتاب جيّد، على عمل ممتع، على صحبة جيّدة؛ على أمل أن تكسروا إدمانكم على المشاعر الأخرى.

ما نوع المشاعر التي تختبرونها عندما تكونون على اتصال بالطبيعة، أو عندما تكونون مستغرقين في أداء عمل تحبّونه؟ أو عندما تتحدثون بانفتاح وحميمية مع شخص تستمتعون حقاً بصحبته دونما تثبّت؟ ما نوع المشاعر التي تتملكك؟ قارن هذه المشاعر بتلك التي تتملكك لدى فوزك بجدار ما، أو سباق ما، أو عندما تصبح ذا شعبية، أو عندما يصقّق لك الجميع. المشاعر الأخيرة ادعوها مشاعر عالمية؛ أما الأولى فادعوها مشاعر الروح. كثير من الناس يريحون العالم ويخسرون أرواحهم. كثير من الناس يعيشون حياة فارغة، بلا روح، لأنهم يغفون أنفسهم على الشعبية، التقدير، والحمد على «أنا بخير، فأنت بخير». أنظر إلي، اعنني بي، ادعمني، قدّرني، على كونهم الرئيس، على امتلاكهم السلطة، على فوزهم بالسباق. هل تغذي نفسك بذلك؟

إن كنت تفعل، فاعلم أنك ميت. لقد خسرت روحك. غدّ نفسك بأشياء أخرى، موادّ أفضل تغذية. عندها ستلاحظ التحوّل. لقد أعطيتكم برنامج حياة متكاملًا، اليس كذلك.

كان أنتوني دو ميللو اليسوعي مديرًا لمعهد سادهانا للمشورة الرعوية في بومونا، الهند، عضوًا في إقليم بومباي اليسوعي بالهند، كان معروفًا على نطاق واسع في الدول الناطقة بالإنكليزية والإسبانية بفضل رياضاته الروحية، ورش العمل التي ينظمها، حلقات الصلاة، والدورات العلاجية - وهو العمل الذي انغمس به لما يزيد عن الثمانية عشر عامًا حول العالم. وعلى الرغم من أنه توفي العام ١٩٨٧، فقد ترك إرثًا غنيًا من التعليم الروحي من خلال كلماته المكتوبة أو المسجلة.

فهرس المحتويات

المقدمة

عن اليقظة

هل سأكون مفيداً لكم في هذا اللقاء؟

عن النوع الأنسب من الأنايئة

عن الرغبة في السعادة

هل سنتكلم على علم النفس في اللقاء الروحي هذا؟

كذلك فالزهد ليس حلاً

أصفوا وانسوا ما تعلمتموه

الحفلة التذكريّة التي تدعى إحساناً

ما الذي يجول في أذهانكم؟

جيد، سيئ، أم محظوظ؟

أوهامنا عن الآخرين

المراقبة الذاتية

الوعي من دون تقييم الأشياء

وهم المكافآت

إيجاد الذات

التجرّد نحو الأنا

المشاعر السلبية تجاه الآخرين

عن التبعيّة

كيف تحدث السعادة؟

إخشوا جذور العنف
 الوعي والاتصال بالواقع
 التدين الجيد هو نقبض اللاوعي
 التسميات
 العوائق أمام السعادة
 أربع خطوات من أجل الحكمة
 العالم على خير ما يرام
 السير نياماً
 التغيير بصفته طمعا
 شخص متغير
 الوصول بصمت
 خسارة سباق الجردان
 القيمة الدائمة
 الرغبة، لا التفضيل
 التشبث بالوهم
 الذكريات العالقة
 لتكلم بشكل ملموس
 الخسارة من أجل الكلمات
 التكيف الثقافي
 الواقع المُفلتر
 نزع التعليق

الحبّ الإلهاني
 كلمات أخرى
 أجندات خفية
 التسليم
 الغام متناصفة
 موت الأنا
 التبخر والتفهم
 عدم التسرع
 أن نصبح صادقين
 الصور المتشقة
 لا شيء يُقال عن الحبّ
 فقدان السيطرة
 الإصغاء إلى الحياة
 نهاية التحليل
 ميت قدمًا
 أرض الحبّ

التدقيق اللغوي: آن ماري شكور

تصميم الغلاف: صفاء الفطايري

الإخراج: تانيا زيدان

الطباعة: ACE Design and Printing Centre

٢٠١٢ / ٩ / ١٥-١-٢٢٠٢